أبو فهر
محمود محمد شاكر

اعصفي يا رياح

وقصائد أخرى

شرح وتقديم
الدكتور عادل سليمان جمال

جمع وتحقيق
الدكتور فهر محمود محمد شاكر

الناشر

مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت : ٨٢٩٨٥١٤

دار المدني بجدة
شارع الصحافة حي مشرفة
تليفون - فاكس : ٦٧١٣٤٢٤

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

رقم الإيداع: ٧٢٧٣/ ٢٠٠١م

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت: ٤٨٢٧٨٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة عَرْض الديوان

الحمد لله وحده لا شريك له، الذى أَعْطَى كل شىء خَلْقه ثم هَدَى، وآتى الحكمة وفَصْلَ الخطاب مِن عباده مَن اصطفى، والذى عَلَّمنا البيان بلسان عربى مُبين. والصلاة والسلام على نبينا الكريم الذى أوتى جوامع الكلم، فما ينطق عن الهوى، كرَّمه ربَّنا عزّ وجلّ فأرسله هاديًا ومبشرًا ونذيرا للناس أجمعين دون سائر أنبياء ربنا ورُسله.

شُغلت أنا وأخى الأصغر الدكتور فِهْر محمود شاكر بجمع مقالاتِ أستاذنا أبى فهر رحمه الله خلال العامين الماضيين، وسوف أشير إلى ذلك فى حينه وموضعه من المقالات التى آمل أن أنتهى منها خلال صيف عام ٢٠٠١، ولكن الكاتب المفكر السياسى الأديب الأستاذ عبد الرحمن شاكر رأى أن نؤجّل ذلك إلى حين. ونبدأ بجمع شعر أبى فِهْر، وبعضه منشور وبعضه الآخر مخطوط لم يُنْشَر بعد[١]. وكان موعد سفرى قد

(١) وبعضه - وهو شعر الصِّبا مزقه الأستاذ ولم يحتفظ به أو يحفظ منه شيئًا، كما ذكر فى مقابلة مع الأستاذ نجم عبد الكريم، فقد سأله متى بدأ يكتب الشعر،=

نال، فاستقلّ الدكتور فهر بعبء جمع الشعر ومن ورائه عين لا تغفل ولا تنام تحثه وتشجعه، ورغم تعبها وكلالها فلم يبخل صاحبها أخونا الأكبر الأستاذ عبد الرحمن شاكر بمراجعة التجارب الأولى. فله خالص الشكر على ما أعطى وبذل، وأيَّد وعضَّد، ولولا إصراره الذى لم يفتر وعَزْمه الذى لم يلن لما رأى الديوان النور هذا العام.

ولكنى حين قمت بمراجعة الديوان وجدت قصيدتين فاته جمعهما فى هذا الديوان. أولاهما قصيدة قافية من خمسة وعشرين بيتًا، نشرت فى جريدة السياسة الأسبوعية، العدد ٢١٥ بتاريخ ٩ أبريل، سنة ١٩٣٠، وثانيتهما داليّة من أربعة وعشرين بيتًا، نشرت فى السياسة الأسبوعية أيضًا، العدد ٢٣٠، بتاريخ ٢ أغسطس، سنة ١٩٣٠. وكان الديوان قد تم

= فقال: فى الحادية عشرة أو الثانية عشرة، فسأله الدكتور نجم عبد الكريم: «هل تحفظ شيئًا من هذا الشعر؟» فأجاب «لا أحفظ شيئًا منه لأننى مزقته كله». انظر مجلة الأدب الإسلامى، العدد السادس عشر من المجلد الرابع، سنة ١٤١٨هـ، ص: ٦٠.

أثناء زيارتى في شهر مارس سنة ٢٠٠١ أنبأتنى ابنتى زلفى محمود شاكر أنها عثرت على أشعار خطية كثيرة بخط أبيها، ولما اطلعت عليها، رأيت ان الأستاذ أفرد قسمًا منها سماه «الحجازيات» في دفتر خاص، أما سائر الشعر وهو كثير جدًا فنظمه الأستاذ سنة ١٩٣٠، وهو مقيم بالحلمية. فعسى أن ينشط الدكتور فهر لبعث جزء من تراث أبيه.

جمـعه، كما تم جـمع المقدمة، وبذا أصـبح من الصعب ضم هاتين القصيدتين إلى هذا المجموع للأسف الشديد.

وبعـد أن قلّبنا وجـوه الفكر والنظر رأينا أن نرتب قـصـائد الديوان ترتيبًـا تاريخيًّا، أى حسـب تاريخ كتابتهـا أو نشرها، وميزة هذا المنهج أن دارس الديوان يستطيع أن يتتبع تطور ملكة الشعر عند أبى فهر منذ نشر أول قصيدة سنة ١٩٢٦، أى وهو فى السابعـة عشرة من عمـره إلى أن استحكم فنه فى رجـولته وكهولته.

ولكن صادفتـنا عقبة جعلتنـا نحيد شيئًـا ما عن هذا المنهج اضطرارًا. فهناك ثلاث قـصائد لم تُنْشَر ولم نسـتطع أن نحدد لهـا تاريخًا، وهى لا شك من نظمـه فى مرحلة مـتأخـرة من حيـاته، فبـدأنا بالقصـيدة التى جـعلناها عنوانًا للديوان وهى «اعصـفى يا رياح». وهذه القصيـدة ألقاها الأستـاذ على طلبة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية عام ١٩٨٠ بدعوة من المرحوم الدكتور مصطفى هدارة، ولم يُلْقِها كلَّها، نظرًا لطولها، ولكن الجزء الذى قـرأه منها سُـجِّل علَى شريط، وفـيه ذكر الأسـتاذ رحمه الله أنه كتبهـا «قبل القوس العذراء بزمن»، والمعروف أن القوس العذراء نشرت لأول مـرة سنة ١٩٥٢. ثم ثَنَّيْنا بقصيدة «وَعْد» نظمها الأسـتاذ فى الشاعر الفذ المرحوم مـحمود حسن إسماعـيل وكَلْبه «وَعْد» ولم نجد أية إشارة إلى تاريخ كتـابتها.

ثم ثلّثنا بقصيدة «لا تَعُودِى»[1]. وأنا أظن ظنًّا أشبه باليقين أنها نظمت بين سنة ١٩٣٦ و ١٩٤٥. فالملاحظ أن جميع القصائد التى تعبر عما أحس به الأستاذ من خيانة المرأة تقع بين هذه السنوات. وحين تُنْشَر المقالات سيرى القارئ ثلاث مقالات نُشِرت فى مجلة الرسالة سنة ١٩٤٠ بعنوان «إلى أين؟!»، وفيها وصف بالغ لمرارة هذه التجربة وما تركت فى نفسه من ألم وحيرة وشك وعذاب.

ولم أرْمِ بهذه المقدمة التى قدّمت بها للديوان إلى دراسة شعر أبى فهر وإنما هى كما يدل اللفظ «مقدمة». ولعل دارسى الأدب الحديث يُقْبِلون على دراسة هذا الشعر دراسة جادّة، ولا يكون حظه الإهمال كما حدث فى «القوس العذراء»، فرغم أنها نشرت سنة ١٩٥٢، ظهرت أول دراسة لها - فيما أعلم - فى مجلة الكتاب العربى (العدد: ١٥، سنة ١٩٦٥، ص: ١١-١٥) كتبها أستاذنا المرحوم زكى نجيب محمود، أعقبتها دراسة أخرى ظهرت فى الكتاب الذى أهديناه إلى أستاذنا بمناسبة بلوغه سن السبعين، والذى نُشِر سنة ١٩٨٢. كتب هذه الدراسة الدكتور إحسان عباس، أى بعد ما يقرب

---

(١) نُشِرت هذه القصيدة فى مجلة الأدب الإسلامى، المجلد الرابع، العدد السادس عشر، سنة ١٤١٨هـ، ص: ٦٥-٦٧. وقد خصص رئيس تحرير المجلة الزميل القديم الدكتور عبد القدوس أبو صالح أكثر العدد لدراسات متنوعة تناولت أعمال فارس العربية والعروبة الأخير محمود محمد شاكر.

من نشرها بثلاثين سنة وحاول أن يعلل سبب إهمال الدارسين لها بما فيهم هو نفسه. فلعله - أطال الله بقاءه - لا ينتظر ثلاثين سنة أخرى لينظر فى هذا الديوان، خاصة أول قصيدة فيه «اعصِفِى يا رياح».

قال الدكتور محمد أبو موسى فى ختام مقاله القيم «محمود محمد شاكر والفَجْر الصادق» المنشور فى مجلة الأدب الإسلامى (١٧ -٢٤): «وأتوجه إلى الأخوين الكريمين الصديق العزيزعبد الرحمن شاكر والدكتور فهر محمود شاكر برجاء هو من حق الشيخ علينا، ومن حق الأجيال عليهم، وهو أولًا: المحافظة على ما لم ينشر مما كتبه الشيخ وأعدّه لذلك، ثانيًا: جمع كل مقالاته فى كل فنون المعرفة ونشرها...».

وقد وفى الأخوان الكريمان بما راود الدكتور محمد أبا موسى من أمل، وأدليت معهما بدَلْوِى، فأنفقت عامَيْن بمساعدتهما فى إعداد مقالات الأستاذ التى نشرت فى مجلة الرسالة والمقتطف والثقافة والكاتب والمسلمون والبلاغ والمقطم وغيرها، ثم فى إعداد هذا الديوان. ولعلنا بذلك نوفّى الأستاذ بعض حقه علينا، فقد لزمته أربعين عامًا أعطانى فيها بغير حساب، شأنى فى ذلك شأن غيرى من طلاب العلم الذين كانوا يختلفون إلى داره من شتى أنحاء العالم العربى.

رحـمك الله يا أبا فهـر، فلم يقدّرك الناس حق قـدرك إلا بأخـرة من حيـاتك. ولعلك راضٍ بعض الرضى بما تشمـرّ له تلامذتك ومحبّوك ومَن أدركوا أنهم فقدوا عالمًا لم يُر مثله منذ عبـد القادر البغدادى صـاحب خزانة الأدب، فانكبّـوا على ما تركت من آثار بالبحث والتنقيـر حتى يردُّوا بعض فضلك على أجيال مضت وأخرى آتيـة حتى آخر الزمان. ورحم الله المتنبى الذى عشقتَه حين قال - وكأنه يقول ذلك فيك اعترافًا بفضلك عليه-:

فلَقَدْ عُرِفْتَ وما عُرِفْتَ حقيقةً ولَقَدْ جُهِلْتَ وما جُهِلْتَ خُمولا

﴿ربَّنا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَـا بَعْد إذْ هَـدَيْتَنَا وهَبْ لنَا منْ لَدُنْكَ رَحْـمَـةً إنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ﴾

مصر الجديدة { ١٠ من المحـرم ١٤٢٢هـ
٤ أبريل (نيسان) ٢٠٠١م }

عادل سليمان جمال

مقدمة دراسية

لن أتحدث هنا عن سيرة الأستاذ الذاتية، فقد كتب عنها الكثيرون بدءًا بما جاء فى مقدمة «دراسات عربية وإسلامية» الذى أهديناه إليه فى عيد ميلاده السبعين. وكتب عن ذلك أيضًا تلميذه وأخى المرحوم محمود الطناحى فى كتابه «مدخل إلى نشر التراث العربى» (ص ١٠٤ - ١٠٦)، وفى أكثر من موضع آخر، والأستاذ محمود الرضوانى فى «أبو فهر محمود محمد شاكر بين الدرس الأدبى والتحقيق»، والأستاذ عمر حسن القيام فى «محمود محمد شاكر .. الرجل والمنهج». وكلا العملين الأخيرين رسالة ماجستير، أما ما كتبه عنه ابن أخيه الأستاذ عبد الرحمن شاكر فى أماكن مختلفة، فهو ليس مقصورًا على السيرة الذاتية فقط بل يكشف عن جوانب هامة فى حياة الأستاذ وعصره. وكتبت عنه تلميذته وصديقته المرحومة عايدة الشريف أكثر من مرة أوفاها «محمود محمد شاكر: قصة قلم». ثم خصص الهلال جزءًا من عدده الصادر فى فبراير ١٩٩٧ بعنوان «محمود شاكر فى يوم مولده» ساهم فيه بعض محبيه ومريديه، كما وَقَفَت مجلة «الأدب الإسلامى» عددها السادس عشر كما ذكرت ذلك فى رسالة «عرض الديوان» على حياة أستاذنا وأدبه.

وما أريد أن أتناوله هو طبيعة نشأة الأستاذ والجوّ الذى تنفّس فيه. وكيف أثر ذلك عليه وجعله ذلك الرجل المتفرد نسيج وحده بين شعراء عصره وكُتاب زمنه، وخرج شعره على المخرج الذى عهدناه، ودرجت كتاباته على مدرجها الذى ألفناه.

ولا أعنى هنا أن «الفنان» وليد بيئته فقط كما دعا الأستاذ أمين الخولى رحمه الله. فالبيئة وطبيعتها المتميزة تجعل الشعب الذى يعيش فيها له خصائص مادية ومعنوية تختلف عمن يعيش فى أى بيئة أخرى. وطبّق هذا المفهوم على الأدب المصرى، داعيًا إلى إلغاء التقسيم الزمنى للأدب حسب اختلاف العصور لأن هناك أثرًا قويًا لكل بيئة فى الأدب العربى، وأن أساس تقسيم الأدب العربى يجب أن يكون هو اختلاف البيئة وتغايرها فى الأقطار العربية، ووحدة المؤثرات المادية والمعنوية فى هذه البيئة «بحيث تفرد كل بيئة متجانسة بدرس خاص، لا كل قطعة من الزمن ببحث»(١)، ثم تابع ذلك مَن تابع من

---

(١) فى الأدب المصرى، لأمين الخولى. مطبعة الاعتماد، القاهرة ١٩٤٣. وانظر عرضا لآرائه للدكتور حسين نصار فى مقاله «الدعوة إلى دراسة الأدب المصرى» ص ١٧ - ١٩ المنشور فى كتاب «الأصالة والتجديد»، وهو ملخص بحوث ندوة عن أمين الخولى. المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٦.

الدارسين متـابعة مؤمن مُسْـتوثِق أو مُتحفِّظ هَيّاب، كـأستاذنا الدكتور حسين نصار فى دراسته لشعـر ابن وكيع التنيسى[١]، وظافِر الحدَّاد[٢] وأسـتاذنا المرحـوم محـمـد كامل حسين[٣] وغيرهم كُثْر.

وما دعا إليه الأستاذ أمين الخولى - رحمه الله- فى عمومه ذكره الأستاذ شـاكر فى معرض كلامه عن المدنيـات المختلفة، قال: «حقّا إن مصر - وغـير مصر من الأمم التى كانت منزلًا لمدنيات كثيرة متباينة - قد احتفظت بأشياء امتازت بها. ولكن هذه الأشيـاء المميـزة لم يكن مَرَدُّ أكـثرها إلى العـقل بل كان مَـرَدّها إلى الطبائع الـتى أنشأتهـا إرادة الإقليم المسـيطرة على الطبائع الإنسانية، وإلى العادات المـتوارثة التى لم تقاومها هذه المدنيات مقـاومة الحرب والإبادة، فلذلك بقيـت هذه المميزات قائمـة سائرة متـعارفة. . . ونحن نجـد الجنس من الناس ينزل أرضًا غـير أرض، فمـا يمضى الجـيل أو الجيلان حـتى تفنى المـيزات الجنسـيـة فى نسلهم من أبنائهم وأحـفادهم، ويبـدأ الوطن الجديد بطبيعته المستبدّة فى تحويل هذا النسل إلى طبائعه

(١) ابن وكيع التنيسى، مكتبة مصر، ١٩٥٣.

(٢) ظافر الحداد، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥.

(٣) محمـد كامل حسين. فى أدب مصـر الفاطمية، دار الفكر العـربى، القاهرة، بدون تاريخ..

التى تلائم تربته وسماءه وجوّه وحاجات سكانه»[١].

وهذه نظرة ضيقة وإن كان فيها بعض الصحة، فعنصر المكان لا يمكن تجاهله دائمًا فى دراسة الأدب، ولكنه ليس العنصر الوحيد فى تشكيل الفنان ومن ثم فى إنتاجه، لأن الفنان ليس بمعزل عن «المجتمع» الإنسانى الذى يعيش فيه، فالفن لا يُخْلَق من فراغ، فهو نِتاج إنسان يعيش فيه والذى هو جزء منه لا يتجزأ. هذا هو قِوام نظرية «النقد الاجتماعى للأدب» Sociological Criticism، وبها يمكن إلى حد كبير فهم المذاهب الأدبية التى تظهر وتمضى مَدْرجها على مَرّ السنين ثم تُخْلِى مكانها لغيرها. وسوف أحاول أن أتتبع تاريخ هذه النظرية منذ ظهورها باختصار شديد غير مخل لما لها من فائدة - فى تقديرى - فى النظر إلى شعر أبى فهر، وإلى المذاهب الأدبية التى شهدتها مصر فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وأواسطه من البيئية كما سجلها المرحوم الأستاذ العقاد فى كتابه «شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى» إلى الرومانسية، كما عُرِفت عند مُطْران ثم جماعة أبوللو، إلى الاشتراكية الواقعية كما عُرِفت عند جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية، وما صاحبها من الدعوة إلى هجر الشعر العمودى إلى الشعر الحُرّ.

---

(١) مجلة الرسالة، السنة الثامنة، ١٩٤٠، ص ٨١ - ٨٣.

نظرية النقد الاجتماعي للأدب

أثبتَ Edmund Wilsom أن أول من درس مـــــــلاحم هوميروس مســتعملاً هذه النظرية هو Vico فى الدراســة التى كـتبـها فى القـرن الثـامن عشـر والتى أوضح فـيهـا الظروف الاجتماعية التى عاشها الشاعر وتأثير ذلك على أدبه[1]. ويبدو أن هذه النظرية لم تلق قبـولًا، فلا نجد لها إلا صدًى ضعـيفًا فى كتابة Herder فى القرن التاسع عشر. ولكن أتيح لها كاتب فرنسى كـبير وهو Taine الذى حددّها تحـديدًا دقيقًا وعـرّفها تعـريفًا جـامعًـا فقـال: إن الأدب هو نتـاج لحظة معـينة (أى الاسـتجـابة لموقف أو حـدث وقع فى لحظة بذاتهـا)، وجنس معـين من الناس، والأحوال الاجـتماعـية السـائدة آن الحدث

---

(١) وانظر فصـلاً عنه فى كتاب ســتانلى هايمن The Tripple Thinkers, 1938 بعنوان «النقد الأدبى ومدارسه الحديثة» ترجمة إحسان عباس ويوسف نجم. دار الثقافة، بيروت ١٩٥٨، الجزء الأول، ص: ٣٧ - ٨٩.

ولأهم مصادر هذه النظرية انظر:

Joseph Wood Krutch. "The Tragic Fallacy"; Christopher Caudewell. "George Bernard Shaw: A Study of the Bourgeois Superman"; George Orwell. "Rudyard Kipling" in Five Approaches of Literary Criticism, ed. Wilbur S.Scott (Collier Books: New york, 1992; V.F. Calverton. The Newer Spirit, (1925); Stephen Spender. The Destructive Element (1935); Philip Henderson. The Poet and Society (1939); George Thomson. Marxism and Poetry (1945).

والتى يتـقلب فيـها هذا الجنْس. ولكن قـبل أن ينتهى الـقرن التاسع عـشر أضاف Engels و Mark بُعدًا رابعًـا وهو طريقة الإنتاج، وبذلك مَهَّـدا لظهور فرع من فروع النقد الاجـتماعى للأدب، وهو النقد الماركسى.

ورَبْطُ الفن بالقيم الاجتـماعية أَمْرٌ طبـيعى بل ضرورى فى واقع الحياة. ففى أمريكا مثلاً اهتم كُـتاب كثيرون بالعلاقة بين الأدب والمجتمع الذى نشأ فيه مِن أمثال Jack London, Hamlin Garland, Frank Norris - ولما أحل النـقـاد «النـظرية الاجتمـاعية أو السيـاسية» محلّ «المجـتمع» Society وجدوا أمامـهم عددًا هائلًا من الأعمـال الأدبية، فكتب John Macy كتـابًا بعنوان The Spirit of American Literature سنـة ١٩٠٨، يقوم على تفسـير اقتصادى، أمـا كتاب Parrington بعنوان Main Currents in American Thougt, 1927 - 30 فقد أقامه على أساس لبرالية جفرسون Jeffersonian Liberalism.

أمدَّ جثوم الكساد الاقتصـادى على صدر أمريكا وأكثر مدن العالم فى أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات من القرن الماضى النُقّاد بمقيـاس قوى فى حكمهم على الأدب كمرآة للمـجتمع، وهو التفسير الماركـسى وتقييم القُوَى الاجتماعيـة. فرأينا كثيراً من الكُتاب فى أمريكا وانجلترا يصبحون ذوى اتجاه يسارى، من

أمثال Auden, C.Day Lewis, Stephen Spender, Archibald Macleish، كما ظهـرت مجلات ذات طابع يسـارى، فأصدر Michael Gold مـجلة The New Masses، وأصـدر مـجلة The Left Edgell Ricword Reveiew. وانصبّ اهتمام هاتين المجلتـين على نشـر النقد المـاركسى. كـمـا عقـدت الندوات ونشرت الأبحاث التى ألقيت فيها مثل Proleteration Literature in the United States الذى أشرف Hicks على إصداره سنة ١٩٣٥، The Mind in Chains الذى حرّره C.Day Lewis سنـة ١٩٣٧، Forces in American Criticism الذى أصدره Bernard Smith سنة ١٩٣٩. هذا بالإضـافة إلى مـا ظهر مِن كُتب مثل كتاب V.F. Calverton بعنوان The Liberation of American Literature سنة ١٩٣١، ومـثل كتـاب John Strachey بعنوان The Coming Struggle for Power سنة ١٩٣٣، وأخيـرًا كتاب Ralph Fox بعنوان The Novel and the People سنة ١٩٣٧.

فاجتمع من ذلك كله مقاييس حيوية فى غاية الأهمية ترمى كلها إلى الهدف التالى: إلى أى حدّ يُسْهِم الأدب فى الكشف عن حقائق المجتـمع؟ وبالتالى نُظِر إلى الأديب على أنه إما مع «الحقيقة» وإما ضدها.

ولكن أصحاب هذه النظرية بالغوا فى تطبيقها والدعوة إليها

والحكم على إنتـاج الأدباء بمقاييسـهـا، وهى بلا شك ضيـقة تتجـاهل نواحى أخرى فى الإبداع والخلق الفنى، فـثار عليـها بعض تلامـذتهـا لما رأوها جـاوزت وأسرفت ، وقـاد الحـملة Christopher Caudwell ، وكان أوسـعهم علمًا بالماركسـية وأكثرهم فهما للأدب. كذلك فعل James Farrell فى كتابه A Note on Literary Criticism الذى أصـــدره ســنة ١٩٣٦، وآزره فى ذلك Edmund Wlison الذى ذكرته فـى صدر هذا الحديث عن هذه الـنظرية. وبمجىء الحرب العالميـة الثانيـة وما أحدثته من اضطراب وتشتيت بعض مفكريها الألمان والفرنسيين المعـروفين بـ Russo - German Pact فـقدت نظرية النقـد الاجتماعى للأدب أهميتها، ولم يعد لها ما كان من تأثير.

ولعل أهم نقطة ضـعف فى هذه النظرية - مثلهـا فى ذلك نظرية الحكم الأخلاقى على الأدب The Moral Approach - هو تشدُّدها وضيقها فى الحكم على وظيفة الأدب: أى مدح أو إدانة عمل من الأعمال الفنية حسب العقيدة الاجتماعية أو المثل الأخلاقية التى يدين بها الناقد.

وفى تقديرى أن المهمة الحقيقـية للنقد الاجتماعى للأدب أن يوضح الناقد العـلاقة بين أى عمل فنى وبين الجو الاجـتماعى الذى وُجِد فـيه دون إصدار حكم مـا. وقد شُغِل النقـاد دائمًا

بدراسة العلاقة بين الأدب والأديب والمحيط الاجتماعى ولكنهم لم ينجحوا تمامًا فى التخلص من إصدار حكمٍ ما يخفونه فى تضاعيف نقدهم. والذى يفوتهم هنا أن ماهية هذه العلاقة ليست بالبساطة التى قد تبدو لهم. يقول Harry Le-vin : «إن العلاقة بين الأدب والمجتمع علاقة متبادلة، فالأدب ليس مرآة للمجتمع فقط، بل هو عامل مؤثر فى هذا المجتمع»(1).

ولا يزال هناك نقاد مفتونون بهذه العلاقة المعقدة بين الأديب ومجتمعه، فكتب Van Wyck Brooks عدة كُتب أبان فيها عن الأحوال الاجتماعية التى ميزت بعض أعمال الكُتاب الأمريكيين مثل F.O. Matthiessen فى كتابه الممتاز The American Renaissance المنشور سنة ١٩٤١، ومثل L.C. Knight فى كتابه Drama and Society in the Age of Jon-son الذى أصدره سنة ١٩٣٧.

ومن الواضح أن العلاقة بين الأدب والمجتمع علاقة حتمية ولن تتوقف ومن ثم سيظل «النقد الاجتماعى للأدب» قوة لا يُستهان بها فى النقد الأدبى.

*****

(1) "Literature as an Institution", in Accent (Spring, 1946).

فليس المقـصود إذن بالبيـئة مـعناها المحدود الذى دعـا إليه الأستاذ أمين الخـولى رحمه الله، وسبقه إلى بيانه أسـتاذنا غفر الله له وطيب ثراه، وإنما المقـصود بها مـعنى أرحب ومفهـومًا أشمل يربط بـين الأديب ومجتـمعه الذى نشـأ فيـه والعوامل المختلفة التى أثرت فيه دون سواه من أدباء عصره، فباين إنتاجه إنتاجـهم رغم اجتـماعهم فى الزمـان والمكان. يقول الأسـتاذ العقاد رحمه الله فى كلمة تقديمه لكتاب «شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى»: «ومعرفة البيـئة ضرورية فى نقد كل شعر، وفى كل أمـة، وفي كل جـيل. ولكنها ألـزم فى مصـر على التخصيـص، وألزم من ذلك فى جيلها الماضى على الأخص. لأن مصر قـد اشتملت منذ بداية الجيل إلى نهايتـه على بيئات مخـتلفات لا تجمع بينهـا صلة من صلات الثقـافة غيـر اللغة العربية التى كانت لغة الكاتبين والناظمـين جميعًا، وهى حتى فى هذه الجـامعـة لم تكن على نسق واحد ولا مـرتبة واحـدة لاختـلاف درجة التعليم فى أنحـائها وطوائفها. بل لاخـتلاف نوع التعليم بين من نشأوا على الدروس الدينية ومن نشأوا على الدروس العصرية، واختلافه بين هؤلاء جميعًا وبين من أخذوا بنصيب مـن هذا ومن ذاك». ثم يضرب لذلك مثـلاً فيـقول: «وقد اجتـمع البارودى وعلى الليثى فى عصـر واحد، والتقت أواخر أيام البارودى بأوائل أيام المعاصرين، ولكن الفروق بينهم

جميعًا فى مذاهب القول لا يحيط بها أدب أُمّة أخرى من أمم العالم فى ألوف السنين. وكل إدراك لخطوات التجديد فى الأدب المعاصر هو إدراك ناقص مبتور، ما لم يقترن به إدراك هذه الحالة التى لا نظير لها بين آداب اللغات الأخرى، وهى الحالة التى استلزمتها تعدُّد البيئات الأدبية عندنا فى الجيل الماضى».

فواضح جدًا أن الأستاذ العقاد يقصد بالبيئات هنا العوامل الاجتماعية المختلفة التى أثرت بدرجات متفاوتة فى أناس يعيشون فى نفس البيئة الجغرافية وفى ذات الزمان، وبسبب ذلك اختلفت مذاهبهم فى القول وتباينت، كلٌّ حسب استجابته أو تأثره بهذا العامل أو ذاك.

ولا يخلطن القارئ بين هذه النظرة فى العلاقة بين الأديب ومجتمعه وبين الدعوة التى انتشرت فى أوائل القرن العشرين القائلة بأن «مصر للمصريِّين»[١]. فقد تأثر بعض كتاب العَقْد الثانى من القرن العشرين بالنزعة القومية التى صاحبت ثورة سنة ١٩١٩. فاتجه هذا البعض إلى تأكيد «الشخصية المصرية»

---

(١) تبنَّى هذه الدعوة الأستاذ أحمد لطفى السيد سنة ١٩١٣. وهى دعوة رأى فيها الأستاذ شاكر استمرارًا لجهود سبيتا، ووِلْكُوكْس، وولْمُور لهدم اللغة الفصحى وإثارة النعرة القومية وعزل مصر عن العالم العربى. انظر أباطيل وأسمار ص ٢٦١ وما بعدها.

حتى إن عيسى عبـيد قدّم مجموعته القصـصية الأولى «إحسان هانم» إلى سعد زغلول قائلاً: «هدية صغـيرة من كاتب مبتدئ مجهول، آمـاله عظيمة بأن تستقلّ بلادُه، ويستقلّ مـعها الفرد المصرى». ويشرح أهداف كُـتّاب جيله بقوله «فغـايتنا الوحيدة من تأليف القصص أن نسـاعد على إيجاد أدب مصـرى خاص بنا وموسوم بطابع شخصيتنا وأخلاقنا».

بون بعيد شاسع بين أن يكون الأدب متأثرًا بالبيئة التى خرج منها، وبين أن يكون هذا الأدب «محليًّـا» لا يعبر إلا عن هذه البيئة وسـترى بعد قليل هجوم الأستاذ العـقاد - رحمه الله - على هذا الاتجـاه. ويسـتـــدعى الإنصـاف أن أذكـر أن بعض القصّاص المعاصـرين للأخوين عيسى وشحاتة عبـيد لم يعتنقوا هذا الاتجاه «المحلّـىّ»، كأكثـر أعضـاء «المدرسة الحديـثة» التى أنشأها أحمد خيرى سعـيد. يقول محمود طاهر لاشين - أبرز أعضـاء هذه المدرسة - فى مـقابلة مع المجلة الجـديدة: «ليس شرطًا أن تسـتمدّ القصص موضـوعاتها من المجتـمع المصرى، فنحن جزء من هذا الـكون، وشخصـياتنا التى يجب رسمـها بعـمق يجب أن تكون «إنسـانيـة المنزع، وإن كـانت مـحليـة المكان»[1]. وذكر أحمد خـيرى دور هذه المدرسة بقوله «لم يكن هدفهم هو التـركيز على المجـتمع المصرى لا غـير، بل كتـبوا

(١) مجلة «المجلة الجديدة»، يونيو ١٩٣١، ص:٩٦٨.

للإنسانية عامة غيـر مقيدين بمكان أو جنس أو زمان». على أن كلام أحـمد خيرى - رحـمه الله - فيـه نظر، فلست أظن ما قاله يـنطبق على كل أعضـاء «المدرسة الحـديثة» بلا استـثناء، ولكنه يصدق أكثر ما يصدق على محمود طاهر لاشين.

*****

وتاريخ الشعـر المصرى فى القرن العشريـن معروف، أُلِّفت فيـه عشـرات الكتب فما أغـنانى عن سطره هنا، ولكنى على هذا مـضطر إلى ذلك أشـد اضطرار لأنه الشـعـر الذى فـتح الأستاذ شاكر عينيه فرآه حوله، وقـرأه يافعا ليتمثله، ثم عالجه رجلاً مكتمل الأداة ناقـدًا شاعرًا، ولكنك واجدٌ فيمـا سأكتب بعض الاختـلاف - ولا أقول الجِدَّة - عـمّا كُتب عن الشـعر المصرى من مطلع القرن العـشرين حتى الحرب العالميـة الثانية، لأنى سأتناوله فى ضوء النظرية التى شرحتـها آنفًا وهى علاقة الأدب بالمجتمع.

بدأ التجديـد فى الشعر المصرى على يد البـارودى كما هو معروف وانتـهت هذه المدرسة - التى يطلق عليهـا بعض النقاد اسم الكلاسيكية الجديدة Neoclassicism[1] بموت شوقى سنة ١٩٣٢. ومشهور متعالم أيضًا التجديد الذى دعت إليه مدرسة

(1) M.M. Badawi. Modern Arabic Literature and the west (London: Ithaca press, 1985), p.27.

الديوان، لذا لن أخـوض فيه، وهمّى هنا أن أُبين عـن العنصر الاجتمـاعى الذى صاحب هذا التجديد وشعـور أصحاب هذه المدرسة بالزمن الذى كانـوا يعيشون فيـه، ولكن قبل أن أفعل أريد أن أمهّد لذلك بوصف الأسـتاذ العقاد لاتجاه مـعيّن لهذه المدرسة. يقول:

«وقـد اسـتطاعت هذه المدرسـة المصـرية أن تقـاوم فكرتين كلتاهـما خاطئـة ناقصـة، وإن جاءت إحداهمـا من الماضى، وجاءت الأخرى من أحدث الأطوار فى الاجتماع».

«ونعنى بالفكرة الأولى تلك التى يفهم أصحابها أن «الأدب القومى» هو الأدب الذى تذكـر فيه الـظواهر والمعالم القومـية بالأسماء والتواريخ والحوادث. وهكذا كان جيل شوقى وحافظ يفهم «القومية» التى تنبغى للشعراء المصريين. فليس من الأدب القومى عنـدهم أن يصف الشاعر عـواطفه الإنسـانية أو يصف المحـيط الأطلسى أو نهـر دجلة أو منـاظر لندن وباريس، لأن هذه الأشياء لا تحمل اسم النيل ومصر والهرم . . . .».

«وأما الفكرة الثانيـة التى قاومتها مدرسة الشـعراء المصريين فى الجيل الحديث فهى فكرة الاشتراكية العقيمة التى تحرم على الأديب أن يكتب حرفًا لا ينـتهى إلى «لقمة خبـز» أو تسجيل حرب الطبقات ونُظم الاجتماع».

---

(١) عباس العقاد. شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضى، ص: ١٩٤-١٩٥.

فـواضح من الفكرة الأولى أن «القـوميـة» لا تعنى البـيئـة الجغرافـية التى دعا إليها أمين الخـولى ومن والاه، وإنما شعور الإنسان حيال هذه البـيئة والظروف الاجتماعيـة التى تكتنفها. وبيِّنٌ من الفكرة الثانية رفض فكرة «الواقعية الاشتراكية»، وقد بينتُ منذ قليل أن هذا الاتجـاه الماركـسى عندما ضـاقت نظرته إلى الأدب ثار عليـه من كانوا يدافـعون عنه. ومـا أشار إليـه الأستاذ العـقاد من «العواطف الإنسانية»، هو الذى سمـاه عبد الرحمن شكرى شعـر الوجدان واتخذ من هذه العبـارة شعارًا فى بيت شعر صدّر به الجزء الأول من ديوانه فقال:

ألا يا طـائرَ الـفِـــــرْدَوْ سِ إنَّ الشِّــعـر وِجْــدانُ

وهكذا ظهرت الدعوة إلى شعر الوجدان، وإن لم تتحقق - كما يقول الدكتور مندور - على نطاق واسع إلا بفضل جماعة أبوللو[1].

كانـت مصر آنذاك تـرزح تحت أعبـاء الاحتلال الانجلـيزى الغاصب، يُسَـيِّر حكامها كـما يريد، ويستنزف مواردهـا كما يشـتهى، ويُذلّ أبناءَها كـما يهـوى، ويهدم ثقـافتـها العربـية الإسلاميـة بغية إنشاء جـيل مُفَرَّغ من ثقـافته ودينه وقومـيته. وخاب أمل الشباب فى سـاستهم. يقول الأستاذ شـاكر رحمه

(١) محمد مندور. الشعـر المصرى بعد شوقى، الحلقة الثالثة نَشْـر معهد الدراسات العربية، القاهرة ١٩٥٨، ص: ٣.

الله كشاهد عيان لهذه الفترة: «قام الشعب فأسمع من كانت له أذنان، فإذا فئة من محترفى السياسة، ومن كل محتال عليم اللسان، ومن كل وجيه زيَّنه ماله وغناه، ومن كل ذى صيت رفعته الأقدار بالحق أو بالباطل قد هبوا جميعًا مع الشعب يقولون مثل الذي يقول. فظن الشعب أنهم قد صدقوا بعد ماضٍ كَذَب على التاريخ وعليهم، فَرَضِى عنهم وأعانهم، ولكن لم يلبث إلا قليلاً حتى رأى الوادى يموج عليه بالحيَّات والأفاعى والعقارب، وكلّ لدَّاغ ونفَّاث وغدَّار، فانتبه فزعًا يطلب النجاة مما تورط فيه من ثقة بأقوام لم ينالوا يومًا ثقته، ولا حمَّلهم أمانته، ولا رضى عن أعمالهم ولا سلم إليهم مقاليده إلا مرغمًا أو مُغَرَّرا أو مخدوعًا».

«إن علينا نحن الشباب أن نوقِّر شيوخنا ونجلَّهم ونستفيد من تجاربهم، وعلينا أن ننازلهم ونصارعهم، ونأخذ من أيديهم المرتعشة ما يستقر فى راحتنا الثابتة التى لا تخاف ولا تتهيَّب. علينا أن نأخذ حقَّنا أَخْذَ الكريم المقتدر من أقران نصارعهم ليموتوا موت الكريم البَذَّال. وعلى هذا الصراع بين جيلينا يتوقف أمر الخير الذى نبتغيه، والاستقلال الذى نجاهد فى سبيله، والعزة التى نسعى إلى اقتحام أهوالها. وعلى شيوخنا أن يعلموا أنه لابد لهم من شباب شديد الأَسْر يشدّ أَزْرَهم إذا

ضعـفوا، ويخلفـهم إذا هلكوا. ولكنهم غفلوا زمـانًا فتـركوا النشء ينشـأ بين أحـضانهم، فلم يـسدِّدُوه ولم يعـاونوه ولم يُعدُّوه لغَدهم، وقَلَبُوا آية الحـيـاة وبدلوا معـناها، فكانوا هم الصِّـبيان حـين تَخَلَّقوا بـأخلاق الصِّـبيان وأصـرُّوا على حب التـملك والتـسلّط والأَثَرة والعناد واللجـاج فى كـبـير الأمـر وصغيره»[1].

ولكن كل ذلك كان صرخة فى واد، وتلدَّد الشباب وتحيّر، وعمّ الناس بلاء مُـسْـتَعِـر، وبقى الشـيـوخ الذين أكل الدهر جِدَّتهم وأبلى هِمَـمهم وأفنى حوافزَهم، وقطع دابر الحـماسة من نفوسـهم يتولَّون تصريف الأمور تصـريف عاجز حَسِـير، ويدبرون سياسة المستقبل تدبير ذاهِل مُسْتَحِير.

هذه إحدى النواحى الاجتماعية التى غشيت مصر: احتلال بغيض، وساسـة ضعفاء، بعضـهم من صنائع المحتل، ويأس ماحق فى إخراج أولئك، أو استبدال هؤلاء.

وثَمّ بلاء آخر ونازلة أشد مِن قِبَل مَن نصبوا أنفسهم حكامًا يدبرون شئـون الحياة لأناس عـانوا من احتـلال أرضهم وثاروا وقاتلوا وقـتلوا. يقول الدكـتور مندور فى سـياق كـلامه عن الطوابع الفنية لمدرسة أبوللو:

---

(١) الرسالة، العدد ٦٩٢، أكتوبر ١٩٤٦، ص: ١٠٩٩ - ١١٠١.

ونحن لا نريد، ولا ينبغى لنا أن نعزل الشعر والأدب عامة عن حياة المجتمع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولا أن نقصر البحث فى عوامل تطورّه ونموّه وتنوّع اتجاهاته على النظرات الفلسفية أو النقدية للأدباء والنُّقاد، وذلك برجوعنا إلى تاريخ بلادنا فى الفترة التى ظهرت فيها حركة أبوللو لن نلبث أن نتبيَّن أنه كان من الطبيعى أن يطغى فى تللك الفترة التيار الرومانسى العاطفى الذاتى. فبلادنا إذ ذاك كان يحكمها رجل يؤمن بنفسه أكثر مما يؤمن بشعبه. وكان الشعب يحسّ منه ذلك ويأبى أن يستجيب له، مما أدّى إلى صدام عنيف بينه وبين الشعب دفعه إلى أن يستعين بالملك فؤاد ثم بالإنجليز ضد هذا الشعب لكى يسومه الخسف وسوء العذاب. وكان هذا الرجل هو إسماعيل صدقى الذى مسخ الحياة البرلمانية مسخًا لم تستقم بعده على عود وكمم الأفواه، واستذل العباد»[١].

وقد انتقد أستاذنا إسماعيل صدقى - انتقادًا شديدًا بسبب المفاوضات المعروفة باسم صدقى - بيفن يقول «وفى خلال ذلك يقف صدقى باشا الذى اتخذته اليوم بريطانيا حجة على مصر، ليقول إن خير الوسائل لنيل حقوق مصر والسودان من بريطانيا هى المفاوضة، كأن هذا الرجل لم يعلم بعد أنه ظل

---

(١) محمد مندور. الشعر المصرى بعد شوقى، الحلقة الثانية: جماعة أبوللو. نشر معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة ١٩٥٧، ص: ٤.

يروح ويغدو ويتلاعب هو وتتلاعب بريطانيا، وكانت العاقبة أن أفضى به الأمر إلى الاستقالة، بعد التكذيب الخبيث الذى كذبت به بريطانيا كل شىء قاله فى تفسير بروتوكول السودان، لقد كان العذر متسعًا لامرئ سواه إن قال بمثل الذى يقول به. ومتى يقول الرجل هذا الكلام؟ يقوله فى ساعة الحرب التى شنتها مصر والسودان على بريطانيا! إننا لا نبالى كثيراً ولا قليلاً بما يقوله هذا الرجل وأمثاله»[1].

وثم بلاء ثالث غال عقول المفكرين والكتاب والشعراء بوجه عام وذهب على الأخص بأستاذنا كل مذهب، وهو إنشاء المدارس الأجنبية فى مصر تحت إشراف دنلوب الذى وجه للتعليم فى مصر ضربات قاضية. فقد كانت هذه المدارس تأخذ أبناءنا من بيوتهم وتضعهم بين جدران هذه المدارس وتنفث فيهم سمّها، وتُحَقِّر لهم بلادهم وأهلها، وتستخفّ بلغتهم العربية - وهى لغة قرآنهم ودينهم - حتى كانت تحرّم على هؤلاء الصغار أن يتكلموا هذه اللغة خلال وجودهم بالمدرسة. وظلت بريطانيا الممثلة فى دنلوب تنمى هذا البلاء حتى استشرى واستفحل وتمكن. وخرج جيل من أبناء مصر نفسها ينظر إلى بلاده كأنها غريبة عنه وإلى لغته كأنها لغة الأعاجم، يحتقر كليهما ويحط من شأنهما كما عوّده الأجنبى، ثم تمادى دنلوب فى نظامه المفسد فرعى هذا الجيل

(١) مجلة الرسالة، العدد ٧٤٠، سنة ١٩٤٠، ص ٩٧٢ - ٩٧٤.

الذى ينظر إلى بلاده وأهله كما ينظر الأجنبى بتعال واحتقار فآواهم ومكّن لهم، فصاروا لبريطانيا أشياعًا يثنّون عليها ويدافعون عنها ويبررون ما ترتكبه فى مصر - بل وفى غيرها مثل الهند - من أعمال.

هذه هى ظروف المجتمع المصرى التى أحاطت بأستاذنا من كل جانب: احتلال عسكرى غاصب، وشعب مهضوم غاضب، ساسة أشبه بالدُّمَى يحركها المحتلّ كيف شاء، وحُكام ظَلَمة طغوا وتجبّروا، وكساد اقتصادى وصل إلى ذروته فى عهد الطاغية إسماعيل صدقى حتى باتت الحكومة غير قادرة على أن تدفع رواتب موظفيها، ثم احتلال فكرىّ يهدف إلى تحطيم الثقافة الإسلامية ولغتها لخلق أجيال من الشباب منبتّة عن أصولها، وهو ما وضّحه أستاذنا كل التوضيح فى كتابه النفيس «رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا»، ومن قبل فى كتابه الغالى «أباطيل وأسمار» ابتداء من المقالة السادسة. ورغم ثورة الشعب المستمرة والتى وصلت إلى ذروتها فى ثورة سنة ١٩١٩، وبلغ من عنف الغضب أن خرجت نساء مصر يشاركن فى الثورة على المحتل الغاصب، والنقد العنيف الذى وجهّه الكُتاب إلى الاحتلال والقصر والوزارة، أقول رغم كل ذلك لم يتغير شىء، بل سارت الأمور من سىء إلى أسْوأ. فخيم اليأس على الناس، وضربت الكآبة أطنابها فى كل مكان، وظهر ذلك أوضح ما يكون فى شعر الشعراء.

نقلت منذ قليل كلام الدكتور مندور عن الحالة التى صارت إليها مصر فى عهد صدقى خاصة وذلك فى معرض كلامه عن جماعة أبوللو، ثم أعقب ذلك بقوله «وفى مثل هذا الجو كان من المستحيل أن يظهر أى أدب غير أدب الشكوى والأنين الذاتى، فالشاعر لا يستطيع أن يتحدث إلا عن نفسه، وأحلامه، وغرامه، وأشواق روحه، أو أن يهرب من الجحيم الذى يحيط به إلى الطبيعة ومناظرها وملاهيها، يتعزى بها عن آلامه وآلام قومه، دون أن يستطيع الإفصاح عن مصدر هذه الآلام، أو يدعو إلى التخلص منها بطريق أو بآخر. ولربما كان فى هذه الحقائق ما يفسر تلك العاطفية التى تطغى على عدد كبير من الشعراء الذين ظهروا أو نضجوا فى هذه الفترة، من أمثال إبراهيم ناجى الذى يقول الشعر من «وراء الغمام» وحسن كامل الصيرفى الذى ينشد «الألحان الضائعة»، ومصطفى عبد اللطيف السحرتى الذى يستنشق «أزهار الذكرى»، ومختار الوكيل الذى يسبح فى «الزورق الحالم»، وعبد العزيز عتيق الذى يستغرق فى «أحلام النخيل»، بل وسيد قطب الذى يرسو إلى «الشاطئ المجهول»، ومحمود أبو الوفا الذى يرسل «أنفاسًا محترقة». وكل هذه عناوين دواوينهم الواضحة الدلالة على صدق ما نقول»[١]. وأضيف إلى ذلك تقاطر دموع محمد طاهر الجبلاوى فى «مُلْتَقَى العَبَرات»، وحيرة على محمود طه

(١) محمد مندور. الشعر المصرى بعد شوقى، الحلقة الثالثة، ص: ٥.

فى «الملاح التائه»، و«ليالى الملاح التـائه» ورنوّ أحمد زكى أبو شـادى إلى «الشفق البـاكى»، ولا يغـرنك عنوان ديوانه الأول «أنداء الفجر»، فأكثره لوعة وأسى، وإبراهيم ناجى يأسى على «الطائر الجـريح»، وحسن كامل الصـيرفى يبكى بـكاء مُرًّا فى «دموع وأزهار». وبالرغم من أن محمد عـبد المعطى الهَمْشَرِى الذى مـات فى شـرخ الشبـاب (١٩٠٨ - ١٩٣٨) لم يتـرك ديوانًا، فإن الأستاذ محمد فهمى جمع طائفة من شعره المنشور فى الصحف والمجـلات باسم «الروائع لشعراء الجيل» وشـعره ملىء بالألم والحسرة، فهرب من جحيم الواقع إلى جنة الماضى ومَراتع الطفـولة. كذلك لم يترك صـالح على الشرنوبى الذى مـات تحت عـجلات القطار فـى عنفوان الـشبـاب (١٩٢٤ - ١٩٥١) ديوانًا، وقام الأسـتاذ صالح جـودت بنشر شعـره بعد وفاة الشرنوبى بعام واحد (١٩٥٢) بعنوان «نشيد الصفاء»، ولا تدع هذا العنوان يغـرك، فهو يبـحث فى شعره عن صـفاء لم ينله، وامتـلأت حياته بالهمـوم والشك والحيرة والخيـبة والألم حـتى ليظن بعض النقاد أنـه مات منتـحرًا بإلقـاء نفســه تحت عجلات القطار. وإذا كانت بعض عـناوين جماعة أبوللو ومَنْ سبقهم من أتباع مدرسة الديـوان مفصحة عن ألم ويأس وحيرة وضياع فـإنهم كانوا يدركون أنهم إنما يعـبرون عما يعـتمل فى نفوس الكثيرين من أبناء الشعب المصرى الذين لم يؤتوا موهبة التعبيـر التى منحها الله لهؤلاء الشعراء، لذا نجـد على محمود

طه يهدى ديوانه «الملاح التائه» إلى «أولئك الذين يستهويهم الحنين إلى المجهول، إلي التائهين فى بحر الحياة. إلى رواد الشاطئ المهجور أهدى هذا الديوان». كذلك أهدى ديوانه «ليالى الملاح التائه» إلى الذين «أطالوا التأمل فى أسرار الكون، وأرهقهم التِّيه فى مَجاهل الحياة، إلى العائدين بأُنْس أحلامهم إلى وَحْشة مضاجعهم بين اللهفة والحنين، إلى المنطلقين عبر الشاطئ المهجور فى ارتقاب عودة الملاح التائه، إليهم جميعًا أقدِّم وَحْى لياليه وأُهْدى بعضًا من أشعاره وطرفا من حديث أسفاره». ولا أدلّ على نزف الجروح وكآبة النفس وحزن القلب مما قاله أستاذنا المرحوم حسن كامل الصيرفى فى مقدمة ديوانه «ألحان ضائعة»:

«آمال وآلام هما العنصران اللذان سيطرا على حياتى فإذا بى وأنا بين الرَّنين المتدفِّق أُحسّ أن وَتَرا كاد أن ينقطع، وهل يصلُح وَترٌ لم يبق بينه وبين التقطيع إلا عَزْفه، ثم ينبت بين نغمة صادرة وصدى يتلاشى؟ والقيثارة كالحياة ينقطع وتر منها بعد وتر، كالناس يفنَوْن فَرْدا بعد فرد، فإن لم تصلحها اليد العازفةُ تحطّمت. فما أَحْسَسْتُ قيثارتى تفقد أوتارهَا حتى ازدادت فى قوة العنصر الثانى، ثم زاد تلوين الحياة أمام عينى بلون أشدّ قَتاما من ذى قبل فإذا ألحانى الضائعة التى أقدِّمها اليوم».

وهذا الإحساس بالخيبة والقنوط والقتامة تراه أيضًا شائعًا فى شعــر شعــراء مصــر قبل ظهور مــدرسة أبوللو بما يــقرب من عشرين عاما، ويكفى أن تقرأ تقديم العقاد لديوان إبراهيم عبد القــادر المازنى الذى صدر سنة ١٩١٣ لتــدرك تغلغل هذا الألم المُمِضّ فى نفوس أبناء مصر. يقــول الأستاذ العقاد: «نرى من تمام الكلام أن نقول كلمة عن تأثيره (أى تأثير عصره) فى روح الشعر ونفوس الشعراء»:

«إن كان هذا العصر قد هزَّ رَواكد النَّفْس وفتح أَغْلاقَها كما قلنا، فلقــد فتــحهــا على ساحــة من الألم تَلْفَح المُطِلّ عليــها بشُواظها فــلا يملك نفسه من التراجع حينًا، والتــوجّع أحيانًا. وهو العصر، طبيــعته القلق والتردّد بين ماض عتيق ومــستقبل مُريب، وقد بَعُدَت المســافات فيه بين اعتقــاد الناس فيما يجب أن يكون وبين ما هو كائن. فغشيَــتهم الغاشية، ووَجَد كلُّ ذى نظر فيمــا حوله عالَما غيــر الذى صوّرته لنفسه حــداثة العصر وتقدُّمه. والشاعر بجبِلَّتــه أوسع من سائر الناس خيالاً. فالمثل الأعلى أرفع فى ذهنه منه فى أذهان عامة الناس، وهو ألطفهم حسّــا، فألَمُــه أشدّ من ألمهم. وإنما يكون الألم على قَــدْر بُعْد البَوْن بين المُنتَظر وبين مــا هو كائن. فلا جَرَم أن كــان الشاعر أفطنَ الناس إلى النقص، وأكثرهم ســخطا عليه، ولا جَرَم أن

كان ديوان شاعرنا (يعنى المازنى) على حد قوله:

كلُّ بيتٍ فى قَرارته جثّةٌ خرساءُ مرْنانُ
خارجًا مِن قَلبِ قائله مثْلَما يَزْفِرُ بُرْكَانُ

أيقال إننا بالغنا إذا قلنا إننا فى عهد لا نشاهد فيه إلا مَسْخا فى الطبائع، وارْتكاسا فى الأخلاق، ونفاقًا فى الأعمال والأقوال؟ لا والله. بل إننا تغاضينا إذا لم نقل ذلك . . . وأنّى لرجل العصر أن يكون غير ذلك، وهو يُبصر غير ما يسمع، ويسمع غير ما يعتقد، ويعتقد غير ما يَجْرُأ على الجَهْر به، وذلك دَيْدَن الناس فى كل زمان تُحسّ فيه النفوسُ بالحاجة إلى الانتقال، فتَرسُم مثال الكمال، ثم تَكُرّ إلى عالم الحقيقة فلا تقابل إلا النقْص والقصور، وإنها لتظل تتذبذب بين الباطن والظاهر، وهذا عين التصنُّع والرياء، وإن اشتدّ، فقل الخُبْث والصفاقةُ والكبرياء. فإذا رأيت شاعرًا مطبوعًا فى أمثال هذه الفترات المشئومة يبتهج ويضحك، فاعلم أن بين جنبيْه قلبًا صَدِئَ من نار الألم أو حَمْأة الشهوات، وإلا فهو رجل مُقلِّد ينظم بلسانه ولا ينظم بوجدانه . . . نحن فى عصر التردد والاستياء، ولا بد لهذا الاستياء أن يأخذ مَداه، ويطلّع على كل نَقْص فى أحوالنا، حتى إذا تمكّن من النفوس فحركها إلى العمل، وعاد عليها العمل بالرضى، فلا ينسى الناس يومئذ

فَضْلَ شعـر الضجر والاستياء. فلئن توسَّم القـارئون فى شعر هذا الديوان (أى ديوان المازنـى) هذه السِّمَـة فليـذكـروا أنهم يقـرأون ديوان شاعـر يترجم عـن زمنه، والمرءُ فى نفسـه يَرَى زَمَنَهْ، كما يقول[1]».

هذه هى طبيعة المجتمع الذى عاش فـيه أستاذنا وليدًا ويافعًا وشابًا وكـهلاً وتقلب فى أوضـاعه السـياسـية والاجتـماعـية والاقتصادية والأخلاقية والأدبية. وكان لكل ذلك أثر عميق فى نفسه كما سيأتى بيانه إن شاء الله.

ولتمام الفائدة فى بيان الناحية الأدبية لا أريد أن أتوقف عند مدرسة أبوللو التى نمّت «الشعر الوِجْدانى» فيما يقول أكثر نقاد الأدب الحديث. فالشعـر الوِجْدانى فى نظرى سابق فى الظهور عند مـدرسة المهـجر ومدرسـة الديوان، وكـان عبد الرحـمن شكرى هو الذى «صَكّ» هذه العبـارة كما مـر بنا فى قوله «إن الشعر وِجْدان».

وصل «شعر الوجدان» إلى قمته فى منتصف الثلاثينيات من القرن الماضى، وهو شـعر - كما رأينا - يتـسم بالألم والحزن والشكوى والمرارة، يدور حول النفس وما تقاسيه. وليس معنى

---

(١) أى كما يقول المازنى نفسه، فهذا عجز بيت له، وتمامه:

الدهرُ لولا الآمـالُ مُـشْـتَـبِـهٌ　　　والمرءُ فى نـفـسـه يَـرَى زَمَنَهْ

هذا أنه كان بمعزل تمامًا عن المجتمع أو عن الأُمَّة العربية، فكل مبتـدئ شادٍ يعرف أن الشعراء والمفكرين والكتـاب شاركوا فى أحداث مجـتمعهم وأمتـهم ودافعوا عنها وهاجـموا أعداءها، ونادوا بالحرية والاستقلال والعـدل وكرامة الإنسان، ونالهم مما قالوا أو كتـبوا أذى كثيـر مِنْ فَقْد وظائفهم، إلى نَفْـيهم، إلى سَجْنهم، وكان الشعراء أشدهم وقعًا فى ساحة الكلام ومعمعة النضال حتى ليقول جبرا إبراهيم جبرا بحق: «كان (أى الشعر) بمثابة الدناميت، جسّد غضب الأمة بـأكملها ومعاناتها. حفظ الناس الأشعار الحماسية وردّدوها فَسَرتْ فى الناس روح البأس والإصرار على النضال»[1]. ولكن كانت هذه الأشعار تأتى من حين إلى حين، ولم تكن السمة المميزة لشعراء الوجدان الذين اعْـتُبِـرَ شعـرهم وهم فى أوج شـهرتهم - شـعـرا انعزاليًّـا مسـتسلمًا، تشيع فـيه الهزيمـة والانكسار يهرُب من مواجـهة مشاكل مجتمعه على اختلافها، ولا يدعو إلى تغيير هذا الواقع المُرّ. ولكن هذه الأصوات الغاضبة الناقمة على شعراء الوجدان لم تصادف آذانا صـاغية فى أواسط الثلاثينات، كـما ترى فى

---

(1) Jabra Ibrahim Jabra. "The Rebels, the Committed, and the Others: Transitions in Arabic Poetry Today, " in Critical Perspective on Modern Arabic Literature 1945 - 1980. ed. Issa Boullata (Washington, D.C.: The Three Continent Press, 1980), p.142.

كتـابات سلامـة موسى الذى أسس المجلـة الجديدة (١٩٢٩ - ١٩٣٠، ١٩٣٤ - ١٩٤٢) ودعا إلى «الأدب للشـعب» متأثرًا بمذهب الاشتراكية الواقـعية وبالذات ما يسمى بـ Fabian Socialism، وبـالأخص بـــ Bernard Shaw أثناء دراسـتـه فى إنجلتـرا. ولكن مـا أنْ أهَلَّ العـقد الـرابع حتى قـويت دعـوة «الاشتراكية الواقعـية» وكثر أنصارها[1]، فشنّوا هجومًـا عنيفًا على «شـعـر الوجـدان» الذى تهـاوى تدريـجـيًّا تحت عنف الضـربات. ففى خـلال الحرب العـالميـة الثانيـة ازداد اهتمـام المفكرين والشـعراء العـرب بالفلسفـة الماركسـية والاشـتراكـية الواقعية، وتضافرت دوافع عدّة دفعتهم إلى ذلك الاتجاه، منها فساد الأنظمة السياسية، وانتشار الفقر المدقع. ثم كانت الطامة الكبرى فى هزيمـة سنة ١٩٤٨ وتقسيـم فلسطين، الأمر الذى أكّد للمـفكرين والشعـراء إفلاسَ النُّظم السيـاسية وعـجزها. وأحسوا أنهم لا يستـطيعون البقاء فى أبراجهم العـاجية يتغنون بآلامهم ويحلمون بالجمال والطبيعـة. واستبشرت البلاد العربية التى حصلت على استـقلالها بعد الحرب العالمية الثـانية خيرًا، وبدأت تبلور كـيانها وسط أيدلوجـيات مـختلفة مـتصـارعة. ولاحت فى الجو رياح يحمل هبوبها تغييرًا إلى واقع أفضل فى

---

(١) حدث ذلك أيضًـا فى نفس الوقت فى سوريا بإنشاء جـريدة الطليعة اليـسارية ١٩٣٥ - ١٩٤٨، وجريدة الطريق فى لبنان سنة ١٩٤١.

السياسة والأدب، أما فيما يخص مصر فقد قامت الثورة المصرية سنة ١٩٥٢ وأطاحت بالنظام الفاسد ثم حققت لمصر استقلالها التام الذى صارعت من أجله منذ سنة ١٨٨٢. أما فى مجال الشعر فبدأ الشعراء يعبرون عن واقعهم الجديد بأسلوب جديد. واكتسب الشعر الحر الذى بدأ فى مصر - خلافًا لما يقول بعض النقاد - على يد أحمد باكثير، وأحمد زكى أبو شادى، ومحمود حسن إسماعيل شهرة وقبولاً عند الشعراء الجدد، وأصبح فى نظرهم جزءًا لا يتجزأ من مضمون الشعر. فإذا كان المجتمع لابد أن يتغير فى كل نواحيه فكذلك لابد لأسلوب الشعر أن يتغير أيضًا. فاستعمال الشعر الحر أصبح دلالة على اتخاذ موقف فى الصراع من أجل إنشاء مجتمع جديد أفضل، واستعمال الشعر الحر سمة تدل على اتخاذ موقف من التاريخ والتقاليد وقيم الماضى، واستعمال الشعر الحر هو تسخير موهبة الشعراء لخدمة الأمة العربية فى كفاحها لتغير الأوضاع الماضية، من الاحتلال إلى الاستقلال، ومن المهانة إلى العزة والكرامة، ومن الجهل إلى العلم، ومن الفقر إلى الرفاهية[1].

---

(١) رأيت أن أذكر بعض المصادر المكتوبة بالإنجليزية، وكتابها كلهم عرب، أما ما كتب بالعربية فهو معروف للقارئ ولا حاجة لى أن أذكره:

M.M. Badawi. An Anthology of Modern Arabic Verses (Oxford University Press, 1970); A Critical Introduction to =

(٢)

رَأَيْنا منذ قليل طبيعة العصر المُفْجِع الذى أخذ بأكظام الشعراء فسرت شواظه فى دمائهم وغَوْر عِظامهم، وتفاوتوا فى التعبير عن آلامهم المُمِضَّة، كُلٌّ حسب استعداده وأمياله، وما فطره الله عليه من الأنفة والحمية والعزة والكبرياء. وأنا أزعم أنك لن تجد مفكِّرًا - خلال العقود الأربعة الأولى من القرن الماضى - قد عانى من أوار ذلك العصر ما عانى الأستاذ شاكر. لم يقتصر على تسجيلها كما فعل العقاد والمازنى، ولم يصطنع له عالماً من الوهم يهرب إليه يبثه شكاته ولوعته كما فعل أكثر شُعَراء جماعة أبوللو، بل تصدّى لجاحم هذه الحياة الفاسدة من كل ناحية، يقول فى مدخل «رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا»:

= Modern Arabic Poetry (Combridge University Press, 1975). Issa Boullata.Critical Perspective on Modern Arabic Literature (Washington, D.C. The Three Continent Press, 1980), Monah Khouri. An Anthology of Modern Arabic Poetry (University of California Press, 1974. Salma al - Jayyusi. Trends and Movement in Modern Arabic Poetry (Leiden; Brill, 1977).

وهناك كتب أخرى كثيرة لغير الكتاب العرب، منها كتاب الإسرائيلى Moreh بعنوان: Modern Arabic Poetry 1900 - 1970 منشور فى مطبعة (Leiden: Brill, 1976)، وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية، وليس عندى ولم أره.

«اعلم أنى قضيت عشر سنوات من شبابى فى حيرة، زائغة، وضلالة مُضْنية، وشكوك ممزِّقة، حتى خِفت على نفسى الهلاك، وأن أخسر دنياى وآخرتى، مُحْتَقِبا إثما يقذف بى فى عذاب الله بما جنيْتُ. فكان كُلُّ همى يومئذ أن ألتمس بصيصًا أهتدى به إلى مخرج يُنْجِينى من قبر هذه الظلمات المطبقة علىّ من كل جانب. فمنذ كنت فى السابعة عشرة من عمرى سنة ١٩٢٦، إلى أن بلغت السابعة والعشرين سنة ١٩٣٦، كنت منغمسًا فى غمار حياة أدبية بدأت أحسّ إحساسًا غامضًا أنها حياة فاسدة من كل وجه. فلم أجد لنفسى خلاصًا إلا أن أرفض متخوِّفا حذرًا، شيئًا فشيئًا، أكثر المناهج الأدبية والسياسية والاجتماعية والدينية التى كانت يومئذ تطغى كالسيل الجارف، يهدم السدود، ويقوِّض كل قائم فى نفسى وفى فطرتى. يومئذ طويت كل نفسى على عزيمة حذَّاء ماضية: أن أبدأ وحيدًا منفردًا، رحلة طويلة جدًا وبعيدة جدًا، وشاقة جدًا...».

لم تكن هذه الرحلة الطويلة البعيدة الشاقة إلى منابع الشعر الجاهلى فقط، بل إلى كل ما ذكره من مناهج أدبية وسياسية واجتماعية ودينية، فقد نصب نفسه للدفاع عن أمته فى شتى

هذه المناحى، واتخـذ النثر مركـبًا يصول به ويـجول، وتنكب الشعر إلا لماما، أما أكثر شعره فقد استغرقته تجربة حب مريرة، زاده فشلهـا وحشة وتفـردا، وبلغ من عنف قسـاوتها - فيـما استظهرته - أنه حاول الانتحار، وأرجح أن ذلك كان فى أوائل سنة ١٩٣٦ قبل أن يكتب كتابه النفيس «المتنبى»[١].

اصطلحت عِلَل المجتـمع وفساده فى شتى المناحى، وخـيانة المرأة التى أحبهـا وما خلَّفته هذه الخيـانة من شك وألم وحيرة وضيـاع على هذه النفس النفور الجـامحة التى أدمـاها الصراع فجـاء شعر هذه النـفس القوية العنيدة مـرآة لها ولمجـتمعـها. واستعرض شعر الأستاذ شـاكر كله فلا تجد بيتًا واحدًا إلا وهو يدل على الأستاذ شاكر كما عـرفناه فى حياته العامة والخاصة. وهذه الخاصية هى آية الشاعريـة وجوهرها، لأن الشعر - كما

---

(١) انظر ما كتبه سعيد العريان فى كتابه «حياة الرافعى»، المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة الطبـعة الثالثة، ١٩٥٥. وانظر مـقالات الرافعى «الانتحـار» فى كتابه (وَحْى القلم) ٢: ٨٧ - ١٤٠، حـققه وطبـعه مـحمد سـعيـد العريان - دار الكتاب العربى - بيروت. وانظر أيضًا مـقالاً بعنوان «قراءة فى ظاهرة الانتحار فى الأدب العربى الحـديث» لخليل الشيخ. مجلة دراسـات الجامعـة الأردنية، المجلد: ٢١، العدد: ٥١، سنة ١٩٩٤.

هو معروف - تعبير كسائر صنوف البيان، والشاعر الحق هو الذى يعبر عن النفوس الإنسانية من خلال تعبيره عن نفسه، وهو الذى ينقل إليك إحساسه بالشىء الموجود الذى يألفه الناس جميعًا على شتّى ضروبهم، فإذا بك تحسه كأنك تحسُّه أول مرة لما أضفاه عليه من شعور وما أودعه فيه من صُبابة نفسه، وإذا بك تنظر إليه كأنك تراه أول مرة. قرأ كثيرون منا قصيدة الشماخ الزائية وأعجبوا بها، ولكن الأستاذ شاكر جلاّها فى صورة جديدة فى قصيدته «القوس العذراء» التى لا تقل نفاسة عن زائية الشماخ، وقال الأستاذ شاكر عن ذلك مُحقّا، «تذوقتها غائصًا فى أغوار دلالة ألفاظها وتراكيبها ونظمها، بل غُصْت تحت تيار معانيها الظاهرة، وفى أعماق أحرفها، وفى أنغام جرسها، وفى خفقات نبضها، وفى دفَقْها السارب المتغلغل تحت أطباقها، فأثرت بهذا التذوق دقائق نظمها ولفظها، واستخرجت خباياها المتحجبّة من مكامنها، وأمطت اللثام عن أغنى أسرارها المكتَّمة، وأغمض سرائرها المُغَيَّبة». وليس فى مقدور أحد أن يزعم أن «القوس العذراء» لم تجعله يرى هذا القديم المألوف - أى زائية الشماخ - بعين غير التى كان يراها بها.

والأستاذ شاكر شاعر ناقد ذواقة للشعر وسائر أصناف البيان، ولا مراء فى ذلك. ولولا ضيق الوقت والمساحة لجمعت هنا كل أقواله عن ماهية الشعر وهى مبثوثة مفرقة فى كتاباته. وأحاديثه عن الشعر تنم عن فهم عميق لملكة الشعر وماهيته ودوره فى الكشف عن أغوار النفس الإنسانية وأسرار الكون المحجبة المكتمة. يقول فى تمهيده لعرض ديوان «ليالى الملاح التائة»[(١)].

«وليس يشك أحد أن الشعر فى أصله هو معان يريدها الشاعر، وأن هذه المعانى ليست إلا أفكارا عامة يشترك فى معرفتها كثير من الناس، وأنها دائرة فى الحياة على صورتها التى تأخذ بها كل عين، ويتداولها من جهته كل فكر، وأنها - إذ كانت كذلك - ليست شيئا جديدا فى الحياة ولا فى معانيها وأوصافها وحقائقها، وإنما تصير هذه المعانى شعرا حين يعرضها الشاعر فى معرض من فنه وخياله وأدائه ولفظه، فيجدد لك هذا المعنى تجديدا ينقلها من المعرفة إلى الشعور بالمعرفة، ومن إدراك المعنى إلى التأثر بالمعنى، ومن فهم الحقيقة إلى الاهتزاز للحقيقة. فتجد المعنى القريب وقد نقلك الشاعر إلى أغواره الأبدية وأسراره العظيمة، وكأنه قد خرج عن

(١) مجلة الرسالة، السنة الثامنة، العدد: ٣٥٢، أبريل ١٩٤٠، ص ٥٨٣ - ٥٨٦.

صورته التى ضُربت عليه فى الحياة إلى السِّر الأول الذى أبدع هذه الصورة، وإلى الصلة التى تصل ما بين المعلوم إلى المجهول البعيد الذى لا يُرىَ ولا يُلْمَس. فالشعور والتأثر والاهتزاز هى أصل الشعر، ولا يكون شعر يخلو منها ومن آثارها وتأثيرها إلا كلاما كسائر الكلام ليس له فَضْل إلا فضل الوزن والقافية. وهذه الثلاثة لا يكتسبها الكلام من المعانى من حيث هى معان معقولة مدركة، وإنما هى فيه من روح الشاعر وأعصابه، ونبضات الشوق الأبدى التى تتنزى فى دمه، فأيُّما معنى عرفه الشاعر، وأيما صورة رآها، وأيما إحساس أحس به، فهو لا يكون من شعره إلا حين يتحول فى روحه وأعصابه ودمه إلى أخيلة ظامئة عارية تبحث عن زيها ولباسها من أسلوب الشاعر وألفاظه، ثم تريد بعد ذلك زينتها من فن الشاعر لتفصل عنه فى مفاتنها الجميلة كأنها حسناء قد وجدت أحلام شبابها فى زينتها وأثوابها. وبقدر نقصان خزائن الشاعر مما تتطلبه أخيلته الظامئة العارية، يكون النقص الذى يلحق العذارى الجميلة التى تسبح فى دمه من معانيه».

«والشعر على ذلك هو فن تجميل الحياة، أى فن أفراحها الراقصة فى نسمات من الألحان المعربدة بالحقيقة المفرحة، وفن أحزانها النائحة فى هدأة التأملات الخاشعة تحت لذعات الحقيقة

المؤلمة، وفن ثوراتها المزمجـرة فى أمواج من الأفراح والأحزان والأشواق، قـد كُفت وراء أسوار الحقـيقة المفـرحة والمؤلمة فى وقت معا».

«وهو على ذلك فلسفة الحياة، أى فلسـفة السموّ بالحياة إلى السِّر الأبدى الذى بثّ فى الحيـاة أسراره المُستَغلَقة المبـهمة التى تُرَى ولا تُرَى، وتظهر ولا تظهر، وتترك العقل إذا أرادها حائرا ضائعا مشردا فى سبحات من الجمـال تضىء فيه بأفراحها كما تضىء بأحزانها، وتـفرح بكليهما وتحـزن فرحا ساميـا أحيانا، وحزنا ساميا أبدا».

بهذه النظرة النافذة إلى مـاهية الشعر ورسالتـه نظم الأستاذ شـاكر أشـعاره فـعبـر بصدق عن كل مـا أحس به، وهو ألم صُراح تعـاوره به مجتـمعه وزمنـه وخيانة من أحب، فـمضى يجاهد منفردا وحيدا ينصح قوما لا يحبون الناصحين، ويدافع عن أمة طال نعاسهـا وركودها فما تستفيـق، ويعانى من خيانة أمَرَّ من الصبر فى أنفة وعِزّة وكبرياء لا تستكين. وهذا سِرّ أسر شعر الأستـاذ شاكر، وهذا الذى يميزه عن أكثر شـعراء عصره الذين هربوا من واقعهم لثقله وهمومه المطبـقة والتمسوا العزاء فى شعر الطبيعة كجماعة المهجر أو فى قصائد الحب والشكوى والموت كـأكثـر شعـراء جمـاعة أبوللو. وإذا بلغ التـوافق بين

خلائق الإنسان وبين شعره، فتلك آية التعبير الصادق، وتلك آية الشاعرية والملكة الفنية التى ليس وراءها مطلب. وقد وصف الأستاذ شاكر نوازع نفسه فقال: «والحياة من حولى تفتّرنى حتى ما أحس من فَوْرتها إلا القليل، والنفس منبوذة على حدود النشاط فى كل مُجْدِب بالقحط والظمأ لا يهتدى إليه رِىّ ولا شِبَع. وإذا كانت النفس كذلك لم يأت خيرها إلا من طول الإحساس بالحرمان والألم، فهى تريد أن تتكلم من نوازعها بألفاظ ثائرة ضائعة حائرة كأنها تبحث عن نفسها فى معانيها.. ثم لا تتكلم، وهى على ذلك لا تطيق التأمل فى المادة التى تعرض لها إلا بمقدار من الرغبة فى البحث عن نفسها فى سر نفس غيرها لتجد عند ذلك أسبابا تهتاج بها وتضطرب، وإذا لم تجد النفس لذّتها المؤلمة إلا فى انتزاع الآلام المحرقة مما ترى وتسمع وتتخيل، فكيف تعيش أفكارها إلا فى دخان من الأحزان الصامتة صَمْتَ الفكرة المُخْنَقَة التى لا تجد أنفاسها ولا جوّ أنفاسها. هكذا أجدنى.. هذه النفس المنبوذة بما جنت وبالذى لم تَجْنِ من شىء، هى النفس التى أريد أن أتولى بها النظر فيما يعرض لى.. فنفسى الآن هى نفسى التى لا أكاد أجمعها وألم شتاتها إلا قليلا، وما هو إلا أن أراها مبعثرة تفر منى أوابدها فى كل وجه، وأقف وأنا اتلفت، أنظرها وهى تغيب فى ظلام الأحزان، وتترك عندى أطيافا من

الذكرى تطوف فى تأملاتى مُرْسِلَة من مزاميرها ونايها أنغاما حزينة مهجورة مُتفجِّعة كأنها تقول: هذا مكان كان أهله ثم بادوا، هكذا أيضا أجدنى»(١).

وهذا الكلام وإن أبان عن هذه النفس الآبدة المنبوذة التى تحترق ألما وتفنى ضياعا، يبين أيضا عن نظرة متفلسفة إلى الحياة والموت وعن رسالة الإنسان النبيلة فى موات الحياة واستحياء الفناء. ولا تعارض هنا بين الشعر الذى يبعثه الإحساس وبين الفلسفة التى يمليها الفكر، فالفكر والخيال والعاطفة ضرورية كلها للفلسفة والشعر مع اختلاف فى النِّسَب وتغاير فى المقادير، فلابد للفيلسوف الحق من نصيب من الخيال والعاطفة ولكنه أقل من نصيب الشاعر، ولابد للشاعر الحق من نصيب من الفكر ولكنه أقل من نصيب الفيلسوف. فلا نعلم شاعرا واحدا يُوصف بالعظمة كان خِلْوا من الفكر الفلسفى. وكيف يتأتّى أن تعطل وظيفة الفكر فى نفس إنسان كبير القلب، متيقظ الخاطر، مكتظ الجوانح بالإحساس كالشاعر العظيم(٢). وهذه الصلة بين الشعر والفلسفة أفاض العقاد والمازنى فى بيانها(٣).

---

(١) الرسالة، السنة الثامنة، سنة ١٩٤٠، ص ٢٤ - ٢٥.

(٢) فصول من النقد عند العقاد، محمد خليفة التونسى، ص ١٨١.

(٣) خاصة المازنى فى كتابه: الشعر غاياته ووسائطه.

ذكـرت آنفا أن الذى زلزل كـيـان الأستـاذ شـاكر حـادثان جليلان، أولهما فساد حياة أُمته من كل وجه، وثانيهما ابتلاؤه بخيانة من أحبّ وامتزج هذان الحادثان فى نفسه وسريا فى دمه وفى أنفاسه، واستقرا فى غور عظامه.

أما أولهـما فقـد أفرد له قصيـدة طويلة أعطت هذا الديوان عنوانه، وهى «اعصـفى يا رياح»، وهو عنوان دالّ على ما فى نفسه من الغضب والهياج، والثورة والغليان. ولست أشكّ أن الأستاذ شـاكر بثقافـته الدينية الواسعـة قد نظر إلى هذه الريح كما جـاءت فى كتاب الله عز وجل مدمّـرة لأُمم قد عَتَت عن أمـر ربنا ورسله فـأصـبحـت وديارها كـأن لم تكن ولـم تَغْنَ بالأمس، كقوله تعالى ﴿**بل هو ما استعجلتم به ريحٌ فيها عَذابٌ أليم**﴾، وقوله تعالى ﴿**وفى عاد إذْ أَرْسَلْنا عليهم الريحَ العَقيم**﴾، وقوله جَلّ شأنه ﴿**وأماّ عادٌ فأُهْلِكُوا بريحٍ صَرْصَرٍ عاتية**﴾، وقوله عزَّ من قائل ﴿**فأرْسَلْنا عليهم رِيحًا صَرْصَرًا فى أيامٍ نَحِسات**﴾. يفتتح القسم الأول من القصيدة بهذا المطلع:

اعصفى يا رياحُ من حيثما شئت، وعَفِّى الطُّلولَ والآثارا

وواضح منذ البدء أن الأستاذ شاكر لا يرى أمامه بنيانا عامرا وحياة تموج، بل ديارا قد خربت، وصروحا قُوِّضت، ولم يبق منها إلا حـجارة شاخـصة، فيسأل الريح أن تزيل هذه الآثار

الباقـية، فلا يكون هناك إلا اليـباب والعـدم المطلق، ولكن ما لهذه الطير تغدو وتروح، مُعلنة بغُـدوّها ورواحها عن حياة لا تزال. فَـحَرِىّ بهـذه الرياح أن تنسف هذا الطيـر نسفـا وتدكّ أوكاره دكًّا، فلا تبقى آية للحياة:

اعْصِفِى كالفناء يَنْتَسف الأوكارَ نسفا ويَصْرَع الأطيارَا

وهذان هما البيـتان الوحيدان فى هذا القـسم اللذان يشيران إلى تدميـر شىء قائم ملمـوس دال على حياة أو بـقية حـياة. ولكن الأسـتاذ شـاكـر فى غضبـه وثورته لا يرتضى إلا فناء سرمديا فيطلب من الريح أن تنسف آية الليل:

وانْسِـفى يا رياحُ آيةَ هذا الليل حتى يَحُـورَ ليـلا سِرارا

وآية الليل هو الظلام وظهور القمر فيه، فإذا غاب تلفع كل شىء بظلام بهيم وضربت حنادسه أرواقها، فلا اهتداء فيه ولا اطمئنان، بل خوف ورعب ووحشة، وقد استمد الأستاذ شاكر هذه العبـارة من القرآن الكريم، يـقول الله تبارك وتـعالى فى سورة الإسـراء **﴿وجَـعَلْنا الليلَ والنهـارَ آيتـيْن فمـحـونا آية الليل وجعلنا آيةَ النـهارِ مُبْـصرَةَ لتَبْـتَغُوا فَضْـلاً من ربكم ولتَعْلَمـوا عدَدَ السِّنينَ والحسـابَ وكلَّ شىء فصَّلناه تَفْصـيلا﴾**. فاللـه عزّ وجلّ مَنّ على خَلْقه بآياته العظامِ، منها مخـالفته بين الليل والنهار، فـتـسكن الناس فى اللـيل، وتنتـشـر فى النهـار للمـعـايش

والأعمال. ولو كان الزمان كله نسقا واحدا وأسلوبا متساويا لما عُرِف شىء مما عدده الله ههنا، ألا ترى إلى قوله تعالى فى سورة القصص ﴿قُلْ أَرَأَيْتم إنْ جَعَل اللهُ عليكم الليلَ سَرْمَدًا إلى يوم القيامة مَن إلهٌ غيرُ الله يأتيكُمْ بضياء أفَلا تَسْمَعُون﴾. فالله سبحانه جعل الليل آيةً أى علامة يُعرَف بها وهى الظلام وظهور القمر فيه، وللنهار علامة وهو النُّور وطلوعُ الشمس فيه. فالأستاذ شاكر يسأل الرياح أن تنسف آية الليلِ حتى يعود الظلامُ سَرْمديا يَغْشَى الخراب واليباب والعدم، فلا حياة ولا ضياء ولا دفْء، وإنما تبار وظلام ووحشة وخوف وزمهرير.

أما بقية أبيات هذا القسم خلا البيتين الأخيرين فهى فى هيئة الرياح، فيجعلها تهب فى جنون مستعر كأنها نفسها نُسجت من الجنون، كأنها امرأة غيرى لا يساورها إلا الحقد تتَّقد شرارا ونارا، كأنها عقل مُحب جُنّ جنونه وتملأه الغيظ فأودى بوقاره فما يطيق قرارا، كأنها الشك تخاطف قلب أعمى، فلا بصيرة تهديه ولا بصر يعينه على اليقين، كأنها الوفاء المبذول من غير شرط صدمه الغدر فزلزله زلزالا، كأنها الضلال يَسْخَر من حيرة مَن ظن أنه قد علم المسالك والمسارب ولكنه يقف متلدِّدا حيران، كأنها الحزن الدفين نفض عنه صبرا طويلا، فثار وفار.

لم يجعل الرياح فــى هذه الأبيات إعصــارا أو نارا وما إلى ذلك من الأشيــاء المادية المحسوسة، ولــكنه أضفى على الرياح «شعورا» يدفعها إلى إحداث ذلك الهلاك وهو شعور من نفسه هو، شعور «البغضاء» الذى ســرى فى كيانه لخيانة من أحبّ، شعور الشك الذى أكل يقينه، وشعــور الحيرة التى سدّت عليه منافذه، وشــعور الضــلال الذى أشكل عليه مــهاربه، شــعور الحزن الدفــين الذى استنــفد صبــره، فجــعلنا نرى الرياح، لما أضفى عليها من شعوره، بغير العين التى كنا نراها بها، ولفرط ما مــزج بين الرياح وبين شعوره ومــزاجه جعل ما تنشــئه من خراب نعمــة، فقضاؤها على هذا العالَم وساكنيــه من الأشباح نعمة لا تساويها نعمة، ويفتــتح القسم الثانى من القصيدة بهذا البيت.

اعْصِفى يا رياحُ غَضْبى بإعصار مِن المَقْت، جاحما هَدَّارا

فعزف عن «كأنك» التى للتشبــيه، وجعلها كلها إعصارا من الكراهية يتّــقد نارا ويهدر هديرا يزلزل الأسمــاعا ولِمَ لا! أَلْم تشهــد هذه الرياح ما يحدثُ فى هذا العــالم عَبْر الزمان؟ فــما الذى رأته فى وَضَح النهــار ،وســدفــة الليل؟ لم تر إلا لؤمــا وخزيا وعارا، ودســائس وخبائث وحقودا فى خفــية تتوارى، وأباطيل خلقتها أكاذيب فأضحت حقائق وهُدًى للناس وأمْسَت منارا، وظُلما وجَــورا وقَسْرا لا تكفّ ابتدارا، وأذلّاء يرســفون

فى قيـود المهانة، ولكنـهم بالباطل يتـعالوْن استكـبارا، ودُمًى يحركـها اللاعبـون بأقدار أُمتـهم وهم يحسبـون أنهم أحرار، وأشلاءٌ مُمزَّعة ألقاءَ ما كادت تنهض حتى أحدَّت الأظفار. أىّ حيـاة مخبـولة رأتها هذه الريح! حـياة فاسـدة من كل وجه، طاغية من كل جانب، فحقّ عليها هبوب الرياح الغرائب.

هذه هى الحـيـاة التى تراها الريـح الآن، ولكن أين هى مما رأته الرياح من قـبل، فهى قـديمـة قدم الزمـان، قديمـة منذ طمعت آمال الإنسان إلى كل خـير يُرجَى، منذ نشأت السحب فأرسلت مطرها الجَوْدَ، فـأحيى موات الأرض وازدهرت زرعا، وأهدت لمن سار فى الهجيـر ظِلًّا وبردا، قديمة منذ جَمَّ النبات وفغمت زهوره الكونَ شَذا وعبيـرا، قديمة منذ دبت الحياة فى أوصال هذا الكون سماء وأرضـا، منذ خرج أبونا آدم من جنَّته يعض على الأنامل كَمَدًا وغيظا، منذ سرى فى كيان أُمِّنا حوّاء نفحة الأنثى، فانظرى أيتـها الرياح كيف أتى الإنسان إلى هذا الكون الذى سـخَّره الله له فطغى وبغى، ثم فنـى، وجاء مَن بعده فصنع صُنْعه وما ارعوى لم يزجره ما حَلّ بمن قبله، حتى نزل بساحته الفناء، وهكذا دواليك.

ويستـهلّ الأستـاذ شاكـر القسم الرابع من القـصيـدة بهذا البيت:

أنصتى يا رياحُ، صرخةُ ملهوف طَعين أفنى الليالى انتظارا

صرخة أطلقـها وسط زمجرة الرياح، صـرخة رجل طال به الانتظار وأدماه الطعـان، فما ضـعف ولا استكان ولم يُبل أن يقف وحيدا منفردا، كما ذكـر فى كلمته التى نقلتها صدر هذا الحديث، وهو شعـور أحس به الأستاذ شاكر إحسـاسا شديدا حتى أنه كـتب كلمه بعنوان «أنا وحدى» فى مجلة الـعصور، قال:

«تحت الشمس المُحرِقة التى ترسل أشّعتها، وكانها لُعاب من النار الجاحمة المُتَسعِّرة».

«وعلى الرمال الملتـهبة التى تزخر وكـأنها بحر من السـعير تتلاطم فيه أمواج اللهب».

«وبينهمـا.. بينهمـا يتهاوى سَـموم من الرياح العاصـفة، وكأنها أنفاس الشياطين المخلوقة مِن مارج مِن نار».

«أنا وحدى.. أحُدّ الطرف إلى الآفـاق المترامية، ذاهلا عن آلام الظمأ لأرى السراب المتخايل كأنها ذَوْب الدُّر واللؤلؤ»..

«أنا وحدى ... أرى الجبال البعيدة الشامخة، على هاماتها عمائم الشَّيْب تفيِّئها الريح، وكأنها ذوائب من دخان».

«أنا وحدى.. حيث تلبـسنى النار، حيث أطأ النار، حيث

أتنفّس من نار، حـيث أسـمع حَسـيَـسهـا وأرى آثارها.. أنا وحدى..»

«أيتها الشمس المُحْـرِقة، أيتها الرمال الملتهـبة، أيتها الرياح المندلعة، أيهـا السراب، أيتهـا الجبال..!! أنا وحـدى معكنّ أحيى لأحترق، وأحترق لتحيى النفس التى تنشُد الخلود!!».

«الصديق.. ! الصاحب...! الأخ...! كلُّهم.. ودعنى لأنه لا يطيق، وأنتِ أيضا أيتها الحبيبة!!».

إذن فأين أجد الراحة من وقود النار؟»[1].

وقف وحيدا يترقّب لعلّ وعَسَى، كلمّا ظن فى دواء شِفاء، زاده سقْما وشَقَاء. يئس من كل شىء كما يئس مَن عاشوا فى هياكل العلم وتعبّـدوا فى محاريبه إيمانا، فمـا حصّلوا نقيرا، فكفـروا بما صنعـوا وولّـوْه ظهـورهم، وارتدوا عن الصِّـراط سكْرَى حيارى.

وتستـمر زمجرة الرياح وكـأن صرخته ضـاعت فى أطوائها فيخاطبها فى القسم الخامس بقوله:

اسمعى يا رياحُ، مَن ذا يناديك وقد أرخت الدياجى السِّتارا

---

(١) مجلة العصور، العدد الثانى، ٩ ديسمبر ١٩٣٨، ص: ٦٤. والنقط التى يراها القارئ من وضع الأستـاذ شاكر، وليست دليـلا من الكاتب على حذف بعض الكلام.

يجعل نداءه فى وحشة الظلام، وقد هجع الناس، ونبا به مضجعه فتجافى، وأطبق على مهجته فسادُ الأنام كشفار الجازر، واكتنفها موج الفزع بطغيان زاخرٍ، لا تكاد تفيق من ضربة حتى تتبعها ثانية إثر أولى تلزها إلى ضنك المسارب، فلا مهرب ولا نجاة. سُدت عليها المسالك. وهَبْ أنها وجدت ثغرة فكيف تطيق النجاة وحيدة منفردة فيسخر منها ومن اغترارها ألا تدرك أنها تعيش فى ذُل الرِّق، فَلْتَلْبَس لكل حالة لبوسها: لِتغدرْ وتنافق، وتُضِل وتستبد، ولتحمل نصيبها من الأوزار. هكذا هو حال الزمان شاءت أم أبَت لا تنفعها شكاتها أو اشمئزازها.

ويستمر عويل الرياح وزئيرها وكأنها لم تنصت إلى ما قال، فيخاطبها فى القسم السادس بقوله:

أنصتى يا رياح، ما أبشعَ الصوتَ لقد سار فى القرون مَسارا

يُعجّ هذا القسم بالأصوات التى تناهت إلى سمع الرياح عَبْرَ القرون، ويعلن الأستاذ شاكر منذ فاتحة القسم أنها أبشع الأصوات، تتعالى وتتداخل فما يكاد يبين منها ليس إلا جؤارا، أَمِن صراخ هى أم أنين وعويل، أم تهاليل كافرين على أوثانهم عاكفين، أم أصوات فرحَى فى دماء أعدائهم متوالغين؟

ولا يقنع الأستاذ بتسجيل هذه الأصوات البشعة التى تصدر

عمن له جسد وروح، فيلجأ -لزيادة البشاعة - إلى تحسّس عواطف البشر ويتسمّع لها، فهى وأصحابها على مثال، وهى أيضا تتعالى فى ضوضاء يكاد يضيع معالمها، أهى عُواء العواطف تسخر ممن رثاها، أم هى فحيح البغضاء ينزو سُمّها وأذاها، أم هى صَلْصَلَة الأحقاد خرجت من مكامنها تشتفى من عِداها، أم هى جَلْجَلة اللذات نَشْوى لا يُحَدُّ مداها، أم هى جئير السخريات أسعرتها الآلامُ تثير مَن بكاها، أم هى عويل خائبات الأمانى على جدث ما تمنّت سفاها؟ هل هى كل ذلك أم هناك نبأة خفية تسرى فى تضاعيفها تحمل شعاعا من نور ووميضا من أمل؟ أهى تسابيح خافتة أسرّها تقاة خاشعين؟ لا، لا، بل هى تكاذيب، هى تكاذيب.

وكأن الرياح مضت على أذلالها لا تنصت ولا تسمع وسط زمجرتها، فيعدل الأستاذ شاكر عن «أنصتى، واسمعى»، فيقول لها فى القسم السابع من هذه القصيدة الفاخرة:

انُظرى يا رياح.. يا وَحْشَة الطَّرْف إذا دار يَمْنَة ويسارا

كفانا إنصاتا لما حكته أفعال الفاعلين منذ أبينا آدم، وانظرى لترىْ عيانا مصداق ما أقول، ماذا ترين؟ ترينى أناسا ما هم بأناس وإنما شخوص لا تكاد تتميز معارفها فهى أشباح، يا له من غرور، تظن لنفسها الخلود، ولكنها تفنى، وتُعْقِب أشباحا

يظنون كما ظن من قبلهم، ولكنها أيضا تفنى فلا اتعاظ ولا ارعواء، بل مضوا على أرسالهم يطلبون الخلود، ما دروا أنه خلود مُعار، بنوا الأرض وعمروها، ثم بادوا وأصبح ما عمروه خرابا بلقعا، فجاء مَن بَعْدهم فشادوا فوق القبور الديارا، وهكذا دواليك:

ضلَّ هذا الإنسان يكدحُ للخُلد.. وأقْصَى الخلود كان.. فصارا

يقول ربنا فى كتابه الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فى سورة الانشقاق ﴿**يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ**﴾ وروى أبو داود الطيالسى عن الحسن بن أبى جعفر عن أبى الزبيْر عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال جبريل: يا محمد عِش ما شئت فإنك ميت، وأَحْبِب مَن شئتَ فإنك مفارقه، واعمَل ما شئتَ فإنك ملاقيه»، فدَلّ الحديث على أن الهاء فى «ملاقيه» تعود على الكدح، أى العمل والسعى، ولا يكون العمل والسعى إلا ابتغاء مرضاة الله، ولكن الشيطان دلى الإنسان بغرور فأقبل على الدنيا كأنه يعيش أبدا، وتفنَّن فى حياطة معيشته فبنى وشاد وعمَّر، وأبدع واستطال وتبارى للخلود، ثم نُودِىَ للرحيل، فلم يكن مُكثه على الأرض إلا لحظة خاطفة نسميها نحن الناس : العُمر. وما بين خوض الإنسان مَعْمَعة الحياة إلى اندثاره فى حومة الفناء طغى وتكبر وظلم وتجبّر.

وفى طوايا الضجيج والعجيج والتكبر والخيلاء، والتبارى للخلود المعار، ضاعت حكمة الحكماء. يلح الأستاذ شاكر فى القسم الثامن والأخير على الرياح أن «تنظر»:

انظُرِى يا رياح ذا القَبَس الوهَّاجَ. . قد راوغ الفَنَاءَ اقتدار

عقلٍ متوهجٍ، استطاع بذكائه أن ينجو مما أحاق بالناس، ناء تحت ثقل هذه المراوغة حتى استطاع بعزم لا يُفَلّ أن يصدع صفاتها ويستقل بها يخرج من غَلَس الظلام إلى نور الفجر، أو هكذا ظن، أعمى رأى الظلام نهارا، أراد أن ينفذ إلى سر الكون، وإلى غياهب المجهول، كيف غرته نفسه وقدرته الفانية! وهكذا تنتهى هذه القصيدة الشامخة، وهى تشرح نظرة الأستاذ شاكر إلى هذا العالم الذى نعيش فيه والذى عاش فيه مَن سبقونا، نسير جميعا على نهج لاحِبٍ مُستَتِبّ ولا نَمْرُق عن الهَدْى الذى استننَّاه لأنفسنا، عالم يمتلئ بالصراع الدامى، والتغطرس والخيلاء، والتكبر والجبروت، والنفاق والختل والغش والخداع، تتوارثه الأبناء عن الآباء، والآباء عن الأجداد، ارتضعوه أفاويق حتى ما يَدِرُّ لها ثُعْلُ، وكل ما قاله يمتاز بنفاذ نظرته وسعة تجربته، وعميق إحساسه بالكون والحياة والأحياء، وسوء الظن بالناس شعور يعترى أصحاب التجارب الذين مارستهم الحياة ومارسوها، وخبروا تقلبات القلوب وكنائن الضمائر فنفذوا إلى خبايا السرائر، ولكن الأستاذ شاكر وحده هو الذى يقول (: ص٣٠)

تَبّـا لَهــا ولخَلق كلَّمـا انتــعـشـوا

تَفـارسَوُا بـنيُوب البَـغْى أو صـالُوا

كم ظالم عب كـأس الظُّلْم طافحـةً

ثم انتـــشَى وهو تَيّـاهٌ ومُـخــتـالُ

وكَمْ صــديـقٍ تَفـانَوْا فى مـــودَّتهم

حـتـى إذا نَبَـتَتْ أنـيـابهم جـــالُوا

فأنشـبوا حيث لا قَـوْا، لا تروِّعهم

عـــمَّـــآ أراغـوه أُمَّـــات وأطفـــالُ

تَوالَغُـوا فى الدم المَسْـفـوح عـربدةً

كـأنّ مـا شـربوا صَـهْـبـاءُ جِـرْيالُ

ثم انثـنَوْا وبهم مِن شِـــرَّة سَـــفَـــهٌ

وكلُّهـم مَـرِحُ العـطْفـيْـن ميَّـــالُ

يرتاح للدمْع والأنَّـات، يسمـعُـهـا

طَلْق المُحَـــيَّـــا إلى أنْ يَنْعَمَ البـــالُ

فــــإنما العَــــقْل إزْراء وتَـعْنيـــة

وحَـيْــرَةٌ، وضـلالاتٌ ، وأثـقـالُ

والغَيْبُ غَيْب، فما سِرٌّ بمُنكشِفٍ
والعُمْرُ والعيشُ أَغْلال وأَكبالُ

وهذا كلام حق لازيف فيه، لأنه كلام تجريب لا ريب فيه، ولكنه تجريب الأستاذ شاكر خاصة دون سائر المجرِّبين، لأنه الرجل العاقل الكريم النفس، الأبىّ الشديد الاعتداد، الذى عاش فى زمن الاحتلال، وعانى مِن تخاذل مَن وُكِّل إليهم أمر البلاد، ومِن حَطْب المتسلّقين فى حبال الجلادين، ولَقِى الناس فى ميدان المداهنة والرياء، والبطش والظلم والفساد، والخديعة والمخاتلة وكاذب الكبرياء.

وترى فى ختام هذه اللامية ما تراه فى ختام الرائية «اعصفى يا رياح» من نظرة فلسفية إلى الوجود، وطبيعة البشر، وقصور العقل مهما أوتى من الذكاء عن فهم هذا الكون والنفاذ إلى خباياه فما يجنى صاحب العقل إلا العناء والحيرة، والضلالات التى يرسف فى أغلالها وأكبالها.

(٣)

كتب الأستاذ شاكر ثلاث مقالات متتابعة بعنوان «إلى أين..؟» فى مجلة الرسالة سنة ١٩٤٠ أدار فى هذه المقالات حوارا بينه وبين صاحب له عن صديق، ولا تكاد تمضى فى قراءة المقالات حتى تدرك أن «الصديق» الذى يتحدث عنه الأستاذ شاكر هو الأستاذ شاكرنفسه ولا أحد سواه، يقول الأستاذ شاكر لصاحبه وهو يحاوره عن هذا الصديق: «أقول لك إنى لأحسّ بكل ما يعتلج فى قلبه من آلامه، **وكأنها عندى هى كل آلامى**، إنه رجل قد امتلأ حكمة مِن طول ما جرَّب، ومن عُنْف ما لقى من الأحداث التى نقضت بناء حياته مرة بعد مرة. نعم إنه لملء رجولته تجربة». أليس هذا هو الأستاذ شاكر كما نعرفه فى حياته العامة والخاصة؟

ثم يقول بعد سطور قليلة عن هذا الصديق «كان يومئذ رجلا ضَرْبا متوقّدا ثائراعنيفا، لا يزال يتمزّع من جميع نواحيه كأنّ فى تجاليد شخصه روح وَحْش شارد لا يألف الحياة ولا هى تألفه، كان فكرة شامخة عاتية عَضِلَة تأبى أن تتهضّم لأحد أو تستذلّ.. أصيب بأحداث كثيرة جعلته ظَنونا حزينا، فهو لذلك يضنّ بما فى قلبه أن يطلع على حقيقته الكاملة أحد من

الناس. . لقد كان هَشًّا أحيانا بين يدىْ من يتناوله. . فإذا أُخذ بالاعتناف والقَسْر، انقلب الذى فيه ضاريا لا يطيق ولا يُطاق». أليس هذا هو الأستاذ شاكر كما نعرفه فى حياته العامة والخاصة؟

ولم ينخدع الصاحب عن ماهيَّة هذا الصديق، كان يقول فى نفسه وهو يستمع إليه فما «**صديقه إلا هو**، وكنتُ ألمح هذا الجبل وهو يتخلّع من أعضاده التى ينهض عليها ثابتا قارّاً متساميا يهزأ بالتلال القصيرة التى تطمح إليه بأبصارها».

وقد زلّ قلم الأستاذ شاكر فأبان عن خبيئة أراد أن يخفيها ببراعة الفنان الماكر حين جعل كل آلام صديقه آلامه هو، ولكنه فارق الحذر فى موضع آخر من المقالة الثالثة وهويتحدث عن وَقْع لقاء صديقه بحبيبته «بدأ يحيى بها وبسحرها حياة رائعة فاتنة من أحلام الحب، وجعلت هى. . وجعلت. . هى. . آه يا صديقى! هذا كثير، **إن ذكرى ذلك كله تؤلمنى.. إنها تعذبنى.. إنها تخز قلبى بمثل السنان الحديد يقع وَخْزا متتابعا يتفجر فى نزعه بالدم كيف أستطيع أن أقول لك الآن ما الذى كانت هى تفعل! وماذا أقول لك؟ آه.. إن أنوثتها، بل رقتها...**»

وأرجح أن علاقة الحب هذه نشأت سنة ١٩٣٤ أو أوائل ١٩٣٥، فأول مقطوعة نشرها للدلالة عن هذه العلاقة كانت

فى مجلة المقتطف عدد يناير ١٩٣٦، وعنوانها يدل على أنها قد مضت وانتهت، فهو سماها «نفثة قديمة» ورغم هذا «القِدَم» فلا يزال يذكرها ولا يزال يألم، وسوف نرى من خلال شعره كله أنه بقدر ما ثار وتمرّد على هذه الحبيبة القاسية، فما برح يرسف فى قيود هذا الحب أسيرا عانيا يقول فى «نفثة قديمة» ص: ٦٨.

ذكرتُكِ بين ثنايا السُّطورِ
وأضمرتُ قَلْبِيَ بين الكَلِمْ
ولست أبوحُ بما قد كتمتُ
ولو حَزَّ فى النَّفسِ حَدُّ الألمْ
تمزِّقنى - ما حييتُ - المُنَى
فأرقَعُ ما مَزَّقتْ بالظُلَمْ
فكَمْ كتَمَ الليلُ مِن سِرِّنا
وفى الليل أسرارُ مَن قد كتَمْ
تشابه فى كَتْم ما نَسْتَسِرُّ
سوادُ الدُجَى وسوادُ القَلَمْ

ولكن الأستاذ شاكر إما حقيقة وإما بخيال الكاتب المُبْدِع،

يعود بـهذه العلاقـة إلى أيام الطفـولة «كانا صـغيريـن وكانت أيامهما الصغيـرة لا تدرك معنى النظرات التى تلتقى وتتعانق، فتنعقد عقدة لا تُحَل، وهكذا نسـيهما الزمن فى معبده الآمن، ثم انتبه يوما فـزفر بينهما زفرة واحدة فتفـرقا. لم يدرك يومئذ شـيئـا من مـعـانى الفراق المهلـكة التى تمحق النفس بالتـأمل واللهفة والحنـين، بل نظرا ثم تودعا، ثم افترقـا ثم نسيا، أو هكذا كان، ولكنه فى الحقـيقة لم يكن نسيانا، بل كـان عملا من أعمال القدر الغـامضة، كان تعبئة للأحـداث العظيمة التى تتهـيّأ فتـصنع النفس الإنسانيـة صنعة جـديدة». ومشى الزمن بينهما يقيم سدودا وأسوارا من السنين وأحداثها.. ثم فجأهما القدر فتلاقيا بعد دهر طويل كما يتلاقى نجمان فى ظلمة الليل يتناظران لمحة وشعاعـا من بعيد لبعيد، فـإذا هما يتناسمان فى جوّ عَطِر تنفح أردانه أنفـاس الطفولة التى تنمو فيـها عواطف القلب، «واجتمعا.. فإذا هى غـادة مضيئة تزهر ولكأن الزمن اختطفها كل هذا الدهر وتسلل بها فى بعض مصانعه العجيبة، وجعل يجهد جهده بأنامله النابغة الدقيقة فهو يجلوها ويصقلها حتى إذا فرغ من فنّه الذى احتفى لـها به، ردّها إليه ينبوعا من النور الضـاحك المرح يترقرق لعـينيه ممثـلا فى صورتهـا. لقد شبّت الصـغيـرة ولكن شبـابها كـان رقّة وحنانا فى أنوثتـها، واستوت فكان اسـتواؤها دِقّة فى فن من جمـالها» خلعت كل

قديمهـا، ولكن شيئا واحدا بقى كـما هو «لا بل بقى أقوى مما كان وأصفى تلك هى روحهـا، الروح القوية الآسرة المتسلطة. تغيّـر كل شىء إلا عيونهـا التى تشفّ عن هذه الروح التى لا تتغير. فالنظرة الباسمة الخاطفة التى كانت تُخضع بها تمرُّدَ ذلك الصبى العـارم الصغير، هى هى الـنظرة الباسمة الخـاطفة التى هجمت منه على الرجل فأضـاء وميضها له الطريق، وحـبسته بأمرها وسلطانها على هذا الطريق نفسه، وفى وقت معا».

لمحهـا ولمحته فى يوم اللقـاء الأول، فوقفـا طويلا ينظران، وشخص البصر. كفّت العيـن لا تطرف، أما هو فقد أخذه ما يأخذ الغريق المُشْفِى على هاوية من الهلاك، ثم فتح عينيه فإذا هو ملقى على الشاطئ سليـما معافى موفور الجـمام، أما هى فلم تُثْبِـتْه بادئ النظر، ثم سقط عن عـينيها الحجـاب الكثيف الذى أرخته سنين الفـراق الطوال، فعرفته واندفـعت إليه بقوة الردّ المتفلّت من شَدِّ عـشرين عاما كـانت تجاذبها دونه: أنتَ، أنتَ!! أين كنتَ؟!.

آه لقـد نسى المسكين عندئـذ أين كان. إنه هـنا فى اللحظة الحاضرة، أما الحياة الماضـية التى عملت فى بنيانه أعواما طوالا كلها جـهد وإرهاق ذهبت وامَّحت، ومرت لحظة اللقـاء بيدها الحانية على حياته الماضية فـغسلتها وطهرتها من سوادها وردت

إليه صحيفة أيامه نقية بيضاء. أعادت إليه الحبيبة زخرف الصبا ووشيه من نسج حديثها، أما هو فبقى صامتا ينصت لها خاشعا ضارعا.

دبّت الحياة فى موات نفسه واستيقظت روحه النائمة فى كهف مظلم أطبقت على منافذه صخور صلاب من جبال الزمن، وهَمَى على روحه التى أحرقها الظمأ حَيًا باردا عذبا زلالا (أَلَسْتِ التى، من: ٨٣ - ٨٤).

بَلَى كنتِ فى قلبى سِراجا يُضيئه
فيفترُّ عن أنواره كل جانبِ
وكنتِ حياةً للحياة تُمدُّها
بأفراحها فى عابسات المصائبِ
وكنتِ لى البَرَّ الوديعَ إذا غَلَتْ
بأمواجها وادّافَعَتْ بالمناكبِ
وكنتِ نسيما، واللَّظَى يَنشف اللَّظَى
ويترك ظِلّ الدوح ظِلّ اللواهِبِ
وكنتِ مَلاذِى والشؤون كأنها
من الدمع ينبوعٌ يجيش بغاربِ

وكنت إذا مـا العَينُ مـدت هُيـامها

إليكِ تـلقَّــتْــهــا أحَنُّ التــرائبِ

وكنتِ كـأنفـاس الرياض، عبـيـرُها

على الفـاقِـدِ المحزونِ فـرحـةُ آيبِ

«واستجـاشت هذه الساحرة الجميلة الـتى خرجت عليه من لفائف الغيب المحُجَّب تلك النفسَ المُصمِّمة العنيدة، فما زالت حتى انقشعت الغـمامةُ الغَبِيَّة التى كانت تحيط بنفـسه عمرا من قـبل إنه الآن يسـمع ويرى ويحسّ. اشـتـعل القلب وفـارت الروح، فـانطلق بعد الحـيرة والضـلال فى طريق سوىّ مـؤيَّدا بهـذه الـروح القـوية التى سـيطرت على كل روحــه بالحب والحنان. . تنحدر رنّات صوتها إلى قلبه فتجرى فى أنهار الحياة المتدفقة فى جثـمانه بدمه. فيرجعّ الدم ألحانا ترجيعا مـوسيقيا هفافا آتيا من أغوار القدر العميقة. نعم، إنه لا يزال يسمع فى مخارم نفسه ومـهاويها صدى يتردد: أنتَ، أنتَ!! أين كُنتَ؟ فتجيبها الروح من أعـماقها: أنا هنا، أنا هنا!! أيتها العزيزة!» هذا ما أحس به الأستاذ شاكر فسطره فى المقالة الثانية، ونظمه فى قصيدة بعنوان «رماد» ص: ٩٦.

مـــــــلأتِ دنيـــــــاى نــورا
يُـضِـئ دنـيــــــــــا الأنـامِ
فـكلٌّ مـــــــرأى عـليـــــــه
حـــــــلاوة مِن وَسَـــــامِ
يـغـــــذوه نــورُكِ حُـــــسنا
حَـيــاً كـصــــوب الغَـمــامِ
فـــمـــا تـرى العـــينُ إلّا
زهـرا علـى أكـــــمــــامِ
أنـفـــــاسُـــــــه عَطِـراتٌ
نَشْـــوَى بـغـــيْـــر مُـــدامِ
مُـــمـــثَّــــلات لرُوحـى
مُــــعَـــرْبِدَاتُ الـقَـــوامِ
أُصْـــغِى.. إخــــال.. كــأنى
أصــــغـى إلى أنـغــــامِ

«إن كل هذه العواطف التى يرسلها إليه صوتُها وهى تتكلم كانت تعبُّ فيه عُبابها، حتى يجـد الأمواج النفسية تتقاذفه فى

فرح بعـد فرح، ومن سعادة إلى سـعادة، ومن حُلْم إلى حُلم كـأنه مـاض إلى جنّة الخـلد فى زورق من اللذات الـطاهرة الجميلة»، هكذا قال الأستاذ شاكر عن صديقه - أى عن نفسه - فى المقـالة الثالثـة، ثم قال عن نفـسه فى«انتظرى بُغْـضى» ص٧٢.

لقـد كُنتِ أحْلامى إذا الليل ضَـمَّنى

وكُنتِ-إذا ما الفَجرُ أيقظنى- رَوْضِى

يُناجيـكِ طيـرٌ فى الضلوع بـلَحْنه

لقد عاش فى سحْرٍ وقد عشتِ فى خفضِ

وكنتِ عـلى وَرْد الخـمـائـل زينةً

وكان بشـير الفجْـر فى الفنَن الغَضِّ

والملاحظ أن الأسـتاذ شـاكر لم يحـدثنا عن هذا الحب فى إبانه، ووقت توقُّده وعُرامه، بل كان حديثه عنه بعد إن انقضى وفات أوانه، فجاء كلامه عنه ممتزجا بالأسى والحسرة والضياع، وأنه حتى كتـابة آخر قصيدة، وهى «لا تعـودى» كان ممزَّقا بين ما يحس به من ألم الفراق الذى ابتـعثته الخيـانة، وبين السمو على هذا الحب والتـخلص من أسره، وعنوان المقـالات الثلاثة

«إلى أين؟» مُفـصِح مبـين، فهو يحـمل فى طواياه حنينا إلى ذلك النبع الثرى الـذى سرى فى عروقـه والذى لا يستطيع أن يفارقه خشية الجفاف ثم الموات، وبين رغبته فى الاستقلال عنه والبعـد دونه حتى ولو قاسى حَرّ الظمـأ. وشبيه بهـذا الصراع كان يعتـمل فى نفسه خلال جَنْيِه ثمار الحب الناضـجة المغرية «يقتـطف منها حيـث أراد، وهى تغذوه كل يوم غـذاء جديدا هنيئـا يملأ روحه قوة وشـبابا وعزما»، ولكن كـان يؤرقه هذا الاستسـلام لحبها الطاغى وأنوثتها الزاخـرة «لقد كان يرَى وهو يذلّ لهذه الساحـرة أيامه ولياليه خـاشعا مستكيـنا كأنه يهودى منبوذ فـقير فى غـربة موحشـة»، كانت كبـرياؤه «المأسورة فى سجن امرأة محبوبة» تؤرقه ولا يستطيع شيئا حيالها «ولا يملك إلا أن يخـضع لذلك السلطان المرح الظافـر». يقـول الأستـاذ شاكـر شعـرا بعدما قـضى الأمر مـا صاغه نثـرا فى قصـيدة «انتظرى بُغضى» ص ٧٠:

فكـيف بـه قـــــد ذَلَّ وهو مـكرَّمٌ
وأَغْضَى ولو قد ناصبالدهْر لم يُغْضِ
كـفى بكَ ذلًّا أن تبيتَ على جَـوى
وتُصْبِحَ فى ذكرىَ، وتُمسِى على رَمَضِ

ويقول فى قصيدة «ألَسْتِ التى» ص٨٨:

تخشَّعتُ تحت الحُبّ والوجْد والهوَى
وطول اضطرابى فى الهموم الغوالبِ
أذَلَّ شبابى الحبُّ حتى رأيتُنى
أمرُّ بأترابى مُرورَ المُجانبِ
وأحسدهم مما لقيتُ، وإننى
لأخشى عليهم محْنتى وتجاربى

ويقول مخاطبا النخلة فى «ناسكة الصحراء» ص١٢٤:

وكبرياء أُلْبِسَتْ ذلَّة
وعُوِّدَتْ إطراقة الصاغرِ

ويتضح عنف هذا الصراع وديمومته فى آن فى قصيدة «لا تعودى»، وهى آخر قصيدة حب كتبها فيما أرجح بعد سنة ١٩٤٠، وهى قصيدة من فاخر الشعر تستحق الدرس بعد الدرس، فانظر إلى هذه الأبيات منها:

أنا.. لا كُنتِ ولا كان قصيدى أو نشيدى
لَوْعَةٌ تُمْلِى على الأكوان آلامَ العبيدِ
أنا فى الرِّقِّ أعانى ثورة الحر العَنيدِ
أتحدَّاك.. ولكنى ذليلٌ فى قيودى

انظر إلى هذا الحب الجـارف الأسيـر الذى لا يسـتطيع منه فكاكا، تنزّت جراحه حتى صـارت لوعة وأسى تجسِّم العبودية بكل ما فيها من معنى، انظر إلى هذا **الحر الذليل**، ما أقدر هذا البيان = حُرٌ ثائر عنيد مـتحدٍّ عنيف ولكنه ذليل فى قيود الحب يرسف فى أغلالها مريدا غير مريد.

يفاجأ القارئ فى آخر فقرة من المقال الأخير بنهاية قصة هذا الحب، نهاية حـادة مقتـضبة تأخـذك بسرعانهـا وتهوى عليك كحجر لا تدرى مَن رمـاه ولا من أى اتجاه جاء. يأخذك على حين غِرَّة لأنك تقرأ فى الفقرة السـابقة مباشرة «لقد انتهى فى بعض ساعـاته معها أن يراها أسـتاذه، فهـو يجلس بين يديها ليأخذ عنهـا روائع الحكمة، ويسألها عن سِـرّ الأبدية المُحَجَّب بالغَيْب، ويُلقى عندها كـل أفكاره المعقّدة فى الحيـاة، يلتمس عند حكمتها الخالدة حَلَّ ما تعقَّد، وأن تمنح أفكاره ذلك الهدوء الفلسفى الذى تسبغـه الحكمة العالية على سَدَنَتهـا وحُفَّاظها». ولا تكاد تنتـهى من هذا الكلام الذى لا يصدر إلا من عـاشق وامق، ذاب وجـوده فى روح مَن يحب، حـتى تنقضّ عليك هذه الأسطر انقضاض البازى: «هـذا هو فى مَدّ عواطفه وهى تفور وتتـثور بأمواجهـا فى الحب العنيف المتلاطم، ثم إذا هى تطير عن أحلامـه وتنفر من مجثمها السـحرى، وإذا هو منفرد لا يدرى كيف كان هذا؟ ولم؟ ومن أين؟ وإلى أين...؟.».

«إنها ذهبت وتركت الدنيا التى أنشأتها له مشرقة زاهية ناضرة، فإذا هى تطفأ وتخبو وتذبل. إن قوة رجولته قد ذهبت تطلبها عند قبور الذكرى، فكيف لا يضمحلّ الرجل؟ كيف لا يضمحلّ؟».

هذه النهاية الحادة كالسيف المُصَمِّم يمضى فى العظم، وهذه الحيرة التى عنون بها المقالات الثلاث واختتم بها المقال الأخير، «إلى أين؟» واستخدامه للشخص الثالث لحكاية هذا الحب المفجع، يريد أن يجعل بينه وبين رواية الأحداث فاصلاً وحجابًا، كما فعل طه حسين فى الأيام. كل ذلك يدل على عنف الألم الذى عاناه الأستاذ شاكر من جراء هذه القطيعة، وزاد من عنفها وقعها على نفس أبيّة شموس تأبى الاستكانة والخضوع والذِّلَّة، فَنَفْسُه الجامحة تريد الانطلاق من أسر هذه المذلة والخيانة، ولكن حُبّه الذى أخذ بمجامع قلبه يحول دون ذلك، فيجاهر بالتحدى والعناد بينما هو أسير فى القيود، محطمًا مهدَّمًا مضمحلاً. وإذا كان الأستاذ شاكر فى هذه المقالات الثلاث قد ذكر النهاية المؤلمة ذكرًا خاطفا، ولم يُشر إلى أسبابها، ومسّ وقعها عليه مَسًّا رفيقًا، وإنْ كان مُفصحًا مُبينًا، فقد بثّ شعْرَه همومَه وأحزانه وما قاسى من حُرَقة اللظى، وغُلل الصَّدَى، ومرارة الحرمان، وبلغ من مَوْجدته أنه

سمّى بعض القصـائد - ابتداء من القصيدة الثانيـة التى نظمها للتعبير عن شعوره حيال هذه الخيانة - «ديوان البغضاء»، هى: انتظرى بُغْضى (يونيو ١٩٣٦، ص:٦٩-٧٣)، عقوق (نوفمبر ١٩٣٦، ص: ٨٠-٨٢)، ألَسْتِ التى؟ (يناير١٩٣٧ ص ٨٣ - ٩٢). أما بقيـة القصائد التى لم يدرجها فى «ديوان البـغضاء» فلا تحـمل من المرارة والإلحاح عـلي خيانـة المرأة مثل قـصائد «ديوان البـغضـاء». نعم، إنها تفـيض بالألم واللذع والحـيرة والضيـاع، ولكن كل ذلك تصوير لما آل إليه، وكـيف أصبح، دون ذكـر للمرأة إلا لمامـا، وهى آلام وأوجـاع هذه التجـربة القاسـية من ناحية، وهى أيضًـا أحزانه ووحشتـه وانفراده فى مجتمع فاسد من جميع نواحيه.

وهذه القصائد حسب الترتيب الزمنى هى:

نفثة قديمة، يناير ١٩٣٦.

حيرة، أغسطس ١٩٣٦.

رماد، ديسمبر ١٩٣٩.

اذكرى قلبى، ١٩٤٠.

تحت الليل، ١٩٤٠.

الربيع، إبريل ١٩٤٠.

من تحت الأنقاض، مايو ١٩٤٣.

الشجرة، ناسكة الصحراء، ١٩٤٣.

أما قصيدة «لا تعودِى»، فلم أستطع أن أُأرّخ لها، ولكنى أظن ظنًا أشبه باليقين أنها آخر ما نظم عن تجربة حبه، فى أواخر الأربعينيات فيما أرجح.

هذا بالإضافة إلى قصائد أخرى تقع خارج هذا الإطار وهى اعصفى يا رياح (كتبت قبل القوس العذراء، أى قبل عام ١٩٥٢)، وَعْد (نظمها فى الشاعر محمود حسن إسماعيل رحمه الله)، وغيرها.

******

(٤)
قصائد ديوان البغضاء

قلت قبلُ إن الأستاذ شاكر فى آخر المقالات الثلاث فجأنا بنهاية قصة حبه فأوقعها علينا كما تقع الصاعقة، لا يستغرق انصبابها إلا ثوانى معدودة، ولكنها تخلّف وراءها دماراً واضطراباً وفوضى، فتركنا الأستاذ شاكر مثله فى حيرة، لا ندرى «كيف كان هذا؟ ولـمَ؟، ومن أين؟ وإلى أين؟» وما اختطفه ذكْرا هناك اختطافاً، فَصلَّه فى شعره تفصيلا. فأضاء لنا جانباً من جوانب هذه النفس الفريدة.

وأول ما يطالعك فى هذه القصائد هو رَجْعة الأستاذ إلى الماضى حيث كان حُراً طليقاً، ينتحى حيث شاء، يَرْضَى مُقدما، ويأبى غير هيّاب، لا يتقاعس إذا عنَّ عسير أمر، بل يلقاه ووجهه وضّاح وثغره باسم، يقول فى «ألستِ التى؟»:

لقد كنتُ خِلْوًا أنتحِى حيث أشْتَهِى
وأَرْضَى وآبَى مُقْدِما غير هائبِ
تُسَهِّلُ لى الصعبَ الأبيَّ عزيمتى
ويكفُلُ لى صِدْقى قضاءَ مآربى

وأرمِي بنفْسى فى المهالكِ باسمـا

لأنفُذَ منهـا باسِـمـا غيـرَ خـائبِ

ولكن رصده القدَرُ المتاح، فأوقعه فى حُبّ مَن أوهمته أنها تبادله إياه، فاستنام عقله، وعَشيت بصيرته، فقد وجد - أو هكذا ظنّ - مـلاذا يأوى إليـه من غِلظة الزمـان، وجـفـاء الإخوان، وطول الحِـرْمان. أليس مـن حقه أن يأخـذ من هذه الحياة نصـيباً؟ ويستريح بعـد نَصَب مُضْنٍ وعناء طويل. هكذا قادته هذه الأمانى إلى هُوَّة سحيـقة لم يكن لعظامه من رَضِّها جابر، يالها من غَفْلة «ألست التى؟» :

بَلَى. كُنْتِ.. إذ عَيْنى عليها غِشاوةٌ

وإذ أتردَّى مِن سَـواد الغـيـاهبِ

وأُخْرَى على عـيْن البصيـرة خيَّلت

لنفْـسِى هُداها بالأمـانى الكواذبِ

أرى مِن تكاذيـب الخيـال كـأننى

إلى جَنَّة الفـردوس أحْـدُو ركـائبى

نعم، يالها من غفلة (عقوق) :

آهِ من غَـفْـلة إذا خَـطَرت لـى

مـلأتنـى غَـيْظا وحِـقْـدا وحَـرْبا

قــد رمــتنى فى جــاحِمٍ يَتَـلَظَّى
فــإذا مــات أرَّثَتْــهُ فــشَـبَّــا

هذا الجاحم المتلظى هو ثانى مـا يطالعك فى هذه القصائد. هذا الألم المُمِضّ الذى ألمّ به فجأة مِن حيث لا يحتسب أرَّثته الخيـانة والغدر. والمُخاتلة إذا نالـت من رجل صادق يأمن لِمن أحبه كـالأستاذ شاكـر، بالغت فى نيلها وتضرّمت نيـرانها فى دمه. فالأستاذ شاكر على عنفـه وصلابته وفحولته لم يجد بُدا من أن يسلم لهـذه المرأة «العزيـزة» قيـاد عواطفـه التى تصبـو صـبواتهـا إلى كل شىء فـيهـا. ولكنه كـان يشـعر بعـد هذا الاستـسلام بقـوة مارِدَة قـادرة على أن تقهـر كل ما يعـترض طريقهـا. كان معنى خضـوعه لها أنه مسـتطيع أن يُخْضِع كل الأشيـاء لسلطانه. إن إحسـاسه بحبـه لها كـان ضروبا من فنّ الروح العاشـقة. لم يكن يراها امـرأة مجردّة يحـبهـا بحرارة القلب الملتهب بالرغبة أو بالحب. كلا، كلا، لقد يجدها أحيانا فى أوهام عواطفه ومَدّها أُمًّا، فهو يريد من أمومتها المحبوبة أن تمهّد له فى قلبها تلك العاطفة الوثيرة اللينة من الحنوّ والعطف، وهو يراها مَـرَّة أخْـتـا يلتـمس فى مَسّ يديْهـا، وفى نبـرات صوتهـا، تلك العاطفة السـاكنة ذات الأفياء والظلال، عـاطفة الأخت التى تضـحى فى سـبـيل أخـيـهـا المنكوب، ثم يرقى

إحساسه فينظرها أخا مخلصاً يشدّ أزْرَه إذا انطبقت عليه قُحَم العيش ومتالف الحياة، ثم هى تارة أخرى روح من الأبوّة المسدِّدة، الحازمة المُصَمِّمة البليغة، لا تزال تجد الرجلَ مهما أناف به العمر وشمخ ذلك الطفلَ العابسَ الغرير الطيَّاش، وهى مع ذلك كله الصديق الذى يُحامِى عنه إذا تعادت عليه الدنيا بأسرها، الصديق الذى تبقى صداقته تطوف عليه تحرسه وترعاه. هكذا وصفها الأستاذ شاكر فى المقالة الثالثة «إلى أين؟» وهكذا كان ينظر إليها، وهكذا كانت بالنسبة له: الحبيبة، والأُمّ، والأخت، والأخ، والأب، والصديق. فلا عجب أن يتحطم هذا الرجل المخلص الوفى الأمين، ويتزايل ويتدهدى على صخور هذه الخيانة العاتية «ألستِ التى؟» :

فيا سُوءَ ما أبقيتِ فى الدَّم مِن لَظًى
وفى الفِكْر من كَلْمٍ وفى القلب مِن عَضٍّ
أخافُكِ فى سِرِّى، وجَهْرِى، ومَشْهَدِى
لديْك، وغيْبى خَوف أرْقَطَ مُنْقَضٍّ

لم يكن يدرى أن هذه الحبيبة والأم والأخت والأخ والوالد والصديق هى سور باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبَله العذاب والشَّر والخديعة، والمخاتلة والمداهنة ملفَّفة فى حُجُبٍ من الرقة والوداعة، واللين والبراءة «ألستِ التى؟» :

بلَى! كُنْتِ.. كنتِ السِّحْر تبدو صُدُوره
من الخَيْر تُخْفِى منه شَرَّ العواقبِ
أرى الحيَّة الرَّقطاءَ أجملَ منظرا
وألْيَنَ مَسًّا من ثُدِىّ الكواعبِ
إذا ما تراءتها العيونُ بريئةً
من الخوف خالتها دُعابةَ لاعِبِ
تدانَى إلى اللاهِى دُنُوَّ مُقاربٍ
فيدنُو ويُدْنِى كفَّه كالمُداعبِ
ألا ارْفَعْ يدًا.. واذهب بنفْسك رهبةً
فمِنْ حُسْنِها نابٌ شديدُ المعاطِبِ

زُلْزِل قلبُه زلزالاً جعله يتطامن ويتزعزع، ويضطرب بعضه فى بعض حتى أساء الظن بالمرأة، ورأى الخيانة فيها سجية وطبعا، يقول فى نفس القصيدة :

ولكن.. رَمتْ بينى وبينك بَعْده
ضَريبةُ أُنْثى وهى شَرُّ الضرائبِ
فأطلقتِ فى إثرى الضَّوارى مُجِدَّةً
تُعانُ على أنيابها بالمَخالِبِ

تمزِّقُنى ألحاظها وعيونُها
كأنىَ أُرْمَى بالسِّهامِ الصَّوائبِ
يفزِّعُنى ظِلِّى إذا ما لَمَحْتُه
وقد غالنى رُعْبِى وسُدَّت مَهاربى

ويعجب أن يجتمع هذا الفتك والقتل ورقة الأنوثة ولينها فى كيان واحد (انتظرى بُغْضى) :

أأُنْثى وَوَحْشٌ؟! جَلَّ خالِقُ خَلْقِه
وسُبحان كاسِى الوَحشَ من رَوْنَقٍ غَضٍّ

هذا التناقض العجيب رمى بالأستاذ شاكر فى تنازع النفْس= غيظ ورضى، وشك ويقين، وثورة وخضوع، وحب وكراهية، لا يستقر له قرار، يقول فى. انتظرى بُغْضِى»:

حَبَبْتُكِ والأوهام فِكْرِى، وحُجَّتى
تُؤَلِّب بَعْضِى فى هَواكِ على بَعْضِ
إذا ما نقضْتُ الرأى، بالرأى، ردَّنى
إلى خطراتِ الوَهْم مَضٌّ على مَضٍّ
أصارِعُ أهوالاً من الغَيْظ والرِّضَى
وما يتولَّى الغيظَ فوق الذى يُرْضِى

فانظر إلى الكلمة الأولى «حبـبتك»، قُضِى الأمر ولا حيلة له فيه، ثم انظر إلى هذا التصارع بين الفكر وقد تسلّطت عليه الأوهام، ثم تعتـرضه الحُجّـة بعد الحجّـة بالمقارعة، فـإذا قام الرأى واستـوى ونصع انبرى العـقل فضـادّه ونقضـه، وعادت الأوهام تسرح فى مساربه وتأخذ عليه منافذه، فيتأرجح صاحبه بين الغيظ المُمِضّ والغضب، ومُسْتراح الرضى.

ومظهر آخر من مظاهر الصراع هو الحب المكين الذى تغلغل فى سويداء القـلب رغم كل الذل والقهر، ورغـم هذا الصراع بين الوهم الضارب فى الخـيال، والرأى المعضّد بنور اليـقين، يقول فى «ألست التى؟»:

ألا وَيْحَـها! كم بِتُّ أرقُبُ طيـفهـا

وكم سَـهِرت عـينى نَجِىّ الكواكبِ

وكم طُفْتُ بـالبـيـداء أطـلبُ خَلْوَةً

وأُرْسِل طَرْفى فى ضـــلال المذاهب

أُمَـــثِّلها حـــتى أكـاد أَمَـــسُّـهــا

وأُلقِى إليـــهـا مـــا تَضُمّ جـــوانبى

وأشـتـاقـهـا والبـحـر بينى وبينهـا

وبِيـدٌ تـعـاوَتْ بالرياحِ الـغـواضِبِ

ولا تحسبنّ البحر والبيد على حقيقة الكلام والمعنى الحسّى، بل هما مجاز لهذا الموج المتـلاطم فى نفسه والذى يكاد يشفى به على الغرق، ومجاز لهذا الفـراق الذى باعد بينه وبينها بُعْد المفازة تتخرّق فيها الرياح من سعتها وامتدادها فيُسمع لها عواء صـاخب غـاضب. وهو على كـل حـال راضٍ، وعلى شكّه غاضّ، يَنُمّ مظهـره وغَيْرته ونظراته عن حب مـتأصّل، ولكن يكتم ذلك الذى يأكل قلبه غير بائح به (انتظرى بُغْضِى):

لقد كنتُ أمْـضِى طائعًا غيـرَ جامحٍ
وأرضَى بإطْراقى على الرَّيْب أو غَضِّى

ويفضحُـنى فيكِ اقْتحامـى وغَيْرتى
وطَرْفى، وما جَسَّ الأطباء مِن نَبْضِى

ويأكل قَـلْبى مـا أُكَـتِّـمُ راضـيًـا
فما بكَتْ العينُ الشبابَ الذى يَمْضى

وهى فى خلال ذلك كله تـتلذّذ بما هو فيه، كـما ترى فى البيت التالى للأبيات السابقة:

وأنتِ لَعَـمْـرِى فى سُـرور وغِـبْطَةٍ
يَسُرُّكِ بَسْطِى فى الحـوادثِ أو قَبْضِى

والوجه الآخـر لهذا الصراع هو الكراهية المُرَّة لهـذه الغادرة

التى وفى لها، والثورة عليها، والتخلص من ربْقـة حبّها، فتباً له من حُب وتباً لها من غادرة (عقوق):

أَوَفاءٌ لغادرٍ يَتَسلّى بِعذابى؟ تباً لذا الحبّ تبّا

هذه الغادرة لا تستحق غير البغضاء، يقول فى ختام قصيدته «انتظرى بُغْضِى»:

تصامَمْتِ عن قلبى، ورُمْتِ مَساءتى

وتنتـظرين الحبَّ! انتـظرى بُغْـضِى

عادت إليه تتوسل بنعومة الأنثى لإحياء ما مضى، وما دَرَتْ أنها بهـجرانها وقطيـعتها وخـتْلها قد اقـتدحت نار الإباء التى تكمن فى صَـفـاة هذه النفس الشـمـوس التى تأبى أن تَذلّ أو تتهـضّم. لم يُصْغِ لهـا ولم يقبل منهـا عذراً، فـقد تجـسَّدتْ خيانتُها فى كيـان كل أنثى، وقد عبرّ عن هذا الوجه الآخر من الصراع الذى حـدَّثتك عنه تعبـيراً بالغًا سَلْـسلا، رائق النغم، متدفقًا تدفُّق الدم الفوّار فى عـروق صاحبه، مُراوِحا بين أزمان الأفعال ليربط بين الماضى الأليم، والحاضـر الحزين، والمستقبل الكليم، وليُفْـصِح عن عزيمة حَـذَّاء طوى عليها نفسـه، أقول عبرّ عن ذلك كله فى القسم الأخير من «ألست التى؟»:

ألا لا تقـولى كـيف كُنْتِ!! فـإننى

أرى كل أنثى شَـرُّهـا غـيـرُ غـائبِ

ترومــين منّى الودَّ بُقْــيا على الذى

مضى؟!... خاب فَألى أن أُرَى غير ثائبِ

ترومين منّى الودَّ؟!.. تلك عجيبة!

وأَسْعَى لذَبْحِى؟! تلك أمّ العــجائبِ

تشهــيَّتِ لَحْمًــا، فأتِ مــا تَشْتهــينه

فلم يَبْقَ من لَحْــمِى طعامٌ لســاغِبِ

تَمليَّــتُ هذا البُــغْضَ حــتــى رأيتُنى

أُربِّبُ حَــيَّـــاتى وأَغْــذُو عَـــقــاربى

فــإنْ يكُ بُغْــضِى كلَّ ذَنْبٍ جنيتُــه

إليك، فـــإنــى لستُ منــه بتـــائبِ

وكيف... وقــد أنهكتِنى وَعَرقْــتنى

وقُــدْتِ على قلبى جيــوشَ النوائبِ

ذَرِينى ولــكنّ الحــيـــاةَ مليــئـــة

بكُنَّ!...فما فى الأرض مَنْجًى لهاربِ

أرأيْتَ إلى هذا الصـراع الذى تتمـزَّع منه نفسه؟ خـرج منه مثقل الكواهل، مثخنا بالجـراح، وهى جراح ستبقى أبدا تَدْمَى

- كما سأوضح فى الصفحات التالية، ولكنه خرج أيضًا مرفوع الرأس فى تحدٍّ وإبـاء. وإذا كان فى «ألست التى؟» قـد صدَّها ورفض رجوعـها وأبى أن يواصلها شـأن المؤمن الذى لا يُلْدَغُ من جُحْر مرتين، فإنه فى محاولة المستميت الذى يريد أن يثبت لنفســه أنه قد طرحها وألقى حـبها وراء ظهره، قـد تحداها فى «عقوق»، فهو لا يخشى لقاءها، ولا سطوتها، وهو يمد إليها يد الصديق، يد رجل شامخ لم يعجـزه أن يقهر الموت من قبل (فى محاولة الانتحار) فهو على قَهْر سلطان هذا الحب أقدر:

مِلْ بنا يا فـؤادُ! نَنْسَى المَوَدَّات، ونُلقى إلى العداوة حـبًّا

وتعالىْ يا ربَّةَ الأَرْقَش الخدَّاع، وارعىْ ما بين جنبى خِصْبا

وامنعِى نَفْثَةَ الوفا واحْجُبيها، رُبَّ ذكرَى أضحَتْ مَواتا أَجَبَّا

وانظرى نظرةَ العُـقاب إذا أبصر صـيْدًا، فـرامَه فـاشْرَأَبَّا

وانفُضِى الناسَ نَفْضَةَ الأَسَدِ المجروحِ أَشْلاَءَ صَيْده والإِرْبا

وتعالَىْ... أنا الصديقُ، ويا أعجبَ مَن يجعلُ العَداوةَ صَحْبا!

واعلمِى أننى قد تركتُ وفاَءَ الحُبِّ زُهْدا، ورُمْتُ فيك الحُبَّا

هذه كَفٌّ خائض غَـمَرات الحُبِّ أَبْلَى فيـها بلاء صَعْـبا

مُسْتَميتا... قد غالب المَوْتَ والحُبَّ، ونالَ الحياةَ كَسْبا وغَصْبا

نعم لقد غالب الموتَ وانتصر عليه، وغالب الحياة وقهرها وجعلها ظِهْرِيًّا، ولكنى لا إخال أنه فى مغالبته للحب قد علاه وأخضعه وطرحه، ولكنه مكابرة هذه النفس الأبية التى ترفض أن تذلّ وتتهضَّم، والتى حسبت أن الصراع ضد الحياة ومَتَالفها، والحب ومهاويه على سَواء. ولا شك أن الأستاذ شاكر قد صارع الحياة فصرعها، صحيح أنه خرج - كما قلتُ قبلُ - من هذا الصراع مُكَلَّمًا، وحيدًا ممزّق النفس، نفورا، يحيط به الشك من كل ناحية، إلا أنه خرج منه أيضًا مرفوع الرأس، موفور الكرامة، فهو يعلم كما قال فى قصيدة «أغنية المَلاَّح التائه»:

إنمّا الدُّنيا لَمَن نازعها الكأسَ اغتصابا

ويؤكّد ذلك فى قصيدة «حَيْرَة»:

فصارعتُ الشجونَ وصارعتْنى

إلى أنْ فُزْتُ بالدنيا غِلابا

هذه هى خلاصة الأفكار الرئيسية فى القصائد التى سَمَّاها «من ديوان البغضاء»، وهى لا تختلف كثيرًا عن سائر قصائد الحب، والاختلاف البارز بينهما - كما أوضحت من قبل - هو أن هذه الأخيرة لا تعبر بنفس القوة عن المرارة الشديدة التى خلّفتها خيانة هذه «العزيزة».

وتتضح مرارة هذه التجربة من جَـعْل كل أنثى رمزًا للخيانة وتجسيدًا للقسوة، كما رأينا فى الشعر الذى استشهدت به. ولم يملّ الأسـتاذ شـاكر ذِكْـر ذلك فى كل مـا كتب إذا عَنَّ ذِكْـر المرأة. يقول فى معرض حديثه عن أبى العباس السفَّاح:

«وإنّ الرِّقَّة والدَّعة والجمال ولين الخُلُق تُخْفِى وراءها أحيانًا قَسْـوة لا تدانيهـا قَسْوَة، كـالذى يكون فى النساء، فـإنهن قد عُـرِفْنَ بين الناس بالرقـة، وهنَّ أغلظ أكـبـادًا من الإبل. وإن المرأة إذا ثارت لم يبلغ مـبلغها من القـسوة أقْعَـد الوحوش فى باب الوحـشيـة، ومع ذلك . . . فـهى الزهرة غِبَّ النَّدَى، وهى النَّسيم فى السَّحر، وهى. . . »[1].

وفى مقـالة «أسواق النخـاسة» تناول عـدة مواضـيع آخرها بعنوان «المرأة والرجل» قال:

«لشدّ مـا اجتـرأت المرأةُ فى هذا العصـر! وإذا أخذت المرأة أسلحـتهـا من الزينة والتَّطْرِية، والجـمال والفـتنة، وجيَّـشتْ غرائزها من الحذر والحيلة، والضعف والإغراء، لم يَبْقَ للرجل إلا أنْ يستقِلَّ أو يفرّ . . . وقد أقامت وزارة الشئون الاجتماعية مناظرة بين الأسـتاذ مـحمـد فـريد أبو حديد والسـيدة زاهيـة مرزوق، وكان غرضها هو «كيف ننهض بالأسرة؟» والظاهر أن

---

(١) مجلة الرسالة، السنة الثامنة، سنة ١٩٤٠، ص ٦٤.

السيـدة الكريمة قـد اعتـقدت فى قلبـها معنـى «حرية المرأة» بالإصرار والتعصب، فأخذت تنتزع رجولة الرجل شيئًا فشيئًا، حتى ليخـيَّل لسامعها أنه مخلوق وحـشىّ منطلق من كل قيود النُّبل فهو عندها أنانىّ لا يُؤْثِر على نفْسـه، وهو مَعْنًى متجسّم للفوضَى فى بيت الأبّوة والأمومة، وهو جـاهل متحامل على ضعف المرأة لا يرحمها ولا يحسّ بآلامـها، وهو فاجر متوقّح يستجر الأخطاء ويجنيها ثم يرمى المرأة بها ويَنْسَلّ منها.

وأنا لا أريد أن أدافع عـن الرجل، ولكنى أريد أن أســأل السيدة الكريمة، ومَن يذهب مذهبها فى النساء: إذا كانت هذه صفة الرجل فى أنفسكنّ، وإذا تحـدّثتنّ بمثله فبلغ الأسماع فى بيوت العقـائل، فوقع فى آذان الأم والزوجة، والفـتاة الجاهلة الطياشة، فاعتقدنه ومالت إليه أهواؤهن، فبأى عيْن تنظر المرأة إلى زوجها، والفـتاة إلى خاطبها؟ وأىُّ مـعاملة يلقاها الرجل بعدُ على أيديهنّ وبألسنتهنّ.

كلا يا سيدتـى، إن المرأة هى تجنى أكثر الذنب، ثم تتنصَّل وهى كل الأنانية»[1].

ولم يكتف الأستاذ بوصفها بالقسوة والوحشية والأنانية، بل رماها أيضًـا بالسطحية، فهـذه المرأة التى تحدثت عنها السـيدة

---

(١) الرسالة، السنة الثامنة، سنة ١٩٤٠، ص ١٠٣.

زاهية مــرزوق، والتى نهضت لتطالب بحـقوقهــا، ما هى إلا مُقَلِّدة تنساق وراء حضارة الغرب العفنة:

«هذه المرأة وهى فنّ الحيــاة الذى يَشْتَهِى أبدا أن يُبْـدِع حتى فى الأَذَى - ما تكاد تراها عندنا إلا دُمْية ملفَّـقة من الحضارات وبدعها، ثيــابها، زينتها، حَلْيــها، تَطْرِيتها، شعــرها، بنانها، مشْـيتها، منطقــها، كل ذلك أجنبى عنها، مُـتكَلَّف منتزع من مَظاهر غانيات باريس وعابثات هوليود»[١].

ولم تنج المرأة من نقده اللاذع حتى فى تعليقه على الأبيات التى كان شيخه سيد المرصــفى ينشدها حين دخل عليه الأستاذ شاكر، وهى أبــيات نونية بالغة لأعــرابى محب لفتاته أمــيمة: دارت به الأيام فى فيافى الصــحراء ملتمسًا مــا يحقق به أمانى محبوبتــه، فلعبت به المفاوز وتقاذفته الشهــور فعاد وقد أذابت الفيافى منــه ما أذابت بقيظها وزمهــريرها، وجوعها وظمــئها، وهولها ومــخاوفهــا. فلما رأته رثًا أشْعَث، شــاحبًا مــهزولا، أســوأ حالاً مما عَــهِدَتْه قــبل أن يَضْرِب فى الأرض من أجلهــا وابتغاء مرضاتها، أنكرته وقد أثبتــته معرفة. فجُنَّ جنونُها لأنها محبة قد أخطأت فى رجُلها ما كانت تؤمّله وترجوه:

(١) الرسالة، السنة الثامنة، سنة ١٩٤٠، ص: ١٤٣.

رأتْ نِضْوَ أسـفارٍ، أميـمةُ، شاحـبًا
على نِضـو أسـفـارٍ فـجُنَّ جنُونُهـا
فقالت: من ايِّ الناس أنت؟ومَنْ تكن
فـإنك راعى صِـرْمَـة لا تزينهـا

وهنا يعلق الأستاذ شاكر على هذا الموقف بقوله **«وما أسرع ما تتنكّر المرأةُ إذا خاب ظنها وتبدَّدت أحلامها، وفاجأتها الحقيقة العارية بالشيء الذى يخالف ما كانت تتوهم»**. ثم يقول فى سياق تعليقه على الشطر الأول من البيت الثانى **«وكانت المفاجأة صارخة فى نفس أميمة، فلم تلبث أن غلبتها الطبيعة المتقلبة الغدَّارة التى طال عهد المرأة بها...»**[١].

وفى مقال بعنوان «الأغنياء» عرض فيه كتاب المقريزى «إغاثة الأُمَّة»، وقف مشدوها أمام هذه الأسطر: ودخل فصل الربيع فهبّ هواء أعقبه وباء وفناء . . وعُدِم القوتُ حتى أكل الناس صغار بنى آدم من الجوع، فكان الأب يأكل ولده مشويّا ومطبوخا، والمرأة تأكل ولدها . . فكان يوجد بين ثياب الرجل والمرأة كتفُ صغيرٍ أو فَخِذُه أو شىء من لَحْمه. ويدخل بعضهم إلى جاره فيجد القدر على النار فينتظرها حتى تتهيّأ، فإذا هى لحم طفل، وأكثر ما يوجد ذلك فى أكابر البيوت».

(١) الرسالة، السنة الرابعة عشرة، (العدد ٦٩٦)، ص ١٥١٤.

فيعلق الأستـاذ شاكر على هذه الأسطر بقوله «لماذا لا تكون هذه القسوة المتوحشة إلا من أعمال القلوب المُتَحجِّرة فى بيوت الأغنياء والأكابر؟ **ولماذا يكون أقسى القسـوة فى قلب المرأة الغنيّة،** فـتـكون هى أعظم اسـتـهـانة بـجـريمـة أكـل ولدِها الذى وَلَدَتْه؟»[1].

وواضح من هذه الأسطر أن المقريزى سَوّى بين الأب والأم فى هذه الغلظة المتوحشة، وقد راجعت كتاب المقريزى، وقرأت كل ما فـيه عن المجاعات التى فـرّى سُعارها أبناء مـصر، فلم أجد فيه شيئًا يدل على تفرّد النساء بهذه القسوة القاسية، ولكن الأستاذ شاكر أبى إلا أن يجعلها سمة للأم، أكثر منها للأب.

(١) الرسالة، السنة الثامنة (العدد ٣٥٧)، ص: ٧٧٨.

(٥)

قصائد حُبٍّ خارج قصائد «من ديوان البغضاء»

ذكرت قبلُ أن الأستاذ شاكر أودع تجربته قصائد، سمى بعضها «من ديوان البغضاء»، وقد تحدثت عنها في الفصل السابق وقلت إن القصائد الأخرى لا تفترق كثيرًا عن الأولى، فالذى يميّزها أنها تخلو من المرارة الشديدة حيال المرأة، ولكنها ليست خِلْوا من الإحساس بالألم الناجم عن هذه التجربة، ويميزها أيضًا أن الأستاذ شاكر بثَّها آلاما أخرى من عنف ما مَرّ به فى الحياة، فهى بذلك صورة صادقة لجماع نفسه.

وأوّل ما كتب عن تجربة حبه هى مقطوعة بعنوان «نفثة قديمة» وقد سبق الكلام عليها، وأزيد هنا أن الأستاذ شاكر فى أول تعبير له (يناير ١٩٣٦) عن مأساته، يظهر بمظهر المتجلّد الذى يكتم ما يختلج فى صدره، ولو حزَّ هذا الكتمانُ النفس والقلب حزَّ السكين. ولا نرى ذكرا للمرأة التى يحبها ولا طبيعة العلاقة بينهما، ولا إذا ما كانت تكنُّ له مثل ما يُسِرّ. ولكنه بعد أشهر قليلة انطلق لسانه من عقاله فنظم قصيدة انتظرى بغضى (وهى من ديوان البغضاء)، يونيو ١٩٣٦، وقد مضى الحديث عنها، وبعد ذلك بشهر أو نحوه نظم قصيدة

«حَيْرة»، ١٧ أغسطس ١٩٣٦، وعنوانها دالّ على ما يتخطَّفه من الحزن والأسى والاضطراب والبَلْبَلة: أشاب قلبه وهو فى غُلْوان الفتاء، أم عافى الشباب وهو فى أوج الصِّبا؟ استنزف الزمان قُواه فآفض شيخًا هِمًّا، ينوء تحت أثقال المُلِمَّات، أسيرًا فى يد الدنيا الغشوم لا يستطيع منها فِكاكا. وأظن ظنًّا أشبه باليقين أن الآلام التى عاناها من تباريح الحب ألقتْ ظلالها على بعض أبيات هذه القصيدة يقول:

وأصبح فى يد الدنيا أسيرا
إذا رام انفكاكَ وَهَى وخابا
كما علق الحِبالَة ذو جَناح
ولم ينفعْه أن صَحِب السحابا
فصفَّق ثم رنَّق ثم أعْيا
يَحِنّ لداره جَوًّا وغابا
أَمِنْ عَدْل الحوادث أنْ أُضَرَّى
لأطْعَمَ إثْرَ لذتهنّ صابا

رأينا فى تحليل قصائد «من ديوان البغضاء» مثيلاً لهذه الصورة التى تتضمنها هذه الأبيات: وقوعه فى أَسْر الحب، ومحاولته عبثًا أن يمزق شباكه ليعود حُرًّا طَليقًا كما كان، وما

أشبهه بهذا الطائر الذى وقع فى حبالة الصائد، فجهد ليخلص من شباكه أى جهد. ولكنه وهَى وخاب، فسقط مستسلمًا، ولم يُجْدِه ما كان من تحليقه فى أجواء السماء الفسيحة، يعلو قُنَن الجبال. والبيت الأخير من هذه الأبيات يضىء جنبات هذه الصورة فتبرز واضحة رأْىَ العين فما هذه «اللَّذَّة» الذى طعمها الأستاذ شاكر إلا لَذَّة الحب، أعقبها صابُ الفراق.

امتزج أسى الحرمان من لذة الحب، بآلام هذه الدنيا الختول فزلزلت أعضاده التى يقوم عليها وغذت قلبه الارتياب والشكوك. وأنا أزعم أن القسم الأول والثانى من هذه القصيدة، وإن تقنَّعا بالشكاة من الدهر المخاتل، هما فى الحقيقة تعبير عن هذا الصاب الذى ذاقه بعد جَنَى النحل، كما وضحّت فى سردى للأبيات الأربعة السابقة. يقوّى هذا الفرض أن القسمين الأخيرين من هذه القصيدة تتحدثان عن فراق الأحبة وكيف بانوا، وإن ألقى اللوم فى ذلك على الزمان الذى سلبه «الأحِبَّة» بعد أن تمتَّع بهم مُلاوة من الدهر:

هى الدُّنيا .. تُفَرِّقُ ساكِنيها
وفى الذكرَى ... تَزيدهمُ اقترابا
ألا لا تعجبى لى مِن نَحيبى
فإنّ أمامنا العَجَبَ العُجابا

ثم نظم الأستاذ شاكر قصيدة «عقوق» بعد ذلك بشهرين ونشرت فى ٩ نوفمبر ١٩٣٦ وهى أيضًا «من ديوان البغضاء»، وقد مضى الحديث عنها، وبعد ذلك بشهرين نشر «ألست التى؟» فى ١١ يناير ١٩٣٧، وهى أيضًا «من ديوان البغضاء» وقد سلف الكلام عنها.

ثم مر عامان لم ينشر الأستاذ شاكر فيهما شيئًا من شعره، ولا أقول: لم يكتب، فذلك شىء لا أدريه ولا أحققه. ولكن الواضح البين أنه بعد انقطاع عامين نشر قصدة بعنوان «رماد» فى ٢٥ ديسمبر ١٩٣٩. وعلى الرغم من المعنى الذى أراد بهذه الكلمة فى البيت الثانى من القسم الأخير فى هذه القصيدة، فالعنوان يدل والقصيدة تثبت أن تحت «الرماد» وميض جمر لم يخمد، وأن نار الحب ما زالت تتأجج وترسل شواظها فى قلبه ودمه، وأن أُوارها لم يخمد قط وأن ما ذكره فى ديوان البغضاء من قهر هذا الحب وطرحه ليس إلا مكابرة نفس أبيَّة. فى القسم الثانى من هذه القصيدة يصور جنة الخلد الذى صيرته إليها هذه الحبيبة بقُربها، ونور حُسْنها، وعطر أنفاسها، وحلاوة أنغامها، وقد استشهدتُ بأبيات منها من قبل، فارجع إليها. أما القسم الأول فكله شكاة ولوعة، يقول:

لا تَعْبَثى بفؤادى

وأكْرِمى آلامى

شَـــبَــبْتِ في الـقلـب نارا

مِـن لَوْعَـــةٍ وهُـيـــامِ

أَضْلَـلتِـنى عـن حــيـــاتى

بِـلَذْعَــةٍ واحــتــدامِ

وتمكن منه هذا الإضلال حتى صار فى مَهْمَهٍ من شكوك، تضل فيه خطى الأقـدام وخاطرات القلوب، فـاستوى الليل والنهار ظلمة ووحشة، وأَدَعُ الأستاذ شاكر يتم ما أحسّ به:

وعـــدتُ فـــردا وحــيـــدا

يَـجُـــوب غَـــوْل المَوامِـى

حـــيـــرانُ أَعْـــمَى عَـجُـــول

مَـــصَـــوَّرٌ مِن ســقـــامِ

يـكاد يـعــــشــــر وَهْنًـا

بنـفـــســه فى الـقــيــامِ

تـخطَّـفــتــه شكُـوك

جَـــيَّـاشــة كـــالضِّــرامِ

لـم تُبْـقِ إلا حُـطـامـــا

يَـنـقـضُّ فـــوق حُـطـامِ

أرأيت إلى ما ذكرتُ فى كلامى عن «من ديوان البغضاء» أن الأستاذ شاكر لم يستطع قطّ - رغم ما ادَّعى - أن يُفلت من إسار هذا الحب وكُبُوله، وأرأيتَ أيضًا إلى ما قلت هناك أن قصائد غير «من ديوان البغضاء»، لا تحمل هذا الهجوم العاتى على خيانة الأنثى، وإنما هى اجترار لآلام هذه التجربة القاسية يضاعف من حِدَّتها أحيانًا امتزاجها بقسوة الزمان وتجهمّه.

بعد ذلك بعام تقريبًا، سنة ١٩٤٠ نشر الأستاذ شاكر قصيدة من عيون شعره بعنوان «اذكرى قلبى» مطلعها:

اذكرى قلبى . . فقد يَنْضَرُ مِن ذِكْراكِ عُودِى

وهى سبعة أقسام على رَوِىّ واحد، يتكون كل قسم من خمسة أبيات ثم يختمها جميعًا بنفس بيت المطلع، ومن ثم يتكرر بيت المطلع مرتين فى القسم الأول، وجميع الأقسام السبعة تحكى آلامه يحدوها أمل ورجاء يتمثلان فى هذا البيت الذى افتتح به القصيدة، ثم جعله ختامًا لكل قسم. وواضح من بيت المفتتح أن «عُودَه» قد ذَبُل وجفّ، وكل ما يرجوه أن تذكر حبَّه لها، فلعل هذه الذكرى تبعث الحياة فى موات تجاليده. وقد أدار جميع الأقسام السبعة على هذه الصورة، فافتتح كلًّا منها بعد القسم الأول بقوله «أنا غُصْن»، بل ذكر ذلك أى «أنا غصن» فى القسم الأول بعد المَطْلع، وهو غُصْن

فى رياض مُؤْنقة، ولكنه دون كل الأغصان حُرِم ماء الحياة فصوّحه العطش، واشتدت غُلَّته، وصارت نارًا تلتهم ما على هذا العود الذاوى من زهر صار على الأرض لَقًى. وهو غصن يَنْحنى فى وَقْدَة الهجير، سلَّت عليه الشمسُ أشعةَ قَيْظها، فلوَّحته وَصوَّحته فَجَزَر ما استمسك به من الماء، فَغاضَ، فصار ناحلا قَضيفا، بين هذه الأغصان الرَّيانة، فبلغ به الخوف كل مبلغ حتى كأنه طريد سُدَّت عليه منافذه يخال كل شىء منتصبًا خيال سيف يكُرّ على أثره. وهو غصن يأمل أن يصيب ريًّا ولكن آه! ما أبعد هذا الرِّى لاح له من بعيد، أَسَرابٌ هو؟ أم ماء بَرودٌ؟ لما لا يسعى إليه، ولكن كيف يَسْعى وقد جهد وضعف. وهو غصن حائر، كرجل غريب، ناء شريد، قذفت به الغُربْة إلى أرض الجحود، ضل فى جنباتها فصار فيها سجينًا فى قُيود، يغدو فيها ويروح تمزّقه أنياب الخمود، وهو غصن إذا لفَّه الليل الركود، استحث الفجر لِيُلقى سُدْفَة الليل البهيم، فطلعت الشمس ولكن الأحزان لا تبرح ولا تريم. وهو غصن فارقته الطير، تنأى بنفسها عن هذا الموات، وتسكب ألحانها فى نَوْر الزهور، ألحانًا كوقع الغيث على سَرارة الرياض، فترجّعها ضحكات الحياة والشباب فتضيع فى صَخبها المَرِح أنّاتُ ذلك الغصن الحسير.

هكذا وصف الأستاذ شاكر نفسه فى الأقسام الستة الأولى، وما يعانيه من هذ الحب الذى توهّم أنه انفكّ طليقًا من قيوده، ولكن خاب فأله، كما ذكر فى شعره، فإنه عاش يعانى مرارة الحرمان، والوحشة والانفراد، عَبْدا فى أَسْر هذه «العزيزة»، أو كما قال:

قَذَفَتْنِى هِمَّةُ الأحرارِ فى ذُلِّ العبيد

أما فى القسم السابع والأخير فهو يقارن بين حاله وما آل إليه وبين حال هذه «العزيزة» وما أصبحت فيه، فهو غصن عار، ليس عليه أو فيه شيء، أما هى فأغصانها «فى بُرْد جديد» ألقتْ ما كان عليها وتخلّت، وقطعت ما بينها وبين الماضى، فهى تعبّ من سكَر الحياة ومن نشوة الشباب، فتأوّد عودُها، وضحك ماء الشباب فى نُور خُدودها. ويختتم الأستاذ هذا القسم بقوله:

فإذا النَّشْوَةَ هَزَّتْك بأنفاسى ... فَمِيدى

وإذا غَنَّاكِ ساقِى الطيرِ لَحْنِى أو قصيدى

فاذكرِى قلبى... فقد يَنْضَرُ مِن ذِكْراكِ عُودِى

وهى أبيات تفيض ألمًا وحسرة، وشكاة من هذه القسوة التى لا تبالى بما خلَّفت من دمار، بل والتى تستمتع بما فعلت به

أفعالها، يُسْكِرها ما تراه من عذابه فى حبها فتميد نشوة وطربا وخيلاء وسرورا.

وفى نفس السنة أيضًا ١٩٤٠ نشر الأستاذ شاكر قصيدة بعنوان «تحت الليل» مطلعها:

أَهِيمُ وقلبى هائمٌ وحُشاشتى
تَهِيمُ فهل يَبْقَى الشَّقِىُّ المُبَعْثَرُ

فانظر إلى هذا الهيام: هيام نفسه وهيام قلبه وهيامه داخله أجمع، فأين المَفَرُّ، كَلاَّ لا وَزَر، وليس ثمَّت مستقَرّ، فهو ضالّ فى فيافى هذه الدنيا الختول، فلا هى تُقْلِع عن صروفها، ولا هو يستكين لِما تأتى به، تزيد النارَ فى دمه استعارا، اجتمع عليه ظلم «العزيزة» وجَوْر الحياة، وزادا من عذابه بهذه الأضاليل من سِحرهما وفتنتهما آنًا، فهَوَى إليهما مُستهاما مُسَحرًا. وإذا كانت نَفْسُه النَّفور قد ردَّته عن هذه الدنيا بخيرها وشرها، فإن قلبه مثَّل له الحبيبة بكل مكان، فرضاها عنه بَرْد وسلام، وطيف خيالها يستلّ من ليله الهموم، ويضىء جَنَبات ليله المُدْلَهِمّ. وما منعتْه يَقْظى ضنَّت به فى النوم إلا قليلاً، فلم يكن بقاءُ زَوْرها إلا «بقاء ربيع الزهرْ أو هو أَقْصَرُ» سَرَت فى دمٍ يَغْلِى، تسمع له فى الليل صليلاً من اندفاقه:

فـهل تَرْحَمُ الأيـام، أو تَهْـدَأَ المُنَى؟

أَبَى حُـبُّـهـا إلا شـقـاءً يُدَمِّـرُ

فختـم القصـيدة كـما بدأ، بقـسوة الأيام، وشـقْوة الروح بسـراب الأمانى فـلا شىء إلا الشقـاء والدَّمـار لهذا «الشَّـقِىّ المُبَعْثَر».

وفى نفس العـام ١٩٤٠ نشر قـصيـدة بعنوان «الربيع»، لم يدرج فيـها مَدارج الشـعراء فى صفـة هذا الفصل من فـصول السنة كما تجد فـى ميمية البحتـرى وهمزية صفىّ الدين الحِلِّى وغيرهمـا من مئات الشعـراء على مر العصور. لـم يَرَ فيه إلا مباهج الحب الذى حُرِم منه، فافتتح القسم الأول بقوله:

أَيَّامُـه كـالغِـيـد، نَـضَّـرَها

تَرَفُ الصِّـبـا وغَـضـارةُ الحُبِّ

زُهْرٌ نـواعِمُ، فى نَـضـارتـهـا

سِـحْـرُ الحيـاة وفِـتْنَة الـقَلْبِ

فلم يذكر من الربيع إلا أيامـه، ثم جعلها فى لمحة خـاطفة كالغيـد الحسان الزُّهر النَّواعم، تبـعث بنَضْرتها سحْـر الحياة، وينساب عبَيرُها بريّا الحُبِّ، وتسبى بدلالها أصحاب الصَّبْوَة، فتُذْكى غرام الهائم، وتُدْنى منه خيـال الحبيب، فتُرِيح أشواقا، وتروى أظماء. هذا هو الربيع الذى يراه، ولكنه:

هـذا ربيـعُ النـاس واحَــــزَنـى!

وربيـــعـىَ الأشــواكُ فى قَلْبِى

هكذا بدأ القسم الثـانى من القصيدة، مُصـوِّرًا ربيعه المملوء بالأشـواك لا بالـزهر والورود، وهى ليـست أشـواكًـا على غـصونهـا، ولكنها مـغروزة فى قلبـه، افتـقد مـرح الشبـاب وغضارة الصِّبا، وناء بأحماله من ركام الخطوب، فهـو كشيخ همٍّ فى ربيع مُقْـفِر جَدْب. هذا الربيع الذى ابتـعث الحب دمًا فَوارًا من ينبـوع قلوب أقرانه، فسـعدوا ونعمـوا به وقَرُّوا، لم يُفِضْ عليه من نوره وجـماله إلا الشك والحيرة والفـزع فأماته وإن ظل يَسْعَى على قدمـيْه بين الأحياء. ثم يصـمت الأستاذ شاكـر ثلاث سنوات بتمامـها، ينشر بعـدها فى ٣١ مايو سنة ١٩٤٣ قصيدة بعنوان «تحت الأنقاض»، وفى السنة نفسها نشر قصيدة فريدة بعنوان «الشجرة: نـاسكة الصحراء» وسأفرد لهما حديثًـا، بعد أن ننتهى من النظر فى آخـر قصيدة حُبٍّ نظمـها وهى «لا تعـودى». وكمـا قلتُ قـبلُ لم أستطع تحـديد زمن كتابتها، فلم تنشر إلا بعد وفاته رحمه الله، كما مرَّ فى المقدمة ولكنى رجحت - ولا أزال إلى هذا الرأى أميل - إنها آخر ما نظمه عن هذه «العزيزة» فى أواخر الأربعينات.

تتكون قصـيدة «لا تعودى» من خـمسة وعـشرين قسـمًا،

ويتألف كل قسم من أربعة أبيات، ويختلف رَوِيّها من قسم إلى آخر، ولكنها جميعًا تُختَم بنفس البيت مع اختلاف يسير فى الكلمة الأولى منه. وإليك أول قسم فى القصيدة:

لا تَعُودِى .. أَحْرَق الشكُّ وُجُودى .. لا تَعُودِى

اذهبى ما شئتِ .. أنَّى شئتِ فى دنيا الخلود

واتْرُكى النارَ التى أَوْقَدْتِهِا تَقْضِمُ عُودِى

هى بَرْدٌ وسلامٌ يَتَلَظَّى فى بُرودِى

فاسعدى فى شِقْوَة الرُّوح .. ولكنْ .. لا تَعُودِى

ذكرتُ أن أول شعر عبّر فيه الأستاذ شاكر من تجربته تعبيراً مكتمًا هو «نفثة قديمة» فى يناير سنة ١٩٣٦، ثم باح به فى غير تكتُّم فى أول قصيدة من ديوان البغضاء، وهى انتظرى بُغْضِى فى يونيو ١٩٣٦ ورأينا فى كل قصائده التى عرضنا لها هذا الصراع بين وقوعه فى أَسْر حُبّ هذه المرأة، ومحاولته اليائسة فى التخلُّص من شِباك هذه الحبالة، ولكن لا مَناص، قذفت به همَّة الأحرار فى ذُل العبيد. وبعد قرابة أربعة عشر عامًا ما زال قلبه يتمزَّع، يحرقه الشكّ، وتتلظى النار فى عروقه. ويقابل الأستاذ شاكر فى هذه القصيدة أكثر من غيرها بين المتضادين، ليُبرز حيرته وعذابه. أأريت إلى هذا البَرْد

والسـلام اللذين يتلظيـان فى جسـده، أأريت إلى سعـادة هذه الحـبيـبة فى شِـقْوَة الروح، أأريت إلى هذه الأقـدار التى تأتى بيـقين خـائن فى أثْر شك، وإلى هذه الحبـيبـة التى هى شك مجسّم فى إثْر يقين من هذا المخدوع، وحيرته بين ذاك وذاك:

وأنا سائِلكُ الحيرانُ عنهنَّ وعنكِ

هذا اللظى هو زاده، فهل ينفعه «زاد مُـميت»؟ إذا مَرَّ بهذا اللظى رَوْح من وَجْده أيحـييه أم يُمـيته؟ هذا المحب المستـهام كالنار تغشّـاها رماد، لا يدرى ما الذى يحييـه، أحديث منها؟ أم صمتهـا المُعاد؟ أهجرها مع قربها أم بعادها وقطيـعتها؟ أهو حىٌّ حقّـا أم ما حوله من جَمـاد؟ دبّ الشوق إليهـا فى رُفاته ففجّـر أغمض ما أخفى فى جوف صَـفاته، فناجاها يحن إلي جمالها وسحرها، ويشكو إليها ألمه وحرمانه، فإذا نجواه وَرْد، أما شكاته فأشواك. كل ما يُخـيِّله إليه قلبُه عنها من الأوهام، فإنما هى حَقٌّ فى يقينه، وما خاله من الوَجْد والصَّبْوة والآمال، فإنما ذلك نَبْع من ظنونه. وتبلغ به الحيرة مَداها، فيقول:

أنتِ إيمانىَ . . بل كُفْرِىَ . . بل أنتِ جُنُونى

أنتِ . . لا أنتِ . .

وإذا بلغ الأمر بالإنسـان أن لا يفرِّق بين الكفـر والإيمان،

فذلك غاية التمزُّق والاضطراب، والحيرة والضياع ثم انظر إلى قوله «أنت لا أنت . . »، فقال «أنتِ» ثم سكت، وجعل النقط علامة الوقف والسَكوت، وهَمّ أن يصفها بشيء، ثم أقْلَع وقال «لا أنت. . » وكأنه همّ أن يصفها بـغير ما أراد قبل، ثم سكت مرة أخرى إنه لا يدرى كيف يقول:

أَيْنَ؟ . . لا أَيْنَ! . . ضَلالٌ . . بل خِداعٌ . . بل هُلُوعُ

فحـيرته فى أمـرها عَجَبٌ، ،حـيرته فى اصطـباره وطول انتظاره عجب عُجاب، هى حيرة الذَّرّ بمجهول القفار، نملة من صغار النِّمـال فى متاهات الصحارى، حـرّقتها وَقْدَةُ الهـجير، تبُثّ همومهـا لليل البهيم، فلا الماء يرويها من حَـمَّارة القيظ، ولا الموت يواريهـا مما تقـاسيـه. وهذه الحـيـرة ولّدها الشك والارتياب، رَمَتا به فى عزلة ليس له فيها صحاب، سوى صُمّ الأفاعى والضـوارى، تنهش الأولى فى روحـه وتمزق الأخرى منه الإهاب، فتفيض أشـواقه دماء . . آه من ذلك الشك الذى حبّبً إليه إيمان بغيض، إيمان بخداعها ومخاتلتها.

وكـمـا «أنس» بالعـزلة، «أنس» بالليل، والليل اكـتـئـاب وارتياع، وظلمات صَمْت لا ينفذ فيها شعاع، و:

حَسْرَةٌ تُطْوَى على أخرى . . وهَمٌّ وضَياعُ

وهذا النجم هل له أن يسطع فيبدد هذه الظلمات ويَهْدِى هذا الحيران فى مَوَامِى حياة ضاعت فيها مناه:

اهْدِنى . . أو لا . . لقد ضِعْتُ . . فغبْ يا نَجْمُ إنِّى
لا أبالى . .

ولكنه هو والنجم سواء، فساعاته الحلوة التى يقضيها فى الذكرى يهجم عليها الواقع المرير فتعقبها ساعات وساعات من الألم والحسرة، والضياع والحيرة، كالنجم يسطع ينير السماء، ويبدّد الظلام، ويؤنس وحشة السارى، ثم يغشاه بياض النهار فيخبو، ما أشد هذا البيان اقتدارا، فهذا «الواقع المرير» لا شك فيه، ساطع سطوع النهار إذا ارتفع:

هكذا السَّعْدُ . . إذا ما لامَه نَحْسٌ مُتاحُ

وهذه الذكرى لم لا تهلك كما هلك الماضى الذى ابتعثته؟ إذا انقضت ساعاتها انقضت كأنها لم تكن، كانسياب الحيَّات فى كهوف الزمن، فأرته نشوة القلب قد مازجها سُمّ الفتَن، سُمّ هذا الماضى الذى لم تُجْدِ فيه الرُّقَى.

آن أن تذهب هذه «العزيزة» وذكراها إلى غير رجعة:

واذكُرا أنى على حَرْبكما لستُ بباقِ
ذكِّريها، واذهبى إن شئت . . لكن . . لا تَعُودِى

ويعقب هذين البيتين القسمُ الثانى والعشرون، وهو نفس القسم الأول، كرره مرة أخرى، فانتهى كما بدأ بعزم عنيد على أن يقطع ما بينه وبينها كما صرمت هى حباله. وقد أتاح للأستاذ شاكر الشكلُ الذى اتخذه للقصيدة على إبراز هذه العزيمة وتأكيدها، فكل قسم كما قلت ينتهى بنفس البيت مع اختلاف يسير فى كلمته الأولى يمليه ما عالجه فيه ولا يفوتك مغزى كلمة «لا تعودى» الذى بدأ بها المطلع ثم ختمها به.

لا تعودى . . أَحْرَقَ الشكُّ وجُودى . . لا تعودِى

وارجع إلى القسم الأول الذى استشهدتُ به هنا، فستجد - بعد بيت المطلع - البيتَ الثانى مستهِلًا بقوله «اذهبى. .»، ذهابًا لا رجعة فيه، فهذه النار التى تأكل قلبه قادرة على أن تأتى على حبها وما بقى من ذكراها:

فأنا النار . . وكالنار ارتيابى واشتعالى

لا أبالى. . فاذهبى إن شئتِ. .لكن . . لا تعودى

وقد وفى الأستاذ شاكر بما وعد، فلم يذكرها بعد ذلك فى شعر أبدا.

أرجو أن أكون قد وضَّحت هذه التجربة الذى مر بها الأستاذ شاكر، وإن صح ما ذكرته - وهو صحيح إن شاء الله - فإننا نكون بإزاء شعور صادق، نابع من آلام حقيقية، وليست مستمدة من وَهْم الخيال. وأنا أزعم أنك لن تجد شاعرًا

فى الأدب المصرى الحديث فى هذه الفترة التى نظم فيها الأستاذ شاكر أشعاره عنى ما قال، ولم يكن شعره هروبًا من واقعه الاجتماعى أو السياسى كسائر شعراء عصره، خاصة جماعة المهجر، وجماعة أبولّلو باستثناء إبراهيم ناجى وحسن كامل الصيرفى، حتى شعر سيد قطب الذى يقول عنه صديقنا الناقد الشاعر القدير الدكتور أبو همام فى كتابه النفيس «شعراء ما بعد الديوان» إن صاحبه «عاشق حتى النخاع» لا يرقى شعره إلى مُرْتَقَى شعر الأستاذ شاكر فى صدق تجربته، وحرارة عواطفه، وصراعه اليائس عبر سنين عديدة فى التخلص من شباك هذا الحب الذى ملأ حياته شكا وعذابًا وحيرة وألمًا. ولكنه عذاب رجل قوىّ النفس، شَهْم مُدلّ، يبكى ويتألم لأنه بَشَر، ولكنه لا ينهار رقة وتطرية، بل هو ثائر على نفسه لوقوعه فى شىء لا يستطيع منه خلاصًا، حتى فى هذه القصيدة الأخيرة - التى لم يتمنَّ فيها على الإطلاق أن ترقّ له هذه الحبيبة، بل جاهرها بعزمه عزيمة حَذاء على طرحها من حياته طَرْحا - لا يملك إلا أن يقول:

أنا فى الرِّقّ أعانى ثورة الحُرّ العَنيدِ

أتحدّاك .. ولكنى ذليل فى قيودِى

******

(٦)

ذكرت من قبل «أنّ الذى زلـزل كيان الأستاذ شـاكر حادثان جليلان، أولهـما: فسـاد حياة أُمّتـه من كل وجه، وثانيهـما: ابتـلاؤه بخيـانة من أحب، وامـتزج هذان الحـادثان فى نفسـه وسريا فى دمه وفى أنفاسه واستقرا فى غور عظامه».

وقد بدأت بالحادث الثانى وفصّلت الكلام فيه فى الصفحات السابقة لأن أكثر شعره تعلّق به سواء الذى وَسَمَه بـ «من ديوان البغضاء» أو الذى لم يَسِمْه وجرَّت دارساتُ هذا الحادث ذيولها على وجه حـياته، فأصـبح يشك فى كل شىء ويرتاب من لا شىء، وأصبح شاردًا أبـدًا يستأنس بالوحدة والوحـشة، وينفر من الأنيس، يقول فى قصيدة «رماد» التى نظمها سنة ١٩٣٥:

أرتَابُ حَـتَّـى أرَانى ... فى حَـيْـرةٍ وظَلَامِ
فى مَـهْـمَـهٍ مِنْ شكُوكٍ ... قَـفْـرٍ من الأَعْـلامِ
لا أهتـدى لِـنَجـاةٍ ... فى أُفْـقِـهِ المُتَـرَامى
اسْـوَدَّ لَيْلى، وَصُبْـحِى ... مُلَـفَّفٌ فى قَـتَـامِ
فـلا أرى من دَلـيلٍ ... يَهْـدى خُطَى أقْـدامى
صَحِبتُ نَفْـسِى، ونَفْسِى ... من صُحْبَـتى فى ضِرامِ
كـأنَّـنا فـى زِحَـامٍ ... يَرمـى بنا فـى زِحَـامِ
مُـجَـرَّحَـيْنِ كُـلُـومًا ... مِنْ صَـدْمَـةٍ ولِـطامِ

وأمـا الحادث الأول، فـما هو بحـادث فقط، ولكنه أيضًـا استـجابة الفنان ورؤيته له. وقـد نقلتُ فى صدر هذه المقـدمة شيئًا من كلام الأستاذ شاكـر عن إحساسه بفساد المناهج الأدبية والاجتماعية والسياسيـة الدينية التى كانت تطغى يومئذ كالسيل الجارف، يهدم السدود ويقوض كل قائم فى نفسه وفى فطرته، فطوى نفـسه على عـزيمة حـذَّاء أنْ يبدأ رحلة طويلـة جدًا، وشاقة جدًا، منفـردًا وحيدًا، يكشف عن تدليس المدلسين من أبناء أمّتـه، ومكْرِ المستعـمر وخُبْثِ جـبِلَّته، ويغمـر بنور بيانه شعبًا هَمَّ أن يُفيقَ من غَـفْوَته، ولكن هذا النضال نال منه بقدر ما أنـاله، فآب منه مكلَّمـا مجـروحًا، يائسًـا حزينًـا، شقـيًّا محرومًـا، سلبته خيانةُ الحـبيبة دفء الحيـاة، ولذات الشباب، وسكرات الصبا، ونقصته الحـياة نصيبه الموفور مما مَنَّت به على كل ناقص محقور، يقول فى قصيدة «حيرة»:

أفى وَهَج الشَّبَـابِ أعـــودُ هــمّا
يذودُ بضـعـــفـه النُّوَبَ الصِّـعَـابا
وأَطرقُ للـحـــوادثِ مُــسْــتكـينًا
كـجـــانى الشَّــرِّ يـنتظرُ العِـقَــابا!
وأصـــبحُ فى يدِ الدنـيـا أســيــرًا
إذا رَامَ الفِـكاكَ وَهَـى وخَــــابا!

جـــزاكِ الله من دنْـيَـــا خَـــتُـــولِ

غَـــذَوْتِ القَلْبَ شَـكّا وارتيـــابا!

وإذا كان الأستاذ شاكر قد أبان فى قصائد «الحُبّ» وَقْع ذلك فى نفسه فـإنه فى القصائد الأخرى - مـثل «اعصفى يا رياح» التى سـبق الحديث عنهـا و«من تحت الأنقـاض» و«الشجـرة: ناسكة الصـحراء»، بل وفى قـصيدته «وعـد» التى نظمـها فى كلب كان يملكه المرحوم مـحمود حسن إسماعـيل - قد استل سيـفه هاويًا به على الفسـاد الذى استشرى فى جـميع نواحى الحياة فى عـصره التى هدمت بنيانه بقدر ما هدمـها، وهذا ما يميـز هذه القصائد الأربع، فـهى وإن نضحت بنفـحات الألم المحرق، فقد كالت الصاع صاعين لأناس يفُوقهم كلبٌ مهزول ساغِب ظامئ العينين واسم هذا الكلب «وعد»، لا أدرى على وجه التحقـيق أسمَّاه الأستاذ شاكر ذلـك، أم جعله له الأستاذ محمود حسن إسماعيل، وأيًّا كان الأمر، فالاسم مُوحٍ، يتعلق بشىء فى ضمير الغيب يكون أو لا يكون، يعبر عن قلق مالك الكلب. وكذلك كـان الأستاذ محـمود حسن إسماعـيل رجلاً قلقًا متـوفِّزا لا يستقر لـه قرار، وقد أحسن الأستـاذ شاكر كل الإحسان فـى تصويره فى القسم الأول من القصـيدة، والذين عرفـوا الأستاذ محـمود حسن إسمـاعيل عن قرب سيـجدون

صورته بكل ظلالها فى هذه القصيدة لا ينقص منها شىء، وهى حريّة بدراسة مستقلة، ولا عجب أن وصفه الأستاذ شاكر مادِحا فأحسن وأجاد، فإعجاب الأستاذ شاكر بالشاعر إعجاب قديم، ألمح إليه دون ذكر صريح فى مقال بعنوان «منهجى فى هذا الباب[١]، فقال «أما الشعر والشعراء وما يلوذ بهما، فأنا حين أُغْمِض عينى لأجمع علىّ خيالى ورأيى وفكرى، أنتهى إلى مثل الغيبوبة من الحسرة واللهفة والألم. فقد فرغ الشعر من بيانه ومعارضه وصاريته الفاتنة، ووقع إلينا أوزانًا تتخلَّج بما تحمل تخلُّج المجنون فى الأرض الوَحِلة، وما أظنه يعتصم فى هذه الأيام بشاعرين أو ثلاثة ولكل منهم مذهب. وكلٌّ قد قذفت به الحياة فى مهنتها وابتذالها حتى صار أكثر فراغه مُسْتَهْلَكًا على صناعة أو وظيفة تطعمه العيش وتحرمه لذّته. ومع ذلك فهم يقولون ويتكلمون والسامعون ينصرفون عنهم لسوء رأيهم فى الشعر الحاضر أوّلًا، ثم لكثرة ما يسمعون من كلام لا يحرِّك عاطفة لأنه لا يصدر عن عاطفة، وما زال يتوالى عليهم، حتى إنهم لا يكادون يعرفون الشعر إلا هكذا ثقيلاً غثّا باردًا، فكيف لا ينصرفون عنه، ومن الذى يرضى أن يحمل نَفْسه إلى «ثلاجة» وهو يُعَدّ فى العقلاء فكذلك ضاع شعر هؤلاء الثلاثة فى غثاثة الكثرة».

---

(١) مجلة الرسالة، السنة الثامنة، ١٩٤٠، ص: ٢٤ - ٢٦.

وبعد ثمانى سنوات[١] عاد الأستاذ شاكر مرة أخرى إلى ذكر هؤلاء الشعراء الثلاثة، فقال «إن أكثر شعر العصر العربى الحاضر قد انحطّ وضعف وسقط، لأن أكثر الشعراء قد بلغ منهم العيب مبلغًا أفسد كل ما يعتدّ به من آثار الشاعرية . . . ولكن بقى لشاعرين أو ثلاثة ما يمكن أن يلحقهم بأهل المرتبة الأولى من الشعراء العبقريين». ثم أفرد الكلام عن شاعر واحد فقط وهو الأستاذ محمود حسن إسماعيل، فقال «وأحد هؤلاء الشعراء الذين سيدفعون أنفسهم فى مجاز العربية حتى يبلغوا المرتبة الأولى - فيما نتوهّم - هو محمود حسن إسماعيل، فهو إنسان مرهف الحسّ، مشاعره رقيقة، متوهّج النفس، سريع التلقى للمعانى التى يصوّرها له إحساسه، وإن إحساسه لينشئ له من هذه الصور والمعانى أكثر مما يستطيع أن يطيق صبره، وهو إذ فقد الصبرَ على مطاولة هذه المعانى من إحساسه، تراه يثب وثبًا من أوّل المعنى إلى آخره لا يترفّق، كأن فى إحساسه روح قنبلة»[٢]. ثم حلل الأستاذ شاكر قصيدته المعروفة فى زلزال الأناضول ووصفها بأنها «قصيدة فذّة».

(١) الرسالة، السنة الثامنة، ١٩٤٨، ص: ٣٤٤.

(٢) اهتدم الدكتور محمد مندور هذا الرأي، فقال عن محمود حسن إسماعيل «إنه شاعر وحشىّ الطاقة الشعرية عنيفها ولكنه فيما يبدو غير مالك لزمام نفسه ولا مسيطر عليها». وشتّان بين القولين فى النظر والبيان. انظر «محاضرات فى الشعر المصرى بعد شوقى»، الحلقة الثالثة، ص: ١٠٠، نشر جامعة الدول العربية، القاهرة ١٩٥٨.

والأستاذ شاكر معجب أيضًا بمحمود حسن إسماعيل الإنسان. وقد قابلته مرارًا في بيت الأستاذ شاكر منذ سنة ١٩٥٩ إلى أن توفى رحمه الله، أعنى الأستاذ محمود حسن إسماعيل. وكان الأستاذ شاكر يثنى عليه شاعرًا ورجلاً، ويحمد له مواقفه من الحياة والناس[(١)]. وجد شيئًا منه ينسرب فى نفسه فنظم فيه وفى كلبه هذه القصيدة الفاخرة، رأى فيه صورة نفسه شاعرًا عبقريًا «قذفت به الحياة فى مهنتها وابتذالها حتى صار أكثر فراغه مُستَهْلكا على صناعة أو وظيفة تطعمه العيش وتحرمه لذَّته». تطعمه العيش ولكنها تكدّره وتحرمه لذة هذا العيش بما ترميه به من أشباه الرجال، وثلَّة المتسلِّقين،

---

(١) كان الأستاذ شاكر رحمه الله يَعُدّ شعر محمود حسن إسماعيل فى بعض رجالات الدولة والملك فاروق سَقْطَةً، أقال الشاعرُ منها نفسَه، وقام من هذه العثرة إلى جَدَد الطريق. أقول: وما هو بِبِدْع فى هذا. وهذا ابنُ هَرْمَة يقرع السِّنَّ نَدَمًا على مدحه أمير المدينة:

فإن أكُ قد هَفَوْتُ إلى أمير
فَعَنْ غير التَّطَوع والسَّماحِ
ولكنْ سقطةٌ كُتبت علينا
وبَعْضُ القول يذهبُ بالرياحِ

وقد تلفَّف ما قاله محمود حسن إسماعيل فى الملك فاروق فى أكفان الزمن، لا يأسف عليه أحد، ولا يذكره أحد، وبقى ما نظمه فى مصر والنيل والعروبة نغما عُلْوِيا خالدًا كخلودها جمعاء.

ومكر الماكريــن، وحقد الحـاقدين، مِن أمثـال مَن يقول فـيهم الطغرائى:

تقــدَّمَنى أناسٌ كـان شَــوْطُهمُ

وراء خَطْوِىَ لو أمْشِى على مَهَلِ

واقـرأ الأبيات التـالية جـهدَك يتـراءى لك الأستـاذ شاكـر يتحدث عن نفـسه وعن دنياه الختول، ولا يـفوتنّك أن تتوقف مَليًّا عند قوله «وفيْتَ يـا وَعْدُ» فى البيت الأول والرابع، لترى رَأْى العين، وتَرُوزه بيدك وتتجسَّـسه، وتشمه بأنفك وتتنسَّمه، ترى وتحسّ وتشم سموّ وفاء هذا الحيوان الأعجم على مرذول خيانة الإنسان (الحبيبة؟) التى هوت به إلى درك الحضيض:

وَفَيْتَ يـا وَعْدُ! هذا شَاعِـرٌ ظَلَمَتْ

فـيهِ النَّـوائِبُ ظُلْمًا، وَهْـىَ جُهَّـالُ

فـفـرَّ مُـعْـتَـزِلا أرْضًا وسَـاكِنَهَـا

ولِلـكَرِيمِ عَنِ الآفَـــاتِ تَرْحَــــالُ

آنَسْـــتَـــهُ بِصَــــدِيقٍ لاَ تُدنِّــسُــهُ

خَـلائِقُ اللُّؤْمِ . . تَمْـلِيقٌ وإدْغَـالُ

وَفَيْتَ يا وَعْـدُ! فى دُنْيَا صَـدَاقتُـها

كـمـا تلَفَّعَ بالظَّلْـمـاءِ مـحـتـالُ

وأَهلُهَـا شَـرِهٌ ضَـارٍ، كَـأَنَّ بِهِ

مِنْ شَـهْـوَةِ الفَـتْكِ ذُؤْبانٌ وأَغْـوالُ

وخـائِنٌ يتَـراءَى فـي مُلَمَّـعَـةٍ

بالصِّدْقِ، والصِّدْقُ فى بَيْـدَائه آلُ

وَنَاسِكٌ هَـجَـرَ الدُّنْـيَـا وأنكَـرَها

وخَـوْفُـهُ مِنْ عَـذَابِ اللـهِ إعْـوَالُ

تَرَاهُ يَخْـشع فِي أَسْـمَـالـهِ رَهَبًا

وبَيْنَ جَنبَـيْـه فَـتَّـاكٌ ومُـحْـتَـالُ

وبَاسِمٌ . . بَاسِـمُ العَـيْنَيْنِ مُـؤْتَلِقٌ

كـما تَـرَقْرَقَ فِي الغُـدْرَانِ سَلْسَـالُ

حُلْوُ الحَدِيثِ . .كأن الراحَ ما شَرِبَتْ

أُذْنَاكَ، وَالـوُدَّ أَنْسَـامٌ وأَظْـلالُ

أُفٍّ لِمَـا حَـملتْ أمٌّ ومـا وَضَـعَتْ

غَـدْرٌ، ولُؤْمٌ ، وطُغْـيانٌ، وإسْـلاَلُ

هكذا وصف الأستاذ شاكر محمود حسن إسماعيل، لا بل وصف نفسه وإن أراد بهذا الوصف صديقه، فكلاهما من مَعْدن واحد، ضاقا ذَرْعا بالغدر واللؤم، والطغيان والظلم، فَتَبًّا لهذه الدنيا ولهذا الخَلْق:

تبًّا لها! وللخَلْقِ كلَّما انتعشوا
تفارَسُوا بنُيُوبِ البَغْى أو صالوا

كمْ ظالمٍ عَبَّ كأس الظُّلْم طافحةً
ثم انْثَنَى وهو تيَّاهٌ ومُخْتالُ

وكمْ صديقٍ تَفانَوْا فى مُوَدَّتِهمْ
حتى إذا نَبتتْ أنيابُهم جالوا

فأنشبوا حيث لاقَوْا، لا تروِّعهم
عَمًّا أراغوه أُمَّاتٌ وأطفالُ

تَوالَغُوا فى الدم المسفوح عربدةً
كأنّ ما شربوا صهباءُ جِرْيالُ

ثم انثنوْا وبِهِمْ مِن شِرَّة سَفَهٌ
وكلُّهمْ مَرِحُ العِطْفَيْن ميَّالُ

يرتاح للدْمعِ والأنَّات يَسْمَعُها

طَلْقَ المُحَيَّا إلى أن يَنْعَمَ البالُ

فنفرا من هذه الدنيا واعتزلاها فى غير خضوع لها ولا استكانة، واقرأ الأبيات التالية يخاطب بها الأستاذ وَعْدًا، مُتَعجِّبا من إخلاصه وبقائه مع صاحبه، مع أن هذا الإخلاص قد يُودى به، وتأمَّلْ هل ترى الأستاذ شاكر فى هذه الأبيات؟ أترى إخلاصه لهذه الحبيبة الذى أهلكه وذهب به كل مذهب؟

يا ظامِئَ العيْن من جوع ومن ظمأ

ماذا بَقاؤك؟! والإخلاصُ قَتَّالُ

هذا المُشَعَّثُ ذو الأحلام .. صُحْبته

هَمٌّ، وخَوْفٌ، وحِرْمان، وإقلال[1]

يعيش فى الأرض جُثْمانا وناظِرةً

وروحُه للعَوالى الشُمِّ تَحتالُ

قد نابَذَ الزمَنَ العاتى فَنابَذَهُ

تَصاوُلا .. وكلا القِرْنَيْنِ صَوَّالُ

وعاش فى وَحْدة الرُّهْبان مُعتزِلاً

له رفيقان: آلامٌ وأوْجالُ

(١) كان الأستاذ محمود حسن إسماعيل أشعث شعر الرأس مفرَّقه، كذلك كان الأستاذ شاكر فى شبابه.

همـاهِمٌ، ومُنَى نَـفْس، وتَمْـتَـمَـة

ولَوْعَـةٌ، كــبَنات السُّـحْبِ تَـنْشـالُ

مـا انفكَّ يرْسِل مِـن نَفْس مُـعَـذَّبَة

نارًا تَوَجُّ . . لهـا في الجـوِّ إشْعـالُ

يؤيد ما أقـول هنا أن الأستاذ شـاكر جمع بين نفـسه وبين محمود حسن إسماعيل والتحـما فى نفر واحد، يقول مخاطبًا وَعْدًا:

نظرتَ يا وَعْـــدُ مُـــرتابًا إلى نَفَـــرِ

كـــأنهم من صَـــفـــاء الروح أبدالُ

تحيَّروا فى نواحى الأرض، والتمسوا

واستنفضوها، فَسـالتْ حيثما سالوا

تَهـــاربتْ بين أيديهمْ خـــلائقُـــهـــا

كـمـــا تهــارَبَ تحت الحقّ خـــتَّــالُ

فأشْرَفـوا كالذُّرَى نُبْلاً . . فأنفُـسُهمْ

إذا تَطلَّــعْتَ فى الآفــاق أجـبـــالُ

يا وعـــدُ لا تكُ مُـــرتابًا، فـــإنهمُ

مالوا إليك . . ولولا أنتَ مـا مالوا

هُمُ الصديقُ، وإن جاءوكَ فى زمن
خيرُ الصديقِ به خِبٌّ ودَجَّالُ
فائْنَسْ إليهم، وخَفِّفْ من لواعجهم
فأنت أكرمُ .. والمِفْضالُ مفْضالُ

مما سبق رأينا أن الأستاذ شاكر جعل هذه القصيدة شركة بينه وبين محمود حسن إسماعيل وكلبه وَعْد، راعه وفاء الكلب وإخلاصه لصاحبه رغم قلَّة ما يجود به عليه من قوت، كما ترى فى أول بيتين من القصيدة، فأكبر هذا الولاءَ الذى انعدم بين الناس كما خبره هو فى حياته، ورأى فى محمود حسن إسماعيل شخصَه وصورته فوصفه وهو فى الحقيقة يصف نفسه، فحمل على زمنه وناسه، وما لقياه منهما من جحود،وما اتصفا به من غدر وخيانة، ولؤم ومخاتلة، وبَغْى وطغيان، وغش وتدليس. ولا أعلم أحدا مدحه الأستاذ شاكر فى شعره إلا محمود حسن إسماعيل، وما ذاك إلا لِمَشابه بينهما، كما كان سيف الدولة للمتنبى، فكلاهما عربى أصيل فى زمن أصبح فيه كُلٌّ منهما غريبَ الوجه واليد واللسان، بين زمرة الأعاجم الذين مزقوا دولة الإسلام، وكلاهما دافع عن عروبته وإسلامه فتصدَّى لجمهرة الهمج الهامج الذين غزوا بلاد الإسلام، وكلاهما فوق كلّ ذلك ؟ أشمّ، لا يرتضى الذل ولا الهَضْم.

أرجِّح أن هذه القصيدة نظمها الأستاذ شاكر فى أواخر الخمسينات على الأقل، وبيان ذلك أنه تحدث فى هذه القصيدة عن شاعر استوت ملكته، وملك زِمام اللغة، وطاعت له القريحة، ووصل إلى العبقرية التى توهّم الأستاذ شاكر فى مقاله المكتوب سنة ١٩٤٨- والذى نقلتُ بعضًا منه آنفًا - أنه محققها و«سينتهى بعد قليل من المصابرة والمرابطة لإحساس مشاعره إلى القدرة على متابعة إحساسه وكبحه وتزجيته على هَدْى واحد مؤتلف غير مختلف، وذلك حين يجتاز الشاعرُ السنّ التى هى علّة التوقّد الدائم والاهتزاز المتتابع تتابع البرق فى عَوارِض السحاب. وأما لغته فقد ملك منها ما يكفيه بقدر حاجة بعض إحساسه، فإذا امتدت يده إلى خزائن العربية التى لا تنفد، وتداخل إلى أسرار حروفها بالمدارسة الطويلة، وتآمرت ثلاثتُها على تَسْنية الأبواب له واحدا بعد واحد، حتى يستطيع أن يستوى على سَرارَة المرتبة الأولى للشعر غير مُدافَع».

فإذا كان الأستاذ شاكر قد وصف الشاعر سنة ١٩٤٨ كما رأيت فلا بد أن تكون القصيدة اللامية هذه بعد ذلك بزمن حيث استطاع الشاعر أن يكبح إحساسه ويضبطه وتُسلِّم له اللغة قيادها يصرّفها كيف يشاء. وقد قدّمتها فى الحديث على

«من تحت الأنقاض» المنشورة سنة ١٩٣٤ لأن أولها وجزءاً كبيراً منها عن الأستاذ محمود حسن إسماعيل وكلبه، فتُوهِم أنها خارجة عن ذلك الإطار الذى حدثتك عنه.

أما «من تحت الأنقاض» فعنوانها دال على فَحْواها فلا زال الأستاذ شاكر يرزح تحت أنقاض صرح الحب الذى تقوّض، وتحت بناء المجتمع الذى تهاوى، كلما أزاح منه رُكاما، انهار آخر، كتدافع موج بحر زاخر، يرتفع أَتِيُّه ثم ينقضّ انقضاضا مكتسحًا ما يلقاه، حتى إذا تلاشت قوته، نشأت موجة أخرى أعتى وأشد، زادها الليل البهيم رهبة ووحشيَّة، يقول الأستاذ شاكر فى القسم الأول من هذه القصيدة:

حَسْرَةٌ ولَّت، وأخرى أقْبلتْ
كيف؟ مِن أين؟ .. متى؟ لم أعْلَمِ
مَوجةٌ سوداءُ تَنقضُّ على
مَوْجَة فى بَحْرِ لَيْلٍ مُظْلِمِ
تَتَفانَى وَهْىَ لا تَفْنَى، وكَمْ
ردَّها تيَّارُها كالضَّيْغمِ
صَمَّمتْ، حتى إذا ما التهمتْ
نُورَ أيامِىَ طاشتْ فى دَمِى

فَـــهْىَ أمـــواجُ ظـلامٍ لا تَرَى

لا تُبالى .. لا تَعِى .. لا تَحْـتَمِى

هذه النَّفْس المُجَرَّحـة التى أتتهـا الحسرات تَتْـرا كانت زهرة نضرة ولكن حُرِمت ماء الحياة، أو قُلْ حـرَّمته هى على نفسها فذوت وذبلت فبثت حزنها إلى نجم سـطع فى حياتها، فتملَّت بلألائه، ومـشتْ على هَـدْى أنواره دوامَ الليل، ثم خـبـا هذا النجم مع مَطْلَع الفجر الصادِق فى خِضمّ الحياة.

وفى هذه الأبيات القليلة من القسم الثانى أبان الأستاذ شاكر عن هذه الأنقاض الذى لا يزال يـنوء بثقل ما تراكم منهـا فوق حطام حياته، والتى أبنتُ عنها منذ سطور قليلة، يقول:

زهرةٌ حنَّت، فـبـاحـتْ، فَـذَوتْ

أذْبَلَـتْـهـــا نَفْـحَـــةٌ لم تُكْـتَمِ

شكـت البَـثَّ لنـجْمٍ ســـاطِـعٍ

ثم ظـلَّت فى شُـــعـــاعِ مُلْـهِمِ

ورَمَى النـجمُ شـعـاعـا وسَـنَى

ثم ضــــاع الـنجـمُ بيـن الأنجمِ

وهذا النجم هو رمز للحبيبة بلا شك عندى، فهو نور يبدد

الوحشة ويُؤْنِس النفس، وهو نور يهدى السائر فيه إلى مقصده، ولكنه نور موقوت بزمان معلوم، يبدده الفجر الصادق كما تبدد اليقظة أوهام الحالمين. ثم صرّح الأستاذ شاكر بهذا الوهم فى القسم الثالث من القصيدة، وهو وهم أبرز له الحبيبة عروسًا تختال فى ثيابها وزينتها، ولكن الحقيقة المُرَّة جلّتها فى أُسِّ جوهرها فما هذه الأثواب إلا أكفان حُبِّه، وما زينتها إلا حلْية للمأتم، وما هذه الأغانى فى زفاف العرس إلا ألحان قبر مُعْتِم:

قد جلا الوَهْمُ عَروسًا زُيِّنَتْ
لَبِسَتْ حِلْيَتَها للمأتمِ
إنما أثوابُها أكفانُها
والأغانى لَحْنُ قبْرٍ مُعْتِمِ
نظرةٌ، ثم هوًى، ثم مُنًى
ثم .. وانفَضَّ كأنْ لم تَحْلُمِ

هذان الموقفان اللذان اجتهدت فى بيانهما ما استطعت، موقفه من المجتمع الذى عاش فيه، وموقفه من خيانة المرأة التى أحبها جعلا الأستاذ شاكر ينظر إلى الحياة نظرة متشائمة يائسة، وهى وإن كانت نابعة من تجربته الشخصية، فهى نظرة

نافذة إلى جوهر الحياة فى عمومها منذ دبت على سطح هذه الأرض إلى أن يفنى هذا الزمان، كما رأينا فى قصيدته «اعصفى يا رياح»، وكما ترى فى القسم الأخير من هذه القصيدة، فالحياة الدنيا عبث وباطل الأباطيل، لا يستطيع العقل أن ينفذ إلى سرها وغيبها المكنون، كما يقول فى «اعصفى يا رياح».

وَاغِلٌ يَعْتَدِى. يُسائِلُ عَنْ أَسْرَارِ خَلْقٍ أَجَلَّ مِنْ أَنْ تُثَارا
كَيْفَ غَرَّتْهُ نَفْسُه؟! كيف ظَنَّ الغَيْبَ يُلْقِى لِثَامَهُ والخِمارا
أَمَلٌ بَاطِلٌ. فَلَوْ أسفرَ الغيبُ لأَعْمَى بنورِه الأبصارا

فلا شىء يجنيه العقل من التدبُّر فى سر الحياة إلا الشقاء، والبوْء بالعجز عن فهم كنهها، والتخلص من قيودها التى تَرْبِض به فى الأرض فلا يستطيع الانطلاق للفهم والإدراك، يقول فى «وَعْد»:

فإنما العَقْلُ: إزْراءٌ وتَعْنِيَةٌ
وحَيْرةٌ، وضلالات، وأثقالُ
والغيْبُ غَيْب، فما سرٌ بمنكشِفٍ
والعُمْر والعَيْشُ أَغْلال وأَكْبالُ

وإذا عجز العـقل عن التغلغل فى سر الحيـاة وفهم ناموس الكون، فلن يئوده إدراك ظاهرها إدراك ممارسة وعيان، وعندئذ فلا شىء إلا قـبض الريح، والموت والفناء، يسـتوى فى ذلك مَن استبان له الضلال فاعـتزله، ومَن سَدَر فى الغىّ واشتمله، يفنى كلاهما، ويخلّفان وراءهما حياة تؤول بدورها إلى حَوْمة الفناء. والكون سـاخر لا يبـالى، تمضى دورته على أذلالهـا، ليل يكرّ، ونهـار يفر، ووالدة تَلد، ثم تكون ومـا ولدت إلى زوال. هذه هى الحيـاة، وما هى إلا لمحـة خـاطفـة من هذا الزمـان. وإذا كان ذلك كـذلك فـجاهد مـا اسـتطعت وأضْنِ عقلك فى التدبُّر، أو نم غافلاً، فالمآل واحد:

مـــــا أرى إلا فنـاء أو سُـــــدًى
فــبـصـــيـــر فى ضـــلالٍ أو عَمِ

ولـيــــــــالٍ أظـلـمتْ أنـوارُهـا
ولـيــــــــالٍ نورُهـا لـم يُـظْلِـمِ

وهمـــــا الدهـرُ فـــلا لـيلَ ولا
صَـــبْحَ، بـل والدَةٌ لم تَـعْـــقَمِ

وحـــيـــاةٌ مِن فَـــنـاء فُـــجِّـرت
لفـناءٍ فـى حـــيـــــاة تَرتَـمِى

كلُّـه لَمْحٌ وَمِـيضٍ خـاطفٍ
ثم .. لا شيء .. فـجـاهِدْ أو نَمِ

أما قـصيدته «الشـجرة: ناسكة الصـحراء» فهى من فـاخر الشعر، هى آخر ما نظمه منشوراً سنة ١٩٤٣، وكنت قديمًا قد قرأت قصيـدة جيدة لسيد قطب عنوانها «فـى الصحراء»، قدم لها بقوله «فى ليلة من ليالى الخـريف المقمرة، الراكدة الهواء، المحتبـسة الأنفاس، وفى صحراء جـبل المقطم الموحشة، وبين هذا القَفْـر الأَبيد، كانت تـتراءى نخلات سـاكنات فى وجوم كئيب. ومن بينها نخلتان: إحـداهما طويلة سامقة، والأخرى قصيرة قميئة. بين هاتين النخلتين دار حديث. وكانت همسات ومناجاة». ثم قرأت مـا كتبه عنها أخى الدكتـور عبد اللطيف عبد الحليم فى كتابه «شعراء ما بعد الديوان»، وما كتبه الأستاذ عبد الباقى محمد حسين فى كتابه «سيد قطب: حياته وأدبه». وخلاصة مـا قالاه أن سيد قطب بث همومـه من خلال حوار النخلتين، فهو مثلهما قابع فى صحراء الحياة، ضائق بما فرضته عليه من وحشـة واكتئاب، يتساءل عن سـر هذه الحياة وطلسم الوجود، فـلا يرتدّ إليه غـير صداه، صـدى الوحشة واليـباب والزوال، وقد أبان الدكتور عبد اللطيف، أن كـثيراً من معانيها قد اجتلبه سيد قطب من قصيـدة لتوماس هارى ترجمها العقاد قبل أن ينشر سيد ديوانه.

قصيدة الأستاذ شاكر، كقصيدة سيد قطب، فيها تأمل فى الحياة والوجود، والعدم والفناء، وقصور إدراك الإنسان عن لغز هذا الكون، شأنها فى ذلك شأن بعض قصائده كما وضَّحتُ آنفًا، ولكنك حين تقرأ هذه القصيدة تشعر أن هذه «الشجرة» هى شجرة محمود شاكر، ولا أحد سواه، لأنه أضفى عليها من شعوره، فبينها لنا بغير العين التى كنا ننظر إليها بها. وبالرغم من عبث الوجود فى تصوره، ففيها أيضًا وحدة الوجود، لا فرق بين الإنسان فى هجير الحياة وبين الجماد فى وَقْدَة الصحراء. وكما استوحش الإنسان من الإنس، فعاش فى وحدة آسية، مُنْتَبِذا بنفسه عن الفُجْر والزور والباطل، كذلك وقفت هذه الشجرة شامخة فوق الأرض اليباب فلا عجب أن يستهل الأستاذ القصيدة بهذا التشابه البيّن بينها وبينه كما عرفناه فى حياته الخاصة والعامة:

أيَّتُها الجَرْدَاءُ فى بَلْقَعٍ
قَفْرٍ من النَّابتِ والسَّائِرِ
مُفْرَدَةٌ تَنْأَى بأَحْزَانِها
عَنْ هَجْمَةِ النَّازلِ والزَّائرِ
وعَنْ حَديثِ اللَّهْوِ مِنْ صَاحبٍ
وعَنْ فُضُولِ النَّابِشِ الخَابِرِ

وعَنْ نِزَاعِ العَـيْشِ فِى عِـيشَـةٍ
مَـتَـاعُـها لِلفَاجِـرِ الظَّافِـرِ
وعَنْ سَـوادِ الحِـقْـدِ فِـى بَاطِنٍ
مُـغَـلَّفٍ بِالنُّـورِ فِى الظَّاهِـرِ
.. عَنْ عَـالَـمٍ زُورٍ .. أَباطِيلُهُ
حقٌّ، ولكِـنْ .. فِى يَدِ القَـامِـرِ

وفى القسم الثانى من القصيدة يتعجّب الأستاذ شاكر من هذه الشجرة الشمطاء، فى صحراء مقفرة جرداء، يظلها الموت من كل جانب، فلا غيث يسقيها، ولا ظِل يُكِنّها، وتُلْهبها سِياط القيظ، فتُبِضّ ماء لحائها فييبس جلدها، ولكنها مِثْلُه:

صَـوَّامَـةُ الأيَّامِ مِنْ عِـفَّـةٍ
نَاسِـكَةٌ فِى جِـلْدِها الضَّـامِـرِ
لا تَسْـأَلُ الشَّـمْسَ شُـعَـاعـًا، ولا
تَسْـأَل عَنْ نَوْءِ الحَـيَـا المَـاطِرِ
لا تَطْعَـمُ الماءَ على جُـوعِـهـا
غِـذاؤُها مِنْ رَمْلِـهـا الزاخِـرِ

وَهْوَ غِـــذَاءٌ جَـــائِـعٌ مُلْـهَبٌ

يَلْـتَـهِمُ الأحْـيَـاءَ بالخَـاطِرِ

فكيـفَ سَـالمتِ سُـعَـارَ الفَـلا

يا دَوْحَـةً رَمْلِيَّةَ الحَـافِـرِ

نَاقَـضْتِ أتْـرابَكِ فى نَبْـتَـةٍ

خَـضْراءَ، يـا بنتَ الثَّرَى الـفَاقِـرِ!

ولكن لم العـجب، وفـيم الدهشة؟ فـكلاهما سـواء، هى الشجرة العـجماء، وهو الإنسان الناطق، شـاء قدرها أن تقف وحيـدة غريبـة فى الصحراء القـاحلة، وشاء قَـدَرُه أن يعيش غريبًا وسط قومه وإن أحاطوا به، ولكن كما تحيط الرمال بهذه الشجرة، وهو غذاؤها، وهو «غـذاء جائع مُلهب» يالله! كيف يكون الغذاء الذى يُشْبع هو نفسـه جائع؟ فهذه الرمال التى تُمُدُّ الشجرةَ بالغذاء هى الأخرى جائعة، أحرقتها الشمس فما تغذو الشجـرة إلا لهيبًا، وهؤلاء الـناس يروحون ويجيئـون كذرّات الرمال عـددًا، ولكن لا يرفِدون شـيئًـا سوى الحـقد والحسد والشنآن . . فكيف «سالَمَ» كلاهما هذا «السُّعار»؟:

مـا عَجَـبى منك . . وما دَهْشـتى!

اخـــتلـط الواردُ بـالصـــادرِ

نحن - كــلانا - غُـرْبَـةٌ صُـوِّرَت
تِمــــثـــالَ حَىٍّ ســــاكنٍ حــــائرِ
مُـحتَـدِمُ الأشـواق .. مَـشْبُـوبُهـا
تحت خُـــمـــود الظـاهِرِ الفـــاترِ
تأخــذُنا العَــيْنُ .. ولو غُلْـغِلَت
ذابتْ، وكـانت شَـحْـمَـةَ الصـاهِرِ
نحـنُ - كـــلانا -أمَلٌ مُــــؤْمِنٌ
بحـــقِّـــه فى عـــالمٍ كـــافِـــرِ
أثْبَـتَـنَا الخِـذْلان فى وَحْـــشَـــةٍ
تَطْفَـأُ فـيـهـا جـمـرةُ النـاصِـرِ
نحن - كِـلانا - صَـرْخَـةٌ حُـرَّةٌ
مــــأســـورةٌ فى زَفْــــرةِ الزَّافِــــرِ
وكــــبـــريـاءٌ أُلْبِــــسَـتْ ذِلَّةٌ
وعُــوِّدَتْ إطْـراقَــةَ الصــاغِــرِ
تَخــــتلِـفُ الأيامُ مِـن حَــولْـنا
ونـحن وَقْـفٌ للـرَّدَى الجـــــائـرِ

ويفتتح الأستاذ شاكر القسم الأخير من القصيدة مخاطبًا الشجرة ملقِّبا إياها بـ«أُخْت ذى النُّون». وذو النون لَقَب ليونس بن مَتّى لابتلاع النون - أى الحوت - إياه. ذكره سبحانه فى سورة الأنبياء. أى أنها قديمة قِدَم ذى النُّون، قاست الأهوال من غُربة وجوع وعطش قرونًا متطاولة. فهى أَحْرَى بأن تشعر بآلام مثيلها من عالم الإنس، بآلام رجل مُسْتَوْحش من الناس، نافر النَّفْس، ثائر القلب، تكاد ثورته تحطم أضلاعه من عنفها، تَضِجّ روحُه الأسيرة فى تجاليد بَدَنه، ولكن فى معبد هذه الروح يخفت الألم، ويتناهى الشر، ويسمو الإنسان وقد طهرته الآلام. ومعنى ذلك أن النفس الإنسانية لا تُوجَد باقية أبدًا إلا وهى مُسْتَهْلَكَة، وأن الأشياء الشريفة التى تُهْلِك هى بعينها التى تُحْيِى، وأنه لا معنى للشىء الحَىّ إلا أن يجتمع فيه معنى الأشياء الشريفة، الموت والحياة معًا، وأن استغراق النَّفْس واستهلاكها فى الأحزان النبيلة وتعذيبها بها هو استحياؤها وتنعيمها، وأن العمل المُهْلِك والفكْر المهلك هما العمل الإنسانى الجليل الذى خُلِقَت من أجله الحياة على الأرض. وعلى ذلك لا تكون النفس حَيَّة أبدًا إلا وهى سائرة بالحياة فى مَسْبَعَة من الموت، يتخطَّفها كلُّ شىء حتى الأسباب التى يستوجب بها الحىُّ صفة الحياة.

فهذه كما ترى نظرة أعمق من نـظرة سيد قطب فى قصيدته «الصحراء»، نظرة شاملة إلى الوجود كله. لا تقتصر بالوقوف حَيـرةً أمام سر الحـياة، بل تتراحب إلى الفـناء والعدم فى هذا الوجود، ووحـدته فى آن، كمـا تغور فى أعمـاق الروح التى تطهرها آلام الوجود، فينفذ الأستاذ شاكر بذلك إلى فهم أسرار الشقاء فى الحيـاة، فهذا الشقاء وإن استـهلك الروح فهو أيضًا محييها، فتسعد الروح ويكتنفها الرِّضَى:

إن ضـجـيج الـروح فى أَسْـرِها
مَنْبَـهَـةُ المَأسُـورِ للآسِـرِ
اسـتـمِـعى نجـوايَ فى عُـزْلَةٍ
تخـشع فـيـهـا شَـفْـرَةُ الجـازِرِ
فى مَـعْـبَـد الـروحِ ومـحـرابـهـا
تَسْـجُـدُ هَمْـسًا صَـرْخَـةُ الزاجِـرِ
يَجْـثُـو ضِـرام الشَّـرِّ فى نورِها
ويَزْدَهِى فـى صَـمْـتـهـا الـطاهِرِ
تَسْـمـو الأمـانى بين أرجـائـهـا
قـد طُهِّـرَتْ بالألـم العـاصِـرِ

******

خاتمــة

كنت قد نويت على ألا تزيد المقـدمة على عشرين صـفحة حتى تتّسق وحجم الديوان، ولكن ما إن مـضيْتُ فيهـا حتى تشعّب بى كلام وامتدّ على غير ما كنت أقدّر، وكنت أزمع أن أتكلم عن خـصائص شـعر الأسـتـاذ شاكـر الفنيَّة فى اللغـة والأسلوب، ولكنى حـين طال الكلام عن مـضـمـون شعـره وخرج عن القصد الذى أردت، أمسكتُ، لأنى - هذه المرَّة - قدَّرتُ لرجْلى قـبل الخَطْو موضعهـا، ولو مضيتُ فيـما نويت لملأت مائة صفحة أخرى. وإذا وهـب الله عمرًا وفراغًا فعلت ذلك. وحبسنى أيضًا عمـا أردتُ أنى أرجأت العمل فى تحرير مقـالات الأستـاذ شاكـر أثناء عملى فى ديوانه، فـلم أشأ أن تتأخر المقـالات أكثر مما تأخَّرت، ومن الله العـون، وبه السداد والتوفيق.

لم أنهج فى كتابة المقدمة نَهْجَ ما جرى عليه أكثر الدارسين من تقسيم مـا قاله الشاعر إلى موضوعـات، كالمدح والغزل، والوصف، وما شابه ذلك. لكن اتبـعت منهجه الذى سنَّه فى كتاب المتنـبى، فدرست شعره حسب زمـان نشره. وهو منهج قويم، فهـو مُبين عن تطور ملكة الشاعر الـفنية مع ارتقائه فى

العمـر ومحصوله مـن التجارب. وهو أيضًا مـبين عن نفسـية الشاعر وأطوار حياته مع تعاقُب الأيام والسنين، ومهدت لذلك بصفحـات مختصـرة عن البيئة التى عاش فـيها الأسـتـاذ شاكر شابًا ورجلاً وكهلاً، ولم يكن ذكْـر هذا المهاد من قبيل العرف الذى درج عليـه الدارسـون، لكنه ضرورى لفـهم جـانب من جوانب نفس الأسـتاذ شاكر، وقـد حاولت أن أوضح أن هذا الفساد الذى استشرى فى جـميع نواحى الحياة آنذاك زلزل كيان الأستاذ شاكر وهو لا يزال فى السـابعة عشرة من عمره، وترك فى نفسه جـراحًا وكلومًا تنزّت دما لم يرقـأ أبدا، يعرف ذلك تلامذته ومـريدوه، وقد جاء شعـره تعبيـرًا صادقًا عمـا لاقاه وأحسّ به كما أوضـحْت فيما أرجو، فعـرفناه من شعره على الصـورة التى عرفناه بهـا فى سيـرته، فله أن يقـول كمـا قال البارودى عن نفسه:

فـانْظُرْ لِقَوْلى تَجِـدْ نَفْـسى مُصَـوَّرةً

فى صفـحتيـه، فقـوْلى خَطٌّ تمثالى

ولعل هذا الديوان - وقد جُمع بين دفـتىْ كتاب - أن يأخذ حظه من الدرس الذى غُـمطَ صاحـبه حـقه فى حيـاته، وأن يدخل تاريخ الشعر العربى الحديث من أوسع أبوابه، والعجب كل العجب أن يُهْـمَل هذا الشعرُ حـتى الآن، فإن قلتَ: ربما كان ذلك لأنه كان مـفرقًا فى مجلتى المقتطف والرسـالة، فعزّ

تيسُّره فى أيدى الباحثين، قلتُ: كذلك كان شعر بعض شعراء مدرسة أبوللو الذى عكف عليه الدكتور محمد مندور رحمه الله، وهم لا يدانون الأستاذ شاكر فى شاعرية أو فِكْر. وانظر إلى قصيدته «القوس العذراء» التى نشرت سنة ١٩٥٢، فخلا ما كتبه عنها الدكتور زكى نجيب محمود - رحمه الله - وهو كلام أشبه بالتقريظ والثناء منه بالتحليل والدرس - سنة ١٩٦٥، لم يلتفت إليها أحد إلا بعد ثلاثين سنة من ظهورها حين كتب عنها الدكتور إحسان عباس، أطال الله بقاءه - دراسة قيمة فى الكتاب الذى أهديناه للأستاذ شاكر بمناسبة بلوغه سن السبعين سنة ١٩٨٢. ثم أخذت الدارسون سنَة أخرى سنين عددا فأغمضوا عنها العيون، حتى بعثَها الدكتور أبو موسى من سِنَة الكرى بكتيبه القيم «القوس العذراء وقراءة فى التراث»، ثم كُتب عنها بعد وفاته فى عدد المجلة الذى خصصه الزميل الدكتور عبد القدوس أبو صالح لدراسات عن محمود شاكر.

عسانى بهذا العمل أن أكون قد أدَّيتُ بعض حق الأستاذ محمود شاكر علىّ وعلى جيلى، وأدَّينا حق الأجيال القادمة علينا، نحن الذين لازمناه فى ضراء حياته حين زُجّ به فى السجن مرتين، وفى سرّاء أيامه.

******

أبو فهر
محمود محمد شاكر

اعصفي يا رياح

وقصائد أخرى

« قصائد الديوان »

أعصفي يا رياح من حيثما شئتِ وعفّي الطلول والآثارا
وانسفي يا رياح آية هذا الشبل حتى يحور ليلاً سرارا
وازأري يا رياح في حرم الدهر زئيراً يزلزل الأعمارا
أعصفي وانسفي كأنك شعرت خبباً لا يساور الأقدارا
أعصفي وازأري كأنك غيرى قذفت حقدها شراراً وناراً
أعصفي كالجنون في عقل صبّ هدّه الغيظ عزمه والوقارا
أعصفي كالشكوك في مهجة الأعمى تخاطفن حسّه حيث سارا
أعصفي كالفناء ينتسف الأوكار نسفاً ويصرع الأطيارا
أعصفي كالوفاء صادمه الغدر فأغضى إغضاءةً ، ثم ثارا
أعصفي كالضلال يسخر من هادٍ أذلّ الفقار رغماً ، وحارا
أعصفي كالأسى أفاق من القبر فلم يستطع فراراً ، وفارا
أعصفي وانسفي ، فما أنتِ إلا نغمة تنشئ الخراب اقتدارا
عالم لم يكن ولا أنتِ لولاه غير أشباح نغمها تتبارى

اعصفى يا رياح

كتبت قبل القوس العذراء (المنشورة سنة ١٩٥٢) بزمن

اعصفِى يا رِيَاحُ مِنْ حَيْثُمَا شِئْتِ . . وعَفِّى الطُّلُولَ وَالآثَارا[١]

وَانسِفِى يَارِيَاحُ آيَةَ هذَا اللَّيْلِ حَتَّى يَحُورَ لَيْلًا سِرَارَا[٢]

وَازأرى يا رِيَاحُ فى حَرَمِ الدَّهْرِ زَئِيرًا يُزَلْزِلُ الأَعْمَارَا

اعْصِفِى . . وَانسِفى . . كأنَّكِ سُخِّرتِ خبَالًا يُسَاوِرُ الأقْدَارَا

اعْصِفى . . وازأرى . . كأنَّكِ غَيْرَى قَذَفَتْ حقْدَهَا شرَارًا ونَارَا

اعْصِفِى كَالْجُنُونِ فِى عَقْلِ صَبٍّ هَتَكَ الغَيْظُ عزْمَهُ وَالْوَقَارَا

اعْصِفِى كَالشُّكوكِ فى مُهْجَةِ الأَعْمَى تَخاطَفْنَ حِسَّهُ حَيْثُ سَارَا

اعْصِفِى كَالفَنَاءِ يَنْتَسِفُ الأَوْكَارَ نَسْفًا وَيَصْرَعُ الأَطْيَارَا

اعْصِفِى كَالْوَفَاءِ صَادَمَهُ الْغَدْرُ . . فأغْضَى إغْضَاءَةً، ثُمَّ ثَارَا

اعْصِفِى كَالضَّلالِ يَسْخَرُ مِنْ هَادٍ أذَلَّ الْقِفَارَ عِلْمًا، وَحَارَا

---

(١) تعفى: تمحو وتُزيل.

(٢) يحور: يرجع. السِّرار: الليل الشديد الظلمة، يكون آخر الشهر.

اعْـصِفِى كَـالأَسَى أَفَاقَ مِن الصَّـبْرِ فَلَمْ يَسْـتَطِعْ قَرَارًا، وفَـارَا
اعْصِـفِى وَانْسِفِـى، فَمَا أَنْتَ إِلَّا نِـعْمَةٌ تُـنْشِئُ الخَرَابَ اقْـتِدَارَا
عَـالَمٌ لَمْ يكُنْ وَلا السَّـاكِنُوهُ غَـيْـرَ أَشْـبَـاحِ نِقْمَـةٍ تَتَـبَـارَى!

* * *

اعْصِفِى يَا رِيَاحُ غَضْبَى بِإِعْـصَارٍ مِنَ الْمَقْتِ، جَاحِمًا هَدَّارَا[1]
كَيْفَ أَبْصَرْتِ مَا طَوَيْتِ مِنَ الدُّنْيَـا بِلَيْلٍ، وَمَا اخْتَرَقْتِ نَهَارَا؟!
اشْهَـدِى: هَلْ رَأَيْتِ عَقْـلًا ونُبْلًا، أَمْ جُنُونًا يَؤُمُّ خِـزْيًا وَعَارَا؟
وَخَـفَايَا مِنْ الْخَـبَـائِثِ تَسْعَى، وَحُـقُـودًا من الخَنَى تَـتَمَـارَى
وَأَسَـاطِيـرَ حَيَّـةً أَلْبَـسَـتْـهَـا فَيْنَـةُ الدَّهْرِ ثَوْبَهَـا الْمُـسْتَـعَـارَا
وَأَبَاطِيلَ دَلَّسَـتْـهَـا أَكَـاذِيبُ، فَـأَضْـحَتْ هُدًى وَأَمْـسَتْ مَنَارَا
وَمَطَايَا تَخُـوضُ فى لُجَجِ الظُّلْـمِ برَكْبٍ لا يَسْـأَمُونَ السِّـفَـارَا
وَأَذِلَّاءَ يَشْمَـخُونَ مِنَ الْكِبْرِ وهُمْ فى الْقُـيودِ حَسْـرَى أُسَارَى!
وَدُمًى لَمْ تَزَلْ تَسِيرُ اضْطِرَارًا. . فى غُرُورٍ يَنْفِى الـمَسِيرَ اضْطِرَارَا
وَبَقَـايَا فَـرَائِسٍ لَـمْ تَكَدْ تَنْبِضُ حَـتَّى أَحَـدَّتِ الأَظْـفَـارَا!

---

(١) جاجم النار: توقُدها.

وَدَنَايَا تَخْتَالُ فِى زُخْرُفِ البَطْشِ . . تَخَـال الأَقْدارَ مِنْها غَيَارَى!

فى حَيَـاةٍ مَخْبُولَـةٍ أَسْكَرَتْها شَهَواتٌ تَـبقَى . . وتُفْنى السُّكَارَى

كُلُّ شَىْءٍ مَسَّـتْهُ يَطْغَى . . فَلاَ يَزْهَدُ طَبْـعًا، ولا يَعِفُّ اخْتِـيَارَا

* * *

اذكُـرِى يا رِيَاحُ كَيْفَ تَدَسَّـسْتِ إلى مُضْـمَرِ الطَّوَايَا اقْـتِسَـارَا

كُنْتِ سِرَّ الأَحْيَـاءِ طُرًّا . . فَمَا يَمْلِكُ سِرٌّ عَنْ نَاظِرَيْكِ اسْـتِتَارَا

مُنْذُ جَاشَتْ فِـى حَمْأَةِ الْكَوْنِ آمَـالٌ تُرَجِّى أنْ تَبْلُغَ الأَوْطَارَا[1]

مُذْ تَهَـادَتْ غَرَائبُ الْمُـزْنِ تَخْتَال وَتُهْـدِى الظِّلالَ وَالأَمْطَارَا[2]

مُنْذُ بَاحَتْ بِسِـرِّهَا الزَّهْرَةُ الأولَى فَـأَذْكَتْ فى كُلِّ قَلْبٍ أُوَارَا[3]

مُذُ تَسَامَتْ فى مَسْبَحِ الجَوِّ فَـتْخَاءُ وَدَارَتْ بِلَهْوِهَا حَيْثُ دَارَا[4]

مُنْذُ نَاحَتْ بِشَجْوِهَا ذَاتُ طَوْقٍ، فَاسْتَجَاشَتْ بِنَوْحِهَا الأَسْحَارَا[5]

---

(١) الحماة: الطِّين الأسود.

(٢) المزن: جمع مُزْنَة، وهى السحابة المحملة بالماء.

(٣) الأوار: حَرّ النار.

(٤) الفتخاء: العُقاب اللينة الجناحيْن.

(٥) ذات طوق: الحمامة.

مُنْذُ حَنَّتْ فى ظُلْمَـةِ اللَّيْلِ حَيْـرَى قد أَضَلَّتْ أَتْرابَهـا والدِّيَارَا
مُنْذ أَوْفَى عَلَى البِـقَاعِ أَبُونا الـشَّيْخُ حَـيْرَانَ لا يُطِيقُ اصْطِبَـارَا
مُـذْ أَلَمَّتْ بِأُمِّنَـا نَفْـحَـةُ الأُنْثَى فـأغْـرَتْ بشيـخنا الأَخْطَارَا
مُذْ أَصَاخَتْ لَكِ البَرَايَا خُشُـوعًا. . فَضَّ فِيهمْ حَنِينُكِ الأَسْرَارَا
اذْكُرِى كَيْفَ. . وانْظرى كَيْفَ أَضْحَوْا: أَعِبَادًا رَأَيْتِ أَمْ فُجَّارَا؟!
يَتَـباغَـوْنَ قُدْرةً ليسَ تَفْنَـى، ثم يَفْنَونَ. . عَاجِـزينَ حَيَـارى!

* * *

أنْصِـتِى يا رِيَاحُ، صَرْخَـةُ مَلْهُوفٍ طَعِـينٍ أَفْنَى اللَّيَـالى انتظَارا
هَامَ يَسْـتَنْفِضُ الغُـيوبَ وَحِـيدًا. . دَامِـيـاتٍ جِراحُـه لاَ تُوَارَى
كُلَّمـا ظَنَّ فى دَوَاءٍ شِـفَـاءً، عَادَ دَاءً يُـدْمِى جِرَاحًـا عَـذَارَى
أَفِــرَارًا مِنَ الجِــرَاحِ تُداويهِنَّ؟ كَــلَّا! أَيْقَنْتَ أنْ لاَ فِــرَارا!
سِرْ جَرِيحًا رَثًّا بِآلامِكَ الظَّمأَى، وَسائِل. . إنِ اسْتَطَعْتَ حِوَارَا!
غَرِقَ العَـالِـمُـونَ فى عَـيْلَمِ النُّورِ فَأَطْفَـا جِهَارَهُـمْ والسِّرَارَا[1]
شَـرِقُوا شَـرْقَـةً بما حَـصَّلُوهُ، ذَبَحَتْ عِلْمَـهُم فَـغَارُوا وَغَـارَا

(١) العيلم: البحر، والبئر الواسعة الكثيرة الماء.

أينَ؟ . . لا أينَ! يَا رِيَاحُ أجيبى، مَزِّقِى الحُجْبَ وَانْزِعِى الأَسْتَارَا

مَنْ مُـجِيبٌ إلَّاكِ، كَـاهِـنَةَ الآبَادِ، فى هَيْكَلٍ تَـقَـادَمَ دَارَا؟

شَـادَ عُـبَّادُه المَحَـارِيبَ إيمَـانًا، فَـمَلُّوا، فـأعْـرَضُوا كُـفَّـارَا!

سَكِرُوا، فَانْتَـشَوْا، فَهَبُّـوا يَزُفُّونَ إلى هَيْكَلِ البَقَـاءِ البَوَارَا!![1]

أخُلُودًا وحِكمَـةً، أمْ ظِلالًا وأحَـادِيثَ تُضْـحِـكُ السُّـمَّـارَا؟

مَارِدٌ فى الثَّرَى تُقَلِّصُ عَنْهُ الشَمْسُ، يُمْسِى ثَرًى. . يَطِيرُ غُبَارَا!

* * *

اسْمَـعِى يا رِيَاحُ، مَنْ ذَا يُنَادِيكِ وَقَدْ أرْخَتِ الدَّيَاجِى السِّـتَارَا؟

مُهْـجَةٌ تَسْـتَغِيثُ فِى دَغَلِ الآثَـامِ قد أطْبَقَتْ عَلَيْـهَا شِـفَارَا[2]

قَـدْ رَمَـاهَا الجَـبَّـارُ بالفَـزَعِ الأكْـبَـرِ، بالمَوْجِ طَاغِـيًـا زَخَّـارَا

بلَهِـيبٍ يَنْسَابُ رَهْوًا، إذَا مَـا خَـامَرَ النَّفْسَ أجَّ فِـيهـا سُعَـارَا

فِـتْنَةٌ إثْرَ فِـتْنَةٍ إثْرَ أُخْـرَى، هَدَّمَـتْـهَـا ودَكَّتِ الأسْـوَارَا

كيفَ تَرْجُو النجاةَ فى مَأزِقٍ ضَنْكٍ وَحِيدًا لا تَسْتَطِيعُ انْتِصَارَا؟

---

(١) البوار: الهلاك.

(٢) الدغل: الفساد.

تَبْتَغِى ثَغْـرةً! وكَيفَ؟! وهَلْ يَنْفَعُ شَيْئًـا؟! يَاضَلَّ ذاكِ اغترارًا!
أَنْتِ فى حَـوْزَةِ الأثَامِ تَعِـيشِـينَ، فَذُلاً فـى الرِّقِّ لا استكبَـارَا
اشْرَبى الكأسَ مُـزَّةً لم تُشَعْشَعْ، ثُمَّ إِيَّاكِ أن تَميـدى خُمَارَا[١]
اغْدرِى. نَافقِى. أَضِلِّى. استَبدِّى، خَالطِى الإِثْمَ واحْمِلِى الأَوْزَارَا
أنتِ للبأسِ قد خُلِقْتِ. . فأينَ البأسُ إنْ كنتِ تَفْزعينَ حِذَارا؟!
هكَذا الأرضُ. . فاذهبِى أَوْ أَقيمِى. لَيْسَ يُغْنِى أَنْ تَشْمَئِزِّى ازْورَارَا
سَـيِّدُ الجَـوِّ والجَـوَارِحِ بَازٍ سَـاقَطَ الطَّـيْـرَ دَامِيَـاتٍ وطَارا![٢]

* * *

أَنْصِتِى يَا رِياحُ. . مَا أَبْشَعَ الصَّوْتَ! لَقَدْ سَارَ في القُرُونِ مَسَارَا!
أحَنِينًا. . أَمْ صَرْخَةً، أَمْ أَنِينًا، أَمْ مُكَاءً، أمْ عَوْلةً، أمْ جُؤَارَا؟![٣]
أَمْ تَهاليلَ عَـاكِفينَ عَلَى الأَوْثَانِ عَجُّـوا لَهَا وضَجُّوا اعْـتِذَارَا؟!
أَمْ زُنُوجًا تَوالَغُوا فى الدَّمِ المَسْفُوحِ. . دَفُّوا وهَلَّلُوا استبشارا؟![٤]

(١) المُزة: الخمر التى تلذع اللسان. الخُمار: ما أصاب الرأس من ألم الخمر وصداعها.
(٢) ساقَط الطير: أسْقَطها وتابَع إسقاطها.
(٣) المكاء: الصفير.
(٤) دفّت جوارح الطير: إذا دنت فى طيرانها من الأرض للانقضاض.

أَمْ مُسُــوخًا مِن العَوَاطِف تَعْوِى سَــخَرًا مِنْ رِثَائِها واحْتِــقَارَا؟!

أَمْ كَشِيشَ الشَّحْنَاءِ، هَمَّتْ، وفَحَّتْ، وتَنَزَّى لُعَابُهَا وَاسْتَطَارا؟![1]

أَمْ صَلِيلَ الأَحْـقَـادِ طَاشَتْ عَنِ الكَظْمِ، فَـخَـاضَتْ إلىَ التَّشَفِّى الـغِمَـارا؟!

أَمْ هَزِيمَ اللَّذَّاتِ فِى صَخَبِ النَّشْوَةِ، هَاجَتْ زَفِيرَهَا الفَوَّارَا؟![2]

أَمْ وَغَى السُّخْرِيَاتِ فِى لَغَطِ الآلامِ تَسْتَصْرِخُ الدُّمُوعَ الغِزَارا؟![3]

أَمْ عَوِيلَ المُنَى البَوَالِى عَلَى أَجْـدَاثِ هَمٍّ مَضَى وَأَبْقَى تَبَارَا؟![4]

أَمْ تَسَابِيحَ خَـاشِعِيــنَ من التَّقْوَى أَسَــرُّوا مِنْ خَشْيَــةٍ إِسْرَارَا؟!

أَمْ تَكَاذِيبَ ؟! . . بَل تكَاذِيبُ! هَلْ تُبْصِرُ إِلا الهُدَاةَ والأَبْرَارَا؟!

قَدْ أَرَادُوا أَنْ يَجْـتَنُوا ثَمَرَ الخَيْـرَاتِ حُلْوًا . . فَصَادَفُـوه مُرَارَا!!

* * *

انظُرِى يا رِياحُ . . يَـا وَحْـشَـةَ الطَّرْفِ إِذَا دَارَ يَمْـنَةً أَوْ يَسَــارَا!

مَا الَّذِى تُبْصِرِينَ؟ أَشْبَــاحَ فانين؟! مِرَارًا تُرَى . . وتَخْفَى مِرَارَا!

---

(١) كشّت الأفعى كشـيشا، وهو صوت جِلْدها إذا حكّت بعضهـا ببعض، وفحّت فحيحا، وهو صوتها من فَمِها.

(٢) الهـزيم: الصــوت، وهــو للرَّعْد خاصة.

(٣) الوغى: الصوت، وفى الحرب خاصة.

(٤) التبار: الهلاك.

وُجِدُوا، ثُمَّ أَوْجَدُوا، ثُمَّ بَادُوا. . وَاحْتَذَى نَسْلُهم فَزَادَ انتشَارَا
وَتَمَادَى البَقَاءُ فِيهم دوَالَيْكَ. . فَشَيءٌ بَدَا. . وَشَيءٌ تَوَارَى!
أَوْغَلُوا فِي الحَيَاةِ جِيلًا فَجِيلًا، وتَجَلَّى طَرِيقُهُمْ وَأَنَارَا
فَمَضَوْا يُبْدِعُون فى حَيْثُ حَلُّوا، وَتَبَارَوْا حضَارَةً وَابْتِكَارَا
مَا كَفَاهُمْ مَا بَلَّغُوا، فَاستَطَالوا. . ثُمَّ خَالُوا، فَأَسْرَفُوا إصْرَارَا[1]
شُغِفُوا بالخُلُودِ فِي هذه الدُّنْيَا، فَأَعْطَتْهُمُ الخلودَ المُعَارَا!
عَمَرُوا الأَرْضَ زِينَةً وَمَتَاعًا، ثم نُودُوا: كَفَى. . البدارَ البِدَارَا!![2]
ثُمَّ مَرُّوا. . أشباحَ فَانِينَ، مَا تَمْلِكُ فى حَوْمَةِ الزَّوَالِ قَرَارَا!
لَمْ يَكُنْ غَيْرَ خَطْفَةِ البَرْقِ. . إِذْ تَبْنِى وتُعْلِى، وَلَمْ يَكَدْ. . فَانْهَارَا!
ذَهَبَتْ رِيحُهمْ، وَهَبَّت رِيَاحٌ، فَأَقَامَتْ عَلَى القُبُورِ الدِّيَارَا!
ضَلَّ هذَا الإنسَانُ! يَكْدَحُ للخُلْدِ. . وأَقْصَى الخُلُودِ: كَانَ. . فَصَارا!

* * *

انظُرِى يا رياحُ ذَا القَبَسَ الوَهَّاجَ. . قد رَاوَغَ الفَنَاءَ اقتدَارَا!

(١) خال الرجلُ: أُعجب بنفسه وتباهَى، من الخُيَلاء.

(٢) بادر الشئ مُبادرة وبدارا: أسرَع إليه وعجل.

عَـاشَ تَحْتَ الأَطْبَاقِ دَهْرًا فَـدَهْرًا، يَتَلوَّى بِثِـقْلِهِنَّ انْبِهَـارًا[١]
كُلَّمَـا رَامَ مَنْفَـذًا رَدَّدَتْهُ فِي ظَلاَمِ الأَعْـمَـاقِ يَعْنُـو صَـغَـارَا[٢]
لَمْ يَزَلْ دائبًا . . يُنَقِّبُ مُلْتَـاعًا، ويحتَالُ فِي صَفَاهَا احْـتِفارًا[٣]
صَدَعَ الصَّخْـرَةَ المُلَمْلَمَةَ الكُبْرَى، وأَسْرَى، حَـتَّى نَمَى فَاسْتَطارَا
ورَأَى نُورَه فَـجُنَّ مِنَ الفَـرْحَةِ . . أَعْـمَى رأى الظَّلاَمَ نَهَـارًا!
أيُّ شيءٍ هَذا؟! وَمَا ذَاكَ؟! بل هَذَا؟! . . وزَاغَتْ لِحَاظُهُ استِكْبارًا
قَـدْ رَأى عَالَمًـا مَهُـولاً من المَجْـهُولِ، غَـشَّـاهُ نورُه فاسْـتَنَارَا
لَيْسَ يَدْرِي: أهُمْ عِدًى . . أم صَدِيقٌ؟!!! أَيُبِينُونَ لَوْ أَرَادَ حِوَارا؟
أَمْ صُمُـوتٌ لا يَنْطِقونَ، ازْدِرَاءً لِغَـرِيبٍ عَنْهُمْ أَسَـاءَ الجِوَارَا؟!
وَاغِلٌ يَعْتَـدِى . . يُسَائِلُ عَنْ أَسْرَارِ خَـلْقٍ أَجَلَّ مِنْ أَنْ تُثَارا!![٤]
كَيْفَ غَـرَّتْهُ نَفْسُه؟! كَيْفَ ظَنَّ الـغَيْبَ يُلْقِى لِثَامَهُ والخِـمَارا؟!
أَمَلٌ بَاطِلٌ . . فَـلَوْ أسْـفَـرَ الغَـيْبُ لأَعْـمَـى بِنُورِه الأَنْوَارَا!!

* * *

(١) الأطباق: جمع طَبَق، وطَبَق كل شيء ما ساواه، يعني تراكم الظلمات بعضها فوق بعض.
(٢) يعنو: ذَلّ وصَغُر، ومنه العانى، أى الأسير.
(٣) الصَّفا: جمع صَفاة، وهى الصخرة الصلبة.
(٤) الواغل: الذى يدخل على القوم فى طعامهم وشرابهم من غير أن يدعوه إليه أو يُنفق معهم مثل ما أنفقوا.

وَعْـد (*)

يا وَعْـدُ! مَالَك مَـهزولاً ومُـخْتَـزَلاً

كأنَّ جِلْـدَكَ، يا لَلبُؤْسِ، أسْـمَالُ؟!

الجُوعُ غَـالكَ؟! . . أمْ غَالَتْكَ نَـائِبَةٌ

مِنَ اللَّوَاتى لَهَـا فى الرُّوحِ أغْـوَالُ؟

بنـو أَبِيـكَ لَهُـمْ فى الـدُّورِ مَنْـزِلةٌ

عَطفٌ، وحُبٌّ ، وتَقْرِيبٌ ، وإدْلالُ

وأَنتَ، وَحْـدَكَ، مَنْبُـوذٌ ومُطَّرَحٌ

تَطُوفُ حَـوْلَكَ أشْـبَـاحٌ وأَهْوالُ!

* * *

يا ظَامِئَ العَـيْنِ من جُوعٍ ومن ظَمَـأٍ

ماذا بَقَـاؤُك؟! والإخْلاَصُ قَـتَّالُ!(١)

(*) وعد هو اسم كلب كان يقتنيه الشاعر الكبير محمود حسن إسماعيل.

(١) ظامئ: ضامر، قليل اللحم من الهزال.

هذَا المُشَعَّثُ ذُو الأحْلامِ .. صُحْبَتُه

هَمٌّ ،وخَوْفٌ ،وحِرْمانٌ ، وإقْلالُ[١]

يَعِيشُ فى الأرْضِ جُثْمَانًا وناظِرَةً

ورُوحُهُ للعَوَالي الشُمِّ تَحْتَالُ

قد نَابَذَ الزَّمَنَ العَاتى فنابَذَهُ

تَصَاوُلًا .. وكِلَا القِرْنَيْنِ صَوَّالُ!

وعاشَ فى وَحْدةِ الرُّهْبَانِ مُعْتزِلًا

له رَفِيقَانِ: آلامٌ وأَوْجَالُ

هَمَاهِمٌ، ومُنَى نَفْسٍ، وتَمْتَمَةٌ

ولَوْعةٌ ، كَبَنَاتِ السُّحْبِ تَنْثَالُ[٢]

مَا انفَكَّ يُرْسِلُ مِنْ نَفْسٍ مُعَذَّبَةٍ

نارًا تَوَجُّ .. لها فى الجَوِّ إشْعَالُ

---

(١) المشعث: يعنى محمود حسن إسماعيل رحمه الله، فقد كان دائمًا أشعث الشعر مفرَّقه.

(٢) هَماهِم: أصوات لا تكاد تبين. بنات السحب: أمطارها.

لَهَا نَقِيضٌ[١] ، وترجيعٌ ، وغَمْغَمَةٌ

كـــــأنَّمَا لاقَـتِ الأَبْطَـالَ أَبْطَـالُ

يُثِـيـرُ حَـوْلَـكَ ذُعْـرًا لا يُنَهْنِـهُـه

خَـوْفُ الحـيـاةِ، ولا تَـنْهـاهُ آمـالُ

بَيْنَا تَرَاهُ عَلَـيْهـا سَـاكِنًا .. قَلِقـًا

كَـأَنْ بِهِ رَبَضَتْ فى الأَرضِ أَغْـلالُ

إذا السَّـماءُ قـد انشَـقَّتْ بصَـاعقَـةٍ

رَعْدٌ، وبَرْقٌ، وتَخْطِيفٌ، وإذْهَالُ!!

مــا حِـيـلَةٌ لَكَ إلَّا أن تَنَكـبَّـهَــا

وأَنتَ تُخْلِدُ مَــذْعُـوراً وتَنْهَـالُ![٢]

تَرُدُّ ذَيْلَكَ لِـلخَـيْـشُـومِ تَسْـتُـرُهُ

عَجْـلاَنَ تَرْجُفُ! مَا لِلهَوْلِ إمْـهَالُ!

* * *

---

(١) النقيض: الصوت.

(٢) تنكبها: حذف إحدى التاءين، وتنكّب الأمر: حاد عنه وتجنّبه.

يا رابضًا حَيْثُ لا لَحْمٌ ، ولا حَدَبٌ

وَلا صَـديقٌ ، ولا مَـاءٌ . . ولا آلُ!

رَمَيْتَ نَفْـسَكَ فى مَظْلومَةٍ خَـشَعَتْ

لـمَّـا استَـبَدَّ بهـا بُؤْسٌ وإغْفَـالُ[١]

حَدِيقَـةٌ !! زَعَمَتْ عَـيْنَاكَ نَضْرَتَـها

فـخِلْتَها . . وَهْىَ أَعْوَادٌ وأَجْـذَالُ!

وَيَا لَهَا نَضْـرَةً! مِنْ سِحْرِ سَـاحِرِها

وحَــوْلَهَـا دِمَـنٌ غُـبْـرٌ وأطْلاَلُ!!

مَا بَيْنَ كَـهْفَـيْنِ يَأْوِى فى ظَلامِهِـمَا

شَـيْطَانُ شِـعْـرٍ لَـهُ نَفْثٌ وَبَلْبَـالُ[٢]

يَرْقِى الدَّيَـاجِى فَـتـأْتِـيـه مُلَمْلَـمَـةً

شُعْثاً . .لَهَا فى نَواحِي الكَهْفِ زِلْزَالُ

---

(١) المظلومة: الأرض التى لا يصيبها المطر، يعنى أنها جدباء.

(٢) النفث هنا الشِّعْـر، سُمِّى كذلك لأنه كالشىء ينفُثُـه الإنسان من فيه كـالرُّقْيَة.
البَلْبال: شدة الهم والوساوس.

سُوداً تُكَفِّنُ ضَـوْءَ الشَّمْسِ هَبْـوَتُها

وتَمْـسَـحُ الأَرْضَ أَرْدَانٌ وأَذْيالُ[١]

جِنٌّ تَـرَنَّحُ مِنْ سُـكْرٍ ومِنْ نَـصَبِ

كَأَنَّـهَا فِي ضَمـيرِ الدَّهْـرِ ضُلاَّلُ[٢]

تُخَـافِتُ الصَّوْتَ وَسْـوَاسًا وهَيْنَمَـةً

كـما تُـهَامِسُ مَـرَّ الرِّيحِ أَوْشَـالُ[٣]

حُـمْرُ العُـيـونِ كَأَنَّ النَّـارَ مُشْـعَلَةٌ

لها وَبِيصٌ ، وتَـرْهِيبٌ ، وتَسْآلُ[٤]

كَلا . . ولا، وإذا الأَرْجَاءُ صَاخِبَةٌ:

غَـيْظٌ، وثَأْرٌ ، وإقْـدَامٌ ، وإجْفَـالُ

جَيْـشٌ تَجمَّعَ جَـرَّاراً . . إذا أَخَذَتْ

فـيه الرُّقَى خَـضَعَتْ أُسْـدٌ وأَشْبَـالُ

---

(١) الأردان: جمع رُدْن: مقدَّم كُمّ القميص.

(٢) ترنح: حذف إحدى التاءين. النصب: التعب.

(٣) الأوشال: جمع وَشَل، وهو الماء القليل.

(٤) الوبيص: البريق والتوهّج.

أطَاعَ كُلُّ عَـنِيـدٍ بَعْـدَ مَـأْبِيَـةٍ

وذَلَّ كُلُّ عَـزِيـزٍ كَـانَ يَخْـتَـالُ

ثَمَّتَ .. لا شيَءَ! إلا صَـائدٌ. عَجِلٌ

لَـهُ قَـرِينَـانِ: نَـظَّارٌ وبَـذَّالُ

يَدْعُـو المَعَـانِى فَتَـأْتِى وَهْىَ طَيِّـعَةٌ

مُحَجَّبَـاتٌ .. عَلَيْـها الحُسْنُ سِرْبَالُ

فَـمَـاَ يَزالُ يُنَاجِـيـهَـا، وَيَعْـبُـدُها

كَـأَنَّهُ وَثَنِىٌّ، وَهْـى تِمْـثَـالُ!

* * *

يا وَعْدُ حَسْبُكَ! هذَا سَـاحِرٌ فَطِنٌ

لَهُ على مُـرْسَـلاتِ الرِّيح إفْـضَـالُ

يَعْلُو الشَّـوَامِخَ لَمَّـاحـًا، وَنَظْرَتُه

كَنَظْرَةِ الصَّـقْـرِ: إمْهَـالٌ وإعْجَـالُ

يَنْقَضُّ .. يَفْتَرِسُ الأقْـرانَ مُجْتَرِئـًا

وبَاغِـيًـا، فَـهْىَ أشْـلَاءٌ وأوْصَـالُ

مَـاذَا لَقِيـتَ من الدُّنْيَـا، ومِن رَجُلٍ

لَهُ عَلَيْـكَ تَمِـيـمَـاتٌ وأَقْــفَـالُ؟!

يَظَلُّ مُنْتَـبِـذًا فى الظّلِّ مُـخْـتَـلَجـًا

ولِلْوَسَـاوِسِ من حَـوْلَـيْـهِ تَجْـوَالُ

وَهْمٌ يُقَلِّبُ فى الآفَـاقِ جُـمْـجُمَـةً

لَهَـا وُجُومٌ ، وإيمَـاءٌ ، وإطْلالُ[1]

يَرْمِى الغُـيُوبَ بعَـيْنٍ لَمحُـها ضَـرِمٌ

كـأنَّمـا هِىَ صَـيْـدٌ، وَهْوَ نَبَّـالُ[2]

تَرَاهُ كـالهَامِـدِ المُضْـنَى، ومُهْـجَتُـهُ

رَوْعَاءُ . . نَافِرةُ الأَهْوَاءِ . . مِرْسالُ

جَـيَّـاشَةٌ يَتَـلاقَى مَـوْجُـها لُجَـجًا

كـمــا تَصَــادَمَ بالرِّيَـالِ رِيـبَــالُ

---

(١) الوَهْم: الضخم.

(٢) النبّال: صانع النَّبل، أما الرامى به فهو النابل، ولكن الشعراء جاءوا بكل منهما فى موضع الآخر.

تَرَى الظِّلالَ حَـوالَيْـه مُـفَـزَّعَـةً
لَهُنَّ فِي الـصَّـمْتِ تَعْـداءٌ وتَـنْقَـالُ

تَخَالُها الجِنَّ . . تَخْطُو فى مَسارِ بِهَا
والرِّيحُ سَـاكِـنَةٌ ، والقَـيْظُ جَـوَّالُ

أَكَبَّ يَنْظُرُ مـا فـيـهـا، ويَقْـرَؤُها
كَـأَنَّـهُ فى طَوَايَا الجِـنِّ دَخَّـالُ

تَسْـمَعُ لِلنَّفْـثِ هَسْـهَـاسًـا ودَنْدَنَةً
كـأنَّها الغَـيْثُ فى شَجْـرَاءَ هَطَّالُ(١)

* * *

يا وَعْدُ! مَـالَكَ قد أَقْـعَيْتَ مُنْتَـبِهًـا
كَذِى حِـجًى لِخَبَايَـا العَقْلِ سَـأّلُ؟!

تَظَلُّ فى غـابَةٍ جَـرْدَاءَ مُـسْـتَـمِـعًـا
تُصْـغِى، كَأَنَّكَ للأَشْـعَـارِ حَمَّـالُ!

(١) النفث: مضى شرحه فى هذه القصيدة، ص: ٢٠. والهسهاس من الكلام الذى لا يفهم. الشجراء: الأشجار المتشابكة، وهو مفرد يُراد به الجمع.

تَرْنُو بِعَـيْنَيْـكَ لِلتَّـالِي زَمَـازِمَـهُ[(١)]

وفى سُكُـونك إيمَـــانٌ وَإجْـــلاَلُ

خَـشَعْتَ للرُّقْـيَةِ المأخُـوذِ سَامِـعُهـا

فلَمْ تَزَلْ بِكَ . . حتَّى كِـدْتَ تَخْتَالُ

عَلِمْتَ حتَّى نَسِيتَ الطَّبْعَ، فانْتَفَضَتْ

قُـوَاكَ . . والطَّبْـعُ غَـلاَّبٌ وخَـذَّالُ

ورُحْتَ تَبْـغِـى بيَـانًا عن مُــغَلْغَلَةٍ

فى النَّفْسِ، إضْمَـارُها هَمٌّ وإضْلاَلُ

هزَّتْكَ حَتَّى اخْتَلَسْتَ اللَّفْظَ مُـحْتَفِزًا

ولم تَزَلْ جَـاهدًا للنُّطْقِ تَحْتَـالُ![(٢)]

مُـهَـمْهِـمـًا بَعْـدَ تَرْجِـيعٍ ولَقْلَقَـةٍ

ولِلِّـسَـــانِ مُـنَاجَــــاةٌ وَإهْلاَلُ[(٣)]

---

(١) الزمازم: جمع زَمْزَمَة، وهو صوت خفىّ لا يكاد يُفْهَم.

(٢) احتفز الكلب: استوى جالسًا على وركيْه.

(٣) اللقلقة: شدة الصوت. وكل متكلم رفع صوته أو خفضه فقد أهَلّ.

فَانْتَابَ لَحْيَيْكَ مِن طُولِ اخْـتِلاَجِهِمَا

كَـمَـا يُحَـرِّكُ مِنْ شِـدْقَـيْـهِ قَـوَّالُ!

تَرْوِى قَـصَـائِدَ مِنْ شِـعْرٍ تُقَـصِّـدُه

فيـه خيَـالٌ ، وتَصْوِيرٌ ، وأمْـثَالُ!!

أتَيْتَ إدًّا[١]، وخَالَفْتَ الطِّبَـاعَ بِمَا

لَمْ يَأتِ قَـبْلَكَ لا عَمٌّ ولا خَـالُ!

بَدَّلْـتَ مَـا أوْرَثَ الآبَاءُ مُـنْذُ أزَلٍ

فَـرُوِّعَتْ بِك آبَـادٌ وأجْـيَـالُ

وَصِرْتَ كالضَّاحِكِ البَاكِى. . أخا شَجَنٍ

فى سِـرِّ قَلْبِكَ تَعْـذِيبٌ وتَأمَـالُ

تُفْضِى إلى مُوصَدَاتِ الغَيْبِ مُقْتَحِمًا

ودُونَ مَـا تَبْـتَـغِـى ذَبْحٌ وأهْوَالُ!

فَـاقْنَعْ بما كَـانَ من نَبْحٍ وبَصْـبَصَـةٍ

واسْخَرْ بما حَازَ أهلُ النُّطْقِ أو نَالُوا![٢]

---

(١) الإدّ: الأمر الفظيع.

(٢) بصبص الكلب: حرّك ذنبه طمعًا أو خوفًا.

تَرَى الأَمَـــانِيَّ فِي نَجْـوَاهُ مَـــاثِلَةً:

ظِلٌّ ، وظَلٌّ ، وأَسْـحَـارٌ، وآصَـالُ

ونَفْـحَـــةٌ مِنْ نَسِـيمِ الخُـلْدِ هَارِبَةٌ

وَرَاحَـةٌ كَرِيَاضِ الخُـلْدِ مِحْـلالُ[١]

حَـتَّى إِذَا سَكَنَتْ نَفْسٌ ، وَهدْهَدَهَا

طُولُ التَّنَاغِـى، وَإِمْـسَـاكٌ وَإِرْسَـالُ

ونَاسَـمَتْـكَ حُمَـيَّـا الحُبِّ مُـسْكِرَةً

ونَاعَسَ الطَّرْفَ إِغْـضَاءٌ وإِسْـبَالُ[٢]

دَبَّتْ إِلَيْـكَ مِنَ الأَدْغَـــال سَـــارِيَةً

عَقَـارِبٌ ، وشَيَـاطِينٌ ، وأَصْلالُ[٣]

لَدْغًا،ونَهْشًا . . فَمَا تَنْفَكُّ مِنْ خَبَلٍ

لِلسَّـمِّ فى الدَّمِ إِضْـــرَامٌ وإِيـغَـــالُ

---

(١) أرض محلال: تجعل الناس يحلُّون بها لسهولتها ولينها.

(٢) حُمَيَّا الشىء: حدّته وسورته، وأصله فى الخمر.

(٣) أصلال: جمع صِلّ، وهى الحية التى تقتل إذا نهشت من ساعتها.

تَبّاً لَهَا! ولِخَلْقٍ كُلَّمَا انْتَعَشُوا
تَفَارَسُوا بِنُيُوبِ البَغْيِ أَوْ صَالُوا[١]
كَمْ ظَالِمٍ عَبَّ كَأْسَ الظُّلْمِ طافِحَةً
ثم انْتَشَى وَهْوَ تَيَّاهٌ ومُخْتَالُ!
وكَمْ صَدِيقٍ تَفَانَوْا فِي مَوَدَّتِهِم
حَتَّى إذَا نَبَتَتْ أَنْيَابُهُمْ جَالُوا!
فَأَنْشَبُوا حَيْثُ لاقَوْا، لا تُرَوِّعُهُمْ
عَمَّا أَرَاغُوهُ أُمَّاتٌ وأَطْفَالُ[٢]
تَوَالَغُوا فِي الدَّمِ المَسْفُوحِ عَرْبَدَةً
كَأنَّ مَا شَرِبُوا صَهْبَاءُ جِرْيَالُ![٣]
ثُمَّ انْثَنَوْا وبِهِمْ من شِرَّةٍ سَفَهٌ
وكُلُّهُم مَرِحُ العِطْفَيْنِ مَيَّالُ

---

(١) تفارسوا: افترس بعضهم بعضا.
(٢) أراغ الشيءَ: طلبه. أمات: أكثر ما يقال فى جمع غير العاقل، ولكنهم أحلوا كلا الجمعين: أمّهات وأمّات محل الآخر.
(٣) ولغ: أصله فى الكلب والسباع. الصهباء: الخمر. الجريال: الخمر الشديدة الحُمْرَة.

يَرْتَاحُ لِلدَّمْعِ وَالأنَّـاتِ، يَسْمَعُهَا

طَلْقَ المُحَيَّا إلَى أنْ يَنْعَمَ البَالُ

فَإنَّمَا العَقْلُ : إزْرَاءٌ ، وتَعْنِيَةٌ

وَحَيْرَةٌ ، وضَلالاتٌ، وَأثْقَالُ

والغَيْبُ غَيْبٌ ، فَمَا سِرٌّ بِمُنْكَشِفٍ

والعُمْرُ والعَيْشُ أغْلالٌ وَأكْبَالُ!

* * *

وَفَيْتَ يا وَعْدُ! هذا شَاعِرٌ ظَلَمَتْ

فيهِ النَّوائِبُ ظُلْمًا، وَهْيَ جُهَّالُ

ففرَّ مُعْتَزِلًا أرْضًا وسَاكِنَهَا

ولِلكَرِيمِ عَنِ الآفَاتِ تَرْحَالُ

آنَسْتَهُ بَصَدِيقٍ لاَ تُدَنِّسُهُ

خَلائِقُ اللُّؤْمِ .. تَمْلِيقٌ وإدْغَالُ[1]

(١) ادغل فى الأمر: ادخل فيه ما يُفسده.

وَفَـيْتَ يا وَعْدُ! فى دُنْيا صَدَاقـتُها

كـمـا تلَفَّعَ بالظَّلْـمـاءِ مُـغْـتَـالُ

وَأَهلُهَـا شَـرِهٌ ضَـارٍ، كَـأَنَّ بِهِ

مِنْ شَـهْـوَةِ الفَـتْكِ ذُؤْبَانٌ وأَغْـوَالُ

وخـائِنٌ يَتَـراءَى فـي مُلَمَّـعَـةٍ

بالصِّدْقِ، والصِّدْقُ فى بَيْدَائه آلُ![1]

ونَاسِكٌ هَـجَـرَ الدُّنْـيَـا وأنكَـرَها

وخَـوْفُـهُ مِنْ عَـذَابِ اللـهِ إعْـوَالُ

تَرَاهُ يَخْـشَعُ فـي أَسْـمَـالِهِ رَهَـبًا

وبَيْنَ جَنْبَـيْـهِ فَـتَّـاكٌ ومُـخْـتَـالُ!

وبَاسِمٌ .. بَاسِـمُ العَـيْنَيْنِ مُـؤْتَلِقٌ

كـما تَـرَقْرَقَ في الغُـدْرَانِ سَلْسَـالُ

حُلْوُ الحَدِيثِ. .كَأَنَّ الرَّاحَ ما شَرِبَتْ

أُذْنَاكَ، وَالـوُدُّ أنسَـامٌ وأَظْـلالُ

(١) المُلَمَّعَة: الأرض يلمع فيها السراب. الآل: السراب.

أفٌ لِمَا حَـمَلَتْ أمٌّ ومـا وَضَـعَتْ

غَدْرٌ، ولُؤْمٌ ، وطُغْيانٌ، وإسْلاَلُ![١]

* * *

نَظَرْتَ، يَا وَعْـدُ، مُـرْتَابًا إلى نَفَـرٍ

كَـأنَّهُمْ مِنْ صَـفَـاءِ الرُّوحِ أبْدَالُ[٢]

تَحَيَّـروا فِيِ نَواحِي الأرْضِ، وَالْتَمَسُوا

وَاسْتَنْفَضُوهَا، فَسَالَتْ حَيْثُمَا سَالُوا[٣]

تَهَـارَبتْ بَيْنَ أيْديهِمْ خَـلاَئقُـهَـا

كَـمَا تَـهَارَبَ تَحْتَ الحَـقِّ خَتَّـالُ[٤]

فَأشْرَفُـوا كَالذُّرَى نُبْلاً . . فأنْفُـسُهُمْ

إذَا تَطَلَّـعْتَ فِي الآفَـاقِ أجْـبَـالُ

---

(١) الإسلال: السَّرِقة.

(٢) الأبدال: الأولياء والعُبّاد.

(٣) تحيروا: ذهبوا وجاءوا فانتشروا في كل مكان، وأصله في الماء الكثير. واستنفض الناقة وما أشبهها: استقصى عليها حلبها فلم يدع في ضَرْعها شيئًا من اللبن.

(٤) الختال: المخادع.

مَـــاذَا أَرَابَكَ مِنْهُـمْ؟ أَمْ رَأَيْتَــهُمُ

فى حَيْثُ رُعْبُ الصَّدَى لِلصَّوْتِ عَذَّالُ؟!

فى مَـعْـزِلٍ لَمْ تَطَأْهُ قَـبْلَـهُمْ قَـدَمٌ

فَأَرْضُهُ - خَـشْيَةَ السَّارِيـنَ - مِعْوَالُ

وحيثُ دبّـتْ إياةُ الشمسِ خـائفةً

أَزَلَّهـا عن ذُرى الأغـصـانِ تَزْوَالُ

وَحَـيْثُ حَشْـرَجَتِ الظَّلْمَـاءُ مُعْـوِلةً

كَـمَـا تُسِـرُّ أنينَ الـلَّيْلِ مِـثْكَالُ

وَحَـيْـثُ أَنْتَ وَحِـيـدٌ لا أَنِيسَ لَهُ

إِلَّا جَـوًى حَـائِرُ الـسَّـاعَـاتِ زَوَّالُ

حَـيْثُ المَقَـادِيرُ أَلْقَـاءٌ مُـبَـعْـثَـرَةٌ

مِنْ حَوْلِ شَيْخِكَ، وَالأَيَّامُ أَهْمَالُ[1]

يَا وَعْـدُ! لا تَكُ مُـرْتَابًا، فَـإِنَّهُمُ

مَالُوا إِلَيْكَ . . وَلَوْلا أَنْتَ مَـا مَالُوا

---

(١) الألقاء: جمع لَقًى، وهو الشيء المُلْقَى المهمل لا يُعْبَأ به. اهمال: كأنه جمع هَمَل، وهو الشيء المتروك الضال، جمعها أستاذنا - اقتدارًا على عربيته - مثل: قَلَم وأقلام.

هُمُ الصَّدِيقُ، وإنْ جاءُوكَ فى زَمَنٍ
خَيْرُ الصَّدِيقِ بِهِ خَبٌّ ودَجَّالُ![١]
فَائْنَسْ إِلَيْهِمْ، وخَفِّفْ مِنْ لَوَاعِجِهِمْ
فَأَنْتَ أَكْرَمُ .. والمِفْضَالُ مِفْضَالُ!

* * *

يا وَعْدُ! حُيِّيتَ مِنْ ذِى نَبْحَةٍ فَضَلَتْ
نُطْقَ الخَلائِقِ .. إكْرَامٌ وإجْمَالُ
لَمَّا غَدَوْتَ مِنَ السَّاجُورِ مُنْطَلِقًا
كُنْتَ الحَفَاوَةَ، لا كِبْرٌ ولا خَالُ[٢]
وَجِئْتَ مُبْتَهِجَ العَيْنَيْنِ مُبْتَسِمًا
مُبَصْبِصًا، فَهُمُ ضَيْفٌ ونُزَّالُ[٣]
وَرُحْتَ تَمْسَحُهُمْ بِرًّا وتكْرِمَةً
وَذُو المُرُوءَةِ لِلمَعْرُوفِ فَعَّالُ

---

(١) الخب: اللئيم المخادع.

(٢) الساجور: القلادة أو الخشبة التى توضع فى عنق الكلب. الخال: الاختيال والتكبّر.

(٣) بصبص الكلب: حرك ذنبيه طَمَعًا أو خوفًا.

تَرْنُو إلىَ صَدَعٍ أَرْخَى مُبَيَّضَةً
نَسَّاجُهَا الدَّهْرُ .. وَالأَيَّامُ مِنْوَالُ[١]

فَانْظُرْ بَنَانًا كَنُورِ الفَجْرِ لَمْحَتُهُ
تَنْجَابُ عَنْهُ الدَّيَاجِي وَهْيَ فُلَّالُ

يَرِفُّ فِيهِ شُعَاعٌ مِنْ قَرِيحَتِهِ
إِذَا تَمَزَّقَتِ الآرَاءُ وَصَّالُ

أَنَامِلُ السِّحْرِ فِي الجُلَّى أَنَامِلُهُ
النَّارُ وَهَّاجَةٌ، وَالغَيْثُ هَطَّالُ

فَلَيْسَ يُعْجِزُهُ عَمَّا يُحَاوِلُهُ
صَعْبُ المِرَاسِ، وَلَا يَثْنِيهِ عُقَّالُ[٢]

فِي كَفِّهِ أَنْمُلَاتٌ نَبْضُهَا نَغَمٌ
مُغَرِّدٌ فِي ضَمِيرِ اللَّفْظِ زَجَّالُ[٣]

* * *

---

(١) الصَّدَع: الصُّلْب القوِىّ. مُبَيَّضَة: الثوب بيّضه صانعه، أى جعله أبيض.
(٢) العُقَّال: ظَلْع يأخذ فى قوائم الدابة.
(٣) الزجّال: الذى يبالغ فى رفع الصوت، وخُصّ به التطريب.

لا تعودى !

لا تعودِى.. أحرقَ الشَّكُّ وُجودِى.. لا تعودِى
اذهبِى ما شئتِ.. أنَّى شئتِ فى دنيا الخُلودِ
واتركى النارَ التى أَوْقَدْتِها تقْضِمُ عُودِى
هى بَرْدٌ وسَلامٌ يتلظَّى فى بُرودِى!
فاسعَدِى فى شِقْوةِ الرُّوحِ.. ولكنْ.. لا تعودِى!

* * *

أنتِ والأقدارُ!.. كَمْ قاسيتُ منهنَّ ومنكِ!
هى تأتى بيقينٍ خائنٍ فى إثْرِ شَكٍّ
ثم أنتِ الشَّكُّ فى إثْرِ يَقينٍ لم يَخُنْكِ
وأنا سَائِلُكِ الحَيْرانُ عنهنَّ وعَنْكِ
فأجيبى، واذهبى إنْ شئتِ.. لكنْ.. لا تَعُودِى!

* * *

اللَّـظَى زادى!! فــهـل يَنْفَـــعُنى زادٌ ممـيتُ؟!

اللَّظَى رُوحُكِ؟ أم رُوحى سَـعيرٌ مُـسْـتَمـيتُ؟!

كُلَّمـا مَّـرتْ به النَّـسْـمَـةُ من وَجْـدى حَـيِـيتُ

أَهِىَ تُحْـيِـينى إذا مَـــرَّتْ بنارِى.. أم تُميتُ؟!

خَبِّـرِينى، واذهبى إنْ شئتِ.. لكـنْ.. لا تعودى!

* * *

أنا كـــالنَّـارِ تَغَـــشَّـاهـا مِنَ الموتِ رَمَـــادُ!

أَحـديثٌ منكِ يُحْـيِـينى.. أَمْ الصَّـمْتُ المُعَـادُ؟

أَمْ نسـيـمُ الحُبِّ؟ أَمْ هَجْـرُكِ؟ أَمْ هذا البِـعـادُ؟

أأنا حـىٌّ ولا أدرِى.. أَم الحىُّ الجـــمَـــادُ؟!

خَبِّـرينى، واذهبى إنْ شئتِ.. لكـنْ.. لا تعودى!

* * *

هذه الرِّيـبــةُ فى رُوحىَ مــن سِــرِّ حَــيَــاتى

بَعـثتْ وَجْدِى.. فـدَبَّ الشَّـوقُ منها فى رُفـاتى

فَجَّرَتْ أَغْـمَضَ ما أخفيْتُ فى جَـوْفِ صَفَاتى(١)

فـإذا وَرْدُكِ نجـــواىَ.. وأشـــواكى شَـكَاتى!

اسمـعيها، واذهبى إنْ شـئتِ.. لكنْ.. لا تعودِى!

* * *

أنتِ! مــا أنتِ سِــوى شكِّىَ فى طُولِ حنـينى!

كلُّ مــــا فِــيكِ من الأوهـامِ حقٌّ فى يقــــينى

المُنَى والـوَجْــدُ والصَّـــبْـوَةُ نـبعٌ من ظُنُـونى

أنتِ إيمانىَ.. بـل كُـفـرِىَ.. بل أنـتِ جُنونى!

أنتِ..لا أنتِ! اذهبى إنْ شئتِ..لكنْ..لا تعودِى!

* * *

مــا ســـمــائـى؟ هى إظْلامٌ ورَعْــــدٌ وبُروقُ

لا أَرى نَجْـمى.. ولا فـيـها غُـروبٌ أو شُـروقُ

صَـخَبٌ يهـدِمُ بُنْـيـانى.. ورُعْبٌ.. وخُـفـوقُ

ووَمِــيضٌ هــو فى رُوحى حَــريـقٌ وفُــتُــوقُ

(١) الصفاة: الصخرة الصلبة.

اشهدى، ثم اذهبى إنْ شئتِ.. لكنْ.. لا تعودِى!

* * *

ثم.. ما أرْضِىَ؟! زِلزالٌ، وجَدْبٌ، وصُدوعُ
ظَمَأٌ يَغْتَالُ آمالِى.. وأشواقٌ تَلوعُ
هذه الأوهامُ من حَولِىَ أطيافٌ تَروعُ
أينَ؟ لا أين!.. ضَلالٌ.. بل خِداعٌ.. بل هُلوعُ
أقْبِلِى، ثم اذهبى إنْ شئتِ.. لكنْ.. لا تعودى!

* * *

حَيْرتى فيكِ وفى نفسىَ من طُولِ انتظارى
حَيْرةُ الذَّرَّةِ فى الرِّيحِ بمجهولِ القِفَارِ[1]
تَشتكى لِلَّيلِ ما تلقاهُ من شَمْسِ النَّهارِ
لا كُؤوسُ الغَيْثِ تَسقيها.. ولا الموتُ يُوارِى
اذهبى.. ثم اذهبى إنْ شئتِ.. لكنْ.. لا تعودى!

* * *

(١) الذَّرَّة: النملة الصغيرة.

أنا فـى العُــــزْلة لا آنَـسُ إلا بارتيـــــابى

الأفاعِى الصُّمُّ والوَحْشُ الضَّوارِى من صِحابى[١]

فى دَمِى تَشْــتَفُّ.. أو تَنْهَـشُ رُوحِى وإهَابى[٢]

فـتـعـالَىْ.. واسـألِى كـيف رأتْنى.. لا تَهـابِى

اسمـعيها، واذهبى إنْ شـئتِ.. لكنْ.. لا تعودِى!

* * *

كــيفَ لا تأنَسُ فى الرِّيـبـةِ بِنْـتُ الظُّـلمــاتِ؟

مُهْـجتِى.. أُمُّ الخِـصَامِ الـمُــرِّ.. مَـهْدُ النَّزواتِ

خُلِقَـتْ لليــأسِ والبــأس وطَىِّ الحـسَــراتِ

وارتكابِ الـفَـرَحِ النَّـشْـوانِ فــوقَ العَــبَــراتِ

لا أُبالى.. فاذهبى إنْ شـئتِ.. لكنْ.. لا تَعودِى!

* * *

مـا دِمائى؟! هِـىَ أشواقِىَ من جُـرْحِى تَفـيضُ!

---

(١) الصم: جمع صَمَّاء، وهى الأفعى لا تجيب الرَّاقى.

(٢) تشتف: اشتف الشىء: تَقَصَّى شُربه حتى أتى عليه. الإهاب: الجِلْد.

شُعَلٌ ذابتْ من اللّذات.. أو وَجْدٌ غـويضُ(١)

ليتَهـا تَبـقَى.. كمـا تبـقى الأمانى لا تغـيضُ!

حَـبَّبَ الشّكَّ إلى قلبىَ إيمـانٌ بَغـيضُ!

أنتِ جُرْحِى.. فاذهبى إنْ شئتِ.. لكنْ.. لا تعودِى!

* * *

قَـدْ صَحِبتُ اللَّيلَ، واللَّيلُ اكـتـئـابٌ وارتيـاعُ

ظُلُمـاتُ الصَّمْتِ لا يَـنفُذُ فـيهنَّ شُـعاعُ

حَسْـرةٌ تُطوى عَلى أُخرَى.. وَهَمٌّ وضَـيـاعُ

وأحـاديثُ لهـا فـى النَّفسِ هَدٌّ ونِزاعُ

أَنْصِتِى، ثم اذهبى إنْ شئتِ.. لكنْ.. لا تعودى!

* * *

قلتُ: يا نَجْمِىَ.. هذا اللَّيلُ.. فاسطَعْ وأَعِنِّى

اهـدِنى.. هـذِى فَـلاةٌ ودلـيلٌ ضَلَّ عَنِّى

---

(١) غـويض: كذا بالأصل المطبوع، وليس فى اللغـة مـادة غوض. وظنّى أنهـا: غريض، والغريض الطرى الطازج العَذْب من كل شىء.

كَلُّ مـــا أخـــشَـــاهُ أو أرجُـوه قَـــدْ أفْلــتَ منِّى
اهدِنى. . أو لا. . لقد ضِعْتُ. . فَغِبْ يا نَجْمُ! إنِّى. .
لا أبالى. . فاذهبى إنْ شـئتِ. . لكنْ. . لا تعودى!

* * *

أنتَ يا نَجْـمِىَ كـــالذِّكْـرَى. . عَـذابٌ وارتيـاحُ
ظَفَــرٌ يَخْــبُـو وقَـــدْ ضَـرَّمَ آمـــالى الطِّمـــاحُ
لكمـــا فى النَّفْسِ أضــواءٌ تُدَمِّــيـهـــا الجِـرَاحُ
هكذا السَّـعْـدُ. . إذا مـــا لامَـهُ نَحْسٌ مُـتَـاحُ!
أنتِ نَجْمِى. . فاذهبِى إنْ شئتِ. . لكنْ. . لا تعودِى!

* * *

سَـاعـةٌ فَـرَّتْ إلى الذِّكْـرَى. . إلى غـيـرِ مَـآبِ
تَتَــجلَّى كـــالخُلودِ الـغَضِّ فى بَرْقِ الشَّـــبـــابِ
سَـــــعَّـــــرَتْ لــلرَّاحلِ المُـنْبـتِّ هَمِّى وطِـلابِى
فَـهْىَ تَخْـتَالُ لِـتُضْـرِينىَ - من خَلْفِ حِـجَـابِ
مَـزِّقِيـه، واذهبى إنْ شـئتِ. . لكنْ. . لا تَعـودى!

* * *

هَلَكَ الماضِى!.. أمَا تَهْلَكُ ذِكراه فَتفْنَى؟!

أهُوَ مالُ الحىِّ فى دُنياه يَحْويه ليَغْنَى؟!

أمْ ثِمَارُ العُمْرِ قد أنضجها الشَّوقُ لتُجْنَى؟!

أمْ هو الشُّحُّ الذى لَوَّعَ أرواحًا وأضْنَى؟!

لستُ أدرى!.. فاذهبى إنْ شئتِ.. لكنْ.. لا تعودِى!

* * *

هذه السَّاعاتُ تَنْسَابُ كأنْ لم تَكُنِ!

هِىَ كالحَيَّاتِ غابَتْ فى كُهوفِ الزَّمنِ

رُقْيَةُ الذِّكْرى أطارتْ حَيَّةً مِنْ وسَنِ[1]

فأرتْنِى القَلْبَ نَشْوانَ بسُمِّ الفِتَنِ!

فتنةَ الماضِى! اذهبى إنْ شئتِ.. لكنْ.. لا تعودِى!

* * *

أهِىَ الجِنُّ تَجلَّتْ لى.. أرَاها وتَرانى؟!

وَسْوسَتْ لى الشَّكَّ فى صَمْتكِ عَنِّى كَىْ أُعانِى؟!

---

(١) الوَسَن والسِّنَة: النعاس من غير نوم.

أَسْـمَعُ النَّبأةَ تأتينى بغَـيْبٍ كـالبَـيَـانِ؟!
فَـهْىَ حَقٌّ مِلْءُ أسـماعى.. وحقٌّ فـى عِيَـانِى؟!
أُصْـدُقِينى، واذهبى إنْ شئتِ.. لكنْ.. لا تعودى!

* * *

أمِنَ الإنسِ تَـغَـارُ الجنُّ؟ أمْ كـيـفَ أقـولُ؟!
أهْىَ مِنـهنَّ التى تَخْـتِلُ عَـقْلِى وتَغـولُ؟![1]
هذه الأشْـبَـاحُ فى شَـكِّىَ تَبْـدُو وتَزولُ؟!
كُلَّمـا آمنتُ.. لا رَيْبَ.. أتى الرَّيْبُ يَـجُـولُ!
فإلى الجنِّ اذهبى إنْ شئتِ.. لكنْ.. لا تعودِى!

* * *

ذَكِّـرى تـلكَ التى تُخْـفِـى عَـذابِى واحْـتِـراقِى
هِـىَ أدْرَى مِـنْـكِ لا شَكَّ.. ولـكـنِّـى أُلاقِـى
اسـأليـهـا السِّلْمَ.. فـالسِّلْمُ نَجـاةٌ من فُـواقِ[2]

---

(١) تغول: تُهْلك.

(٢) الفواق: الموت، أو خروج النَّفس عند الموت.

واذكُـرا أنِّـى على حَـربكـمـا لَسْتُ بِبَـاقِ

ذَكِّريها، واذهبى إنْ شئتِ.. لكنْ.. لا تعودِى!

* * *

لا تعودِى.. أحرقَ الشَّكُّ وُجودِى.. لا تعودِى!

اذهبى مـا شـئتِ.. أنَّى شِـئْتِ فى دنيـا الخُلودِ

واتركى النَّـارَ التى أوقـدْتِهـا تَـقْـضِمُ عُـودِى

هِـىَ بَرْدٌ وسَـلامٌ يـتَلـظَّـى فى بُـرُودِى!

فاسعَدى فى شِقْوةِ الرُّوحِ.. ولكنْ.. لا تعودِى!

* * *

أنا.. لا كُنتِ، ولا كـانَ قَصـيـدِى أو نَشيـدِى

لوعـةٌ تُمْـلِى على الأكـوانِ آلامَ العَـبـيـدِ

أنا فـى الرِّقِّ أُعَـانِى ثَـورةَ الحُـرِّ العَـنيـدِ

أتَحـدَّاكِ.. ولـكنِّى ذَليـلٌ فى قُـيـودِى!

لا تَرِقِّى، واذهبى إنْ شئتِ.. لكنْ.. لا تعودِى!

* * *

نَفَثَـاتُ السِّـحْـرِ تَنْسَـابُ الأفـاعِي فى رُقَـاها
هِـيَ بِـنْـتُ اللَّيـل والأوهامِ.. لـكـنِّى أراهـا
كُلَّمـا نـازعْـتُـهـا السَّـيْـر رَمَـتْنِى فـى خُطاها
نَفَـثاتُ السِّـحْرِ! مـا يفعلُ فى رُوحى صَـداها؟!

انْفثيها، واذهبى إنْ شئتِ.. لكنْ.. لا تعودِى!

* * *

هذه الزَّهْـرةُ من نَضْـرتِـهـا نَفْحُ الجَـمـالِ
الشَّـذَى والحُـسْنُ حُـرَّاسٌ على سِـرِّ الجَـمَـالِ
أذبلَـتْهـا زَفْـرةٌ مِـنِّى.. ولكنْ.. لا أبـالى!
فـأنا الـنَّارُ.. وكـالنَّارِ ارتيـابى واشـتـعـالِى

لا أبالى.. فاذهبى إنْ شِـئتِ.. لكنْ.. لا تعودِى!

* * *

يوم تهطال الشجون

نشرت بمجلة الزهراء، الجزء الثالث فى ربيع أول ١٣٤٥هـ
سبتمبر ١٩٢٦م

أيُّهــا الرَّاسِفُ فى أغْــلالَه ... إنَّك اليــومَ لَمــوْهونٌ مَنِينْ

ذَلَّ ذُو التَّـاجِ على رُغْمٍ لِقىً ... ونأى عنه.. وقد عزَّ القَطِينْ[1]

أذْؤبُ الدَّهْرِ ترامَـتْ نَحْـوَه ... دَخلوا الأرضَ دُخولَ الفاتحينْ

عَلِمَ اللهُ، فَــمَــا نــالوا به ... عِــزَّةَ النَّصْرِ ولا الفـتحَ المبينْ

ما هُمُ غيرُ سَـعالٍ قُبِّحَتْ[2] ... خَدَعوا الناسَ وغرُّوا الجاهلينْ

قَــيَّــدَ الأعــداءُ مَنْ كــانَ لهُ ... ساجِداً فِرْعَوْنُ فى ضَعْفٍ ولينْ

قَيَّدَ الأعـداءُ مَنْ فاضَ على ... جانبِ غَضٍّ ومَجْنونِ العَرينْ[3]

قــيَّــدَ الأعــداءُ من حَلَّ به ... دينُ عبدِ اللهِ مـحمودِ الأمينْ

يا سَبيكَ السَّامِ فى مُصْبَحِه ... وسَبيكَ الورْقِ فى وَقتِ الكُمونْ[4]

تُرْسِل الشَّمْسُ طويلاً نُورَها ... فنرى فـيكَ سُيـوفَ القــاتلينْ

---

(١) الخدم. (٢) جمع سعلاة وهي الغول.
(٣) جَنَّ النَّبْتُ: اعتَمّ واكتهل. وجَنُّ النبت: زَهْرُه ونَوْرُه. والعرين: الشجر.
(٤) السام: عروق الذهب فى الصخر. المصبح: الصباح. الورق: الفضة. يراد كمون الشمس فى كبد السماء ساعة الزوال.

أوْقَفوا سيرَكَ سُجْحًا قُدُمًا[١] بدمـاءِ الواهنـينَ العَـاجـزينْ
قَسَمًـا. حَـقًّا لئن طُلَّ دَمِى فـفداءُ النيل مـالى والوَتينْ[٢]
أجدُ الموتَ صبـيباً وجنى[٣] فى هوَى مصرَ مَراحِ العَاشقينْ
أجدُ الموتَ كُؤوسًـا قَرْقَفًا[٤] أنتشى حينًا وأصْحُو بعدَ حينْ
لكِ نَفْـسِى وحَيَاتـى وقُوًى تَزْدَهِى مُسْتَصْعِبَ الرأْىِ الوَزينْ[٥]
أنا لا أحْـفِلُ مـا مـوْعِـدُه والإلهُ القـادرُ البـارى مُـعينْ

* * *

نيلَ نَفْسى. لكَ نَفْسى وهوًى فى دَمٍ مِنْ مائكَ الجارى المَعينْ
خَـرَّ فرعـونُ، وهامـانُ عَنَا لجلالٍ فى تَـراقيك[٦] كَمينْ
سرْتَ فى الأيامِ لاتَلوِى على دَارِسِ الدَّارِ، وشيَّعْت السِّنينْ!
وأبو الهَوْلِ حَزينٌ مُغْرَبٌ[٧] دَمْعُـهُ فى نِيْلِهِ سَكْبٌ هَـتُونْ

(١) سار سُجْحًا أى: مشى مشيةً سَهْلةً.
(٢) الوتين: عرق الحياة فى قَصرة الإنسان.
(٣) الصبيب والجنى: العسل والشهد.
(٤) من أسماء الخمر. (٥) الراجح.
(٦) جمع ترقوة، وهى من جسم الإنسان عند المنكب.
(٧) من قولك: أُغرِب الرجل - بالبناء للمجهول -: اشتد به الوجعُ والمرض.

دَامِعٌ وَجْداً على أنحسنا يَقْلِبُ الكَفَّ ظُهُوراً لِبُطونْ

فتراه شاحباً مُنضوياً قد بَراه طُولُ تَهْطالِ الشُّجونْ

سَمَلَ الدَّهْرُ عُيوناً أبصرتْ نَصْرَ موسى وهو لله أمينْ

سِمَةُ الدَّهْرِ يَدَ الدَّهْرِ تُرَى وعيونُ السَّمْلِ في القَلْبِ عُيونْ

زَفْرَةً أو عَبْرَةً تجْرى على أسْجَحِ الخدِّ وما الدَّمْعُ ضَنينْ

لم يكُنْ للقلبِ في مَسكنه غيرُ زَفْراتٍ لمسجونٍ حَزينْ

وَطَني لو غُلَّ في أغلاله لَمْ يكن حيٌّ سوَى قلبي حَرونْ[1]

* * *

يا شَباب النيلِ لا تسعَوْا إلى مِعْولِ الهَدْم، وردُّوا الهادمينْ

مَجْدُكم ضاع، وما خلَّفَ مَن أمسكَ الشُّهْبَ وقاد المالكينْ

ليس بالصِّلِّ ولا الفِلْقِ الذى يتبع القومَ إلى أرضِ المَنونْ[2]

اعملوا.. هُبُّوا.. أقيموا ظِلَّكم اقطعوا جُرْثُومةَ الداء الدفينْ

تخذوا «التجديد» درعًا مانعًا صولةَ الحقِّ وحقَّ الكاتبينْ[3]

---

(١) الحرون هنا بمعنى الشموس الذى لا يقهر.

(٢) الصِّلُّ والفِلْقُ: الداهية الذى لا يُغْلَب.

(٣) هذا البيت تفسير لما قبله. أى أن الداء الدفين يحسن قطع جرثومته، وهى اتخاذ الملاحدة التجديد درعًا مانعًا صولة الحق.

ليس بالحقِّ سِوَى القَوْلِ الذى جدَّلَ البـاطِلَ بين الهالكينْ[1]
أجمـعوا وثبـةَ لَيْثٍ مُـخْدِرٍ يحْطِمُ الصَّخْرَ، وعَزْمًا لا يلينْ
لا تَرَوْا أرضَ الحجَى يَقْدُمُها لَجِبُ الجهْلِ وجَيْشُ الغاصبينْ[2]
يُظْهِرُون الوُدَّ.. وَدُّوا لو تُرَى غَفْلَةُ الناسِ لَهـمُّوا حاطِمينْ!
جعَلوا «الدستورَ» تُرْساً دُونَهم أفَـهَـدْمٌ هُوَ فى عِلْمٍ ودِينْ؟!
بَرِئَ «الدستورُ» من ظِنَّتِهم[3] ليسَ فى «الحَقِّ» مُحاباةُ البنينْ!

* * *

أُمَمَ الإسـلامِ لم يبـقَ لكمْ غيرُ مُمَجْدٍ جُبَّ تبكيهِ الشُّئونْ[4]
كنْتِ للدهـر قـرينًا فـغَـدا يَعْبثُ الكُفْرُ بوَضَّاحِ الجبينْ[5]
لسْتُ أدرى.. ألضَعْفِ صَمْتُكم أم دَهاكم مادَهَا الدَّارَ الشَّطونْ؟![6]
دَوْلَةَ الحقِّ أقـيـمى عَـرْشَـهُ واخْذُلِى الكُفْرَ وأُخْرَاه الكَمونْ[7]

(١) جَدَّله: رماه على الأرض صراعًا.
(٢) اللجب: الجيش يموج بصوته
(٣) التهمة.
(٤) جب: انتقص. والشئون: مجارى الدمع.
(٥) يشير إلى غمامة الإلحاد التى تراءت فى سماء الإسلام الصافية.
(٦) الشطون: النازحة البعيدة.
(٧) الكمون التستر والاستخفاء.

بُلْبُلُ الحـقِّ دعَـاكم دَعْـوةً   أسعِدُوه لاتَلوذوا بالدُّجون[١]

يا فـؤادى. .قَلَقٌ مـا بكَ أم   غادرتْنى مرَرُالقلبِ الرَّكينْ؟![٢]

خـَفَقَ القَلْـبُ بعُـقَّـالاته[٣]   خفَقانَالسيفِفى الحَرْبِ الزَّبونْ

لَيْسَ مَنْ يطلبُ حـقًّا لاهيًـا   غيـرَ مِلْغٍ فَيِّلِ الرأيِ أفينْ![٤]

* * *

إيهِ يا مصرُ! وواهًا. .فالبُكى   فَطَرَ القَلْبَ وأرْسَـالُ الأنينْ[٥]

ذُرِفَ الدَّمْعُ وغنَّاه الـشَّـجَى   يومَ حَيْنى سوفَ ألْقى بعد حينْ[٦]

وغـدًا أو شيـعَـهُ أُلْقَى على   مُحكَمِ الأعوادِ فى ثوبٍ جَرينْ[٧]

غـايةُ المـرءِ إلى الرِّيم الذى   يأكلُ العالَمَ دَهْرَ الدَّاهـرينْ[٨]

لستُ أبغى الخَمرَ دينـًا. . إنما   نُهْيَةُ الخمـر مُلاقاةُ الجُنونْ![٩]

---

(١) الإسعاد: الإسعاف والمساعدة. والدجون: الإقامة

(٢) الثابت الذى لا يتزحرح.   (٣) العقالات: الأغلال

(٤) الملغ: الأحمق الرأى. فيل أفين: وصف لضعيف الرأى.

(٥) الأرسال جمع رَسل، وهى الجماعات.

(٦) الحين: الموت.

(٧) يقال أقمت به شهرا أو شيعه: أى نحوه. الجرين: المتهدل مزقًا.

(٨) الريم: القبر.

(٩) الدين: العادة. نُهْيَة الخمر: غايتها.

لا ، ولا النسْوَةَ يَقصُرْنَ الخُطَا   فـيـرَدِّينَ فُـرَادَى ومِـئِينْ
عِـفَّـةٌ كـالمَيْـسَانِيِّ وَهَتْ   وحَيَـاءٌ لا يُرَى حتى يَبِينْ(١)
لا يُبَـالِينَ بِطِـنْءٍ مُـهـجِرٍ   ظُنَّ . . والليلُ مواتاةُ الخَدِينْ(٢)
ويبادرن إلى السُّـوقِ ضُحًى   يَتَرجْـرَجنَ مع الكِفْلِ البدينْ

* * *

نَصحَ الناصحُ قَـوْمًا نَكَّبـوا   سَنَنَ المَجْدِ ونـاموا هادئين(٣)
رحمةُ الله لهم . . هَلْ علموا   أنللمجدِ رجالاتِ دَهِينْ؟ !(٤)
فإلى المجدِ خِفَافًا . . أو دعوا   عَلَزَ الدَّاءِ وحـزَّازَ الأرون !(٥)

* * *

(١) الميسانى: نسبة إلى ميسان، بلدة بالعراق تنسب إليها الثياب الرقيقة. ويبين: يبعد.

(٢) الطنء: الريبة. والمُهْجِر: الفاحش. المواتاة: الوصل. والخدين: الحبيب.

(٣) نكبوا: عدلوا عن الطَريق. وحذف حرف الجر اتباعا للفصيح كقوله تعالى: ﴿وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾ ،أى: كالوا لهم أو وزنوا لهم. والسنن: الطريق.

(٤) دهين: جمع ده، وهى والدُّهاة بمعنى.

(٥) علز الداء: ألمه. والحزاز: وجع القلب. والأرون: السم.

النجم الوانى.. والصبح الثائر! (١)

نشرت بمجلة الزهراء، الجزء الرابع فى سنة ١٣٤٦هـ-١٩٢٨م

نَجْمٌ كقَلْبِ المُحبِّ يضطرِبُ ... يدعو سَـوادَ الدُجَى ويرتقبُ

كـسـاهُ فَـجْرُ النَّهـارِ بُرْدتَه ... بيضاءَ تُطْوَى بَنْشرِها الشُّـهبُ

فجنَّهـا تحتَه .. فـأغضبـها ... فأصبحتْوَهْىَداؤها الحَرَبُ(٢)

غَضبَى ونَارٌفى صَدْرِها سُعِرَتْ ... ومـا كنارٍ لَهيـبُـها الغَـضَبُ

تزفِـــرُ فى بُـرْدِه بألسـنةٍ ... من نارها فى الحِجَابِ تلتَهبُ

تأبى عليهِ أنْ ضمَّـها فَغدَتْ ... عن أعينِ الناظرينَ تَحـتجبُ

فَـهْـىَ تشُبُّ النيـرانَ تأكُله ... غَيْظاً كغَـرْثان عضَّـه السَّغَبُ

يا ويلَ بُرْدِ النهـارِ من شُعَلٍ ... فى جَوفه مـا تزالُ تحتَطِبُ(٣)

عَـمـا قليلٍ يشِفُّ أبيـضُـه ... والجَـمْرُ يبـدو كـأنه الذَّهَبُ

---

(١) هذه كلمة فى صفة مـغيب النجم فى بحر النهار، ثم شروقـه كالظافر فى جو السماء.

(٢) الغضب.

(٣) تتسقَّط الحطبَ وتطلبه.

حتَّى يشُجَّ[١] البياضَ أحمرُه   فيُصبحُ الأفقُ كلُّه لَهَبُ
ويحرقُ البَرْدَ حَرُّه فتَرى   سِلابَ[٢] ثَكْلَى قدنالها العَطَبُ
والنَّجْمُ بادٍ، كأنه أسَدٌ   تبرُقُ عيناهُ.. هزَّه الطَّرَبُ
وجِسْمُه فى سوادِه غَرِقٌ   ما تبرحُ الجسمَ هذه السُّلُبُ[٣]
مما غدا ظافراً، فريستُه   نَجيعُها فى البحارِ مُنسكِبُ

* * *

أقبل هذا النهارُ يطلُبُه   والثأرُ غَيْظٌ يحثُّه الطَّلَبُ
أنْ حَرَّقَ البُرْدَ بُرْدُهُ وغدا   يَضْحكُ فى نَصره ويهتضِبُ[٤]
يحتالُ فى ثأرِه، فَسِيء به   إذْ كُلُّ حَوْلٍ[٥] يراه ينشعِبُ
فقال: بُردِى سِجْنٌ أجدِّدُه   للنَّجْمِ حتى يُندَّه[٦] الهَرَبُ

* * *

حالُكما باعِثٌ على سَخَرٍ   خصومُ لَهْوٍ شؤونُهم عَجَبُ!
حَتَّى مَتَى أنتما على لَعِبٍ؟!   أما يُقَضَّى المِزاحُ واللَّعِبُ؟!

---

(١) يخالطه فيغلبه.
(٢، ٣) السِّلاب والسُّلُب ثيابٌ سودٌ تلبسها المرأة المُحِدَّة الحزينة.
(٤) اهتضب فى الحديث: اندفع فيه دفعة بعد دفعةَ حتى يرتفع الصوت. واستعير هنا للإغراب فى الضحك آناً بعد آن. حتى يعلو هُزْءًا وسخرية.
(٥) حيلة.   (٦) يشرده: يطرده.

تُصـرِّفان الأمـورَ فى عَـبَثٍ أما تروضُ السِّنونَ والحِقَبُ؟!

شَنِئْتُ[١] وَجْهَيْكُما، وبادرنى، فيماأرى، مسرعٌ، هو الغضبُ

* * *

يا صُبْحُ أَعْـيَتْكَ حـيلةٌ أفلا تَسْـمعُ قَـولـى؟ لعلَّه أربُ!

كُنْ أنتَ بحـراً يَـطُمُّ عـالَمَنا واجعلْ نُجومَ السما هى الحَبَبُ

والثـأرُ أدركـتَــه بما قَـتَلتْ دُنياكَ دنيا، مـا إنْ لها نَسَبُ!

فـمــا لهـا ثـائرٌ لمقـتِلـهـا ومـا عليـهـا باكٍ ومُنْتَـحِبُ!

* * *

عَجِّلْ، فقد غَالَ نفسىَ اللغَبُ وصادَ قلبى فى غِرَّةٍ وَصَبُ[٢]

كَذاكَ جُـلُّ الأنامِ أحسبـهم هذى أحـاديثُـهم. .وذا أرَبُ

ليـستْ مُناهم مآربٌ شُـعَبٌ لا. .بل مُنَاهم إليك. .مُنقَلَبُ[٣]

* * *

(١) كرهت.

(٢) الوصَبَ : الوَجَع والمرض.

(٣) شعب: متفرقة، ليست على أمر واحد.

كلمة مودع !

نشرت بمجلة الزهراء، الجزء الخامس فى سنة ١٣٤٧هـ ١٩٤٨م

كان أخى السيد محمود شاكر يساعدنى فى تصحيح (إعجاز القرآن) للباقلانى، ويعتمد فى التصحيح على صورة شمسية قدمتها له، منقولة عن نسخة قديمة من هذا الكتاب. فلما أزمع السفر من القاهرة إلى مكة أعاد إلىّ النسخة الفطوغرافية، وكتاباً آخر مع خادمهم شفيق الحبشى. . وبعث معه بهذه الكلمة البليغة:

.. محبّ الدين [1]..

سلام الله عليك ورحمته وبركاته..

---

(١) محب الدين الخطيب، من كبار الكتاب الإسلاميين ولد فى دمشق وتعلم بها وبالآستانة. استقر بالقاهرة وعمل محرراً بالأهرام، وأصدر مجلتى الزهراء والفتح. وكان من أوائل مؤسسى جمعية الشبان المسلمين. توفى سنة ١٩٦٩ انظر ترجمته فى الزركلى ٥: ٢٨٢.

هاكَ الفُطُوغرافُ، وهاكَ المُسْندُ ... إليكَ يَسْعى حَبَشىٌّ أسودُ
لا يعرفُ الغِمْدَ ولا ما يُغْمِدُ ... لو كان يَدْرِى أن كُلًّا عَسْجَدُ
وأَنّ فى الطىِّ هُدًى لا يَخْمَدُ ... لؤلؤةٌ تحتَ الضيَا تَوَقَّدُ
ضياءُ عقْلٍ نُورُهُ يُجَدِّدُ ... كلَّ قديمٍ لم تُهَنِّدْهُ يدُ
لنَا . .لنَا منه هُرُوبٌ مؤيدُ ... يُنْبَشُ عنهُ كلَّ يومٍ فَدْفَدُ
وَهْوَ على الدَّهرِ مُغيرٌ مُنْجِدُ ... حتَّى يُلاقينَا بعِلْمٍ يُحْسَدُ
نَحْمَدُ منهُ بَعْدُ ما لا يُحْمَدُ ... لَمَّا غَدَا يَعلمُ ما لا يُجْحَدُ

وربَّ أمْسٍ مرَّ يُنْسيهِ غدُ

* * *

أغنية الملاح التائه

إلى صديقي علي محمود طه

صاحب «ليالي الملاح التائه»

نشرتها الأهرام يوم الاثنين:

٩ صفر الخير سنة ١٣٥٩هـ

١٨ مارس سنة ١٩٣٤م

مع بعض التحريف!!

«١»

أيُّهـا المَلّاحُ .. سَاحِلْ بالشِّـرَاعْ[1]

وخُضِ اللُّجَّـةَ فى ضَـوءِ الشُّـعَـاعْ

وتَأَنَّ .. وتَـغَنَّ

وَاملأ السَّاحِلَ أنْغَامـًا وأَحْلامًا وسَامًا[2]

وَاسْكُبِ النَّشْوَةَ فى الكَأْسِ حَلالًا وَحَرَاما

تُطْرِبِ البَاكِى عَلَى أحْزَانِهِ .. عَامـًا فَعَامَا

إنَّمَـا العَيْشُ لِمَنْ خَـادَعَ عَـيْنَيْهِ فَنَامَـا!

أيُّهــا المَـلَّاحُ سَـاحِـلْ بالشِّــرَاعْ

وخُضِ اللُّجَّـةَ فى ضَـوءِ الشُّـعَـاعْ

وتَأَنَّ .. وتَـغَنَّ

* * *

---

(١) ساحل: أتى الساحلَ وأخذ عليه.

(٢) وسام: جميلة، على الاستعارة، فهو مما يوصف به الإنسان.

«٢»

زَاحِمِ اللُّجَّةَ باللَّحْنِ الطَّرُوبْ

وَارْمِ أَضواءَكَ فِى لَيْلِ الخُطُوبْ

.. وتَملَّ وتَجلَّ[١]

وكُنِ الفجْرَ علَى السَّاحِلِ سِحْرًا وشبَابَا

وتَغَلْغَلْ فِى ضَمِيرِ الرَّمْلِ، واسْتَمْلِ الشِّعَابَا

أَيْقَظِ النَّائمَ .. قَدْ نَامَ أنينًا واكْتِئابَا

إنَّمَا الدُّنْيَا لِمَنْ نَازَعَها الكأْسَ اغْتِصابَا

وتَغَابَى .. وتَصَابَى

أيُّهَا المَلَّاحُ سَاحِلْ بالشِّرَاعْ

وخُضِ اللُّجَّةَ فى ضَوءِ الشُّعَاعْ

وتَأَنَّ .. وتَغَنَّ

* * *

(١) تَمَلَّى الشيء: استمتع به. وتَجَلَّى: نظر فأمعن النظر.

«٣»

هَاتِ يا مَـــلَّاحُ أَلْحَـانَ العُـــبَـابْ
كـــغِناءِ الدَّمِ فى مَـــوْجِ الشَّــبَـــابْ
وتَهَدَّ . . وتَــبَدَّ
زَوْرَقٌ يَسْــــبَحُ والأَنْجُــمُ تَنْهَلُّ علـيْـهْ
هُوَ يَجْرى . . وَهْىَ تُجرِى ضَوْءَها بَيْنَ يَدَيْه
وعَذارَى اليَمِّ فى الضَّوْءِ ســريعاتٌ إِلَيْهِ
أَيُّها الـتَّائهُ . . والدُّنيا حِـفَافَىْ جَانِبَيْه!
كَيْفَ ضَلَّتْ عَنْ يَدَيْه؟
وأَضَلَّتْ مُـقْـلَتَـيْـه؟!
أَيُّهَـــا المَـــلَّاحُ سَـاحِـلْ بالشِّـــرَاعْ
وَخُـضِ اللُّجَّــةَ فى ضَــوءِ الشُّـعَـاعْ
وَانْـــزِلِ الـــوَادِى بِــنَـــاىٍ وَيَـــرَاعْ
فى سُـهُـولٍ وسُـــفُـوحٍ ويَفَـاعْ[1]

(١) اليفاع: المرتفع من الأرض، كالتلّ ونحوه.

لَحنُكَ اليَمُّ، ولَحْنِى من سَـرَابْ!
فَاشْـدُ الْحَانَـكَ .. أَحْلامَ الشَّبَابْ
وتَـغَـنَّ وتَـأنَّ!

* * *

نفثة قديمة

نشرت لأول مرة مع كتاب المتنبى
في مجلة المقتطف عدد يناير ١٩٣٦

ذكَرتُك بَيْن ثَنَايا السُّطورِ
وأضْمَرْتُ قَلْبِىَ بَيْنَ الكَلِمْ
ولَسْتُ أَبُوحُ بما قَد كَتَمْتُ
ولَوْ حَزَّ فى النَّفْسِ حَدُّ الأَلَمْ
تُمَزِّقُنى - مَا حَيِيتُ - المُنَى
فَأَرْقَعُ مَا مَزَّقَتْ بالظُّلَمْ
فكَمْ كَتمَ اللَّيلُ مِنْ سِرِّنَا
وفِى اللَّيْلِ أَسْرَارُ مَنْ قَدْ كَتَمْ
تَشَابَهَ فِى كَتْمِ ما نَسْتَسِرُّ
سَوَادُ الدُّجَى ، وسَوَادُ القَلَمْ!

* * *

من ديوان البغضاء:

انتظري بُغْضِي

نشرت بمجلة الرسـالة، السنة الرابعة فى ١١ ربيع الأول ١٣٥٥هـ
أول يونيـــو ١٩٣٦م

حَبَبْتُكِ، والأوْهَامُ فِكْرِى، وحُجَّتِى
تُؤلِّبُ بَعْضِى -فى هَواكِ- على بَعْضِى
إذا ما نَقَـضْتُ الرَّأىَ بالرَّأىِ؛ رَدَّنى
إلى خَطَرَاتِ الوَهْمِ مَضٌّ على مَضٍّ[1]
أُصَـارِعُ أهوالًا من الغَـيْظِ والرِّضَى
وما يتولَّى الغَـيْظَ فَوقَ الذى يُرْضِى
عَـجِـبتُ لمنْ رَاضَ النِّسَـاءَ ورُضْنَه
ويَقْضِينَ من إيلامِـهِ دونَ ما يقضِى!

---

(١) المضُّ: الهمُّ والحُرْقَةَ والحزن.

ويَرْمِينَه بالسَّهمِ.. ليس بِضَائرٍ

ويَرْمي بما يَحْمِي الجُفُونَ عن الغُمْضِ[١]

فكيفَ به قَدْ ذَلَّ وَهْوَ مُكَرَّمٌ

وأغضَى..ولو قَدْ ناصبَ الدهرَ لم يُغْضِ!

كفَى بكَ ذُلًّا أن تَبيتَ على جَوًى

وتُصبحَ في ذِكْرَى، وتُمْسي على رَمْضِ[٢]

كأنَّكَ لم تُخْلَقْ لِدُنْيا تَجُوبُها!

وما أضْيَقَ الدُّنيا من الحَدَقِ المُرْضِ![٣]

فَهُنَّ اللواتي زِدْنَ في العَيْشِ لذَّةً

فأقْصَيْنَ لذَّاتٍ من الفَرَحِ المَحْضِ

* * *

شككْتُ..وقد تُنجي من الشَّرِّ رِيبةٌ

وتُبْدِلُ مُسْوَدَّ الحُظوظِ بِمُبْيَضٍّ

---

(١) يحمي: يمنع.

(٢) الرمض: حُرْقَة الغيظ، وهو: بالتحريك، وسكَّنه أستاذنا للضرورة، وأصله شدة حَرّ الشمس.

(٣) المُرْض: جمعها أستاذنا على غير قياس، والقياس: المِراض.

لقدْ كُنتُ أمـضِي طائعاً غيـرَ جَامِحٍ
وأَرْضَى بإطْراقِي على الرِّيْبِ أو غَضِّ

ويفضَحُـني فيكِ اقتحامِـي وغَيْرَتِي
وَطَرْفِي، وما جَسَّ الأطبَّاءُ من نَبْضِي

ويأكُلُ قَـلبِي مـا أُكـتِّـمُ راضـيًـا
فما بكَتِ العَيْنُ الشَّبابَ الذي يمضِي!

وأنتِ.. لعَـمْرِي في سُرورٍ وغِـبْطَةٍ
يَسُرُّكِ بَسْطِي في الحـوادثِ أو قَبْضِي

أأُنثَى ووَحْشٌ؟! جَلَّ خـالِقُ خَلْقِـهِ!
وسُبْحَانَ كاسِي الوَحْشِ من رَونَقٍ غَضٍّ!

* * *

وأعْــجَبُ منـهُ لَذَّتِي ومَـسَــرَّتِي
على حِينِ نَهْشِي في المخالبِ أو نَفْضِي

فيا سُـــوءَ ما أبْقَيْتِ في الدَّمِ من لَظًى
وفي الفِكْرِ من كَلْمٍ وفي القَلْبِ من عَضٍّ[1]

---

(١) الكلْم: الجُرْح.

أخافُك في سرِّى وجَهْرِى، ومَشْهَدِى
لَدَيْك وَغيْبِى، خَوْفَ أرْقطَ مُنقَضٍ[١]

* * *

لَقَدْ كنتِ أحلامى- إذا الليل ضَمَّنى،
وكنت إذا ما الفَجْرُ أيْقَظَنِى- رَوْضِى
يُناجِيكِ طَيْرٌ فى الضُّلُوعِ بِلَحْنِه
لقدْ عاشَ فى سِحْرٍ، وقد عِشْتِ فى خَفْضِ[٢]
وكنتِ على وَرْدِ الخمائل زينةً
وكان بَشيرَ الفَجْرِ فى الفَنَنِ الغَضِّ
فأَصْبَحْتِ.. لاخيراً فيُرْجَى، ولا لَقًى
فيُلْقَى، ولَسْتِ من سَمائى ولا أرْضِى

* * *

تَصامَمْتِ عن قَلْبِى ورُمْتِ مَساءَتِى
وتَنْتَظِرِينَ الحُبَّ! انْتَظِرى بُغْضِى[٣]

* * *

(١) الأرقط: النَّمر، صفة غالبة غلبة الاسم للونه، فأصل الرَّقْط: سواد يشوبه نُقَط بياض أو العَكس. (٢) الخفض: لِين العيش ونَعْمته.

(٣) حق هذه الهمزة أن تكون همزة قطع لاستقامة الوزن. وأكثر ما يكون قطع الهمزة فى أول الشطر الثانى، ولكنه ورد فى الشعر فى حشو البيت، وذلك من ضرائر الشعر.

حيرة

نشرت بمجلة الرسالة، السنة الرابعة فى ٢٩ جمادى الأولى ١٣٥٥هـ
١٧ أغسطس ١٩٣٦م

أشَابَ القَلْبُ أم كَرِهَ الشَّبَابا؟
وبان الأُنسُ أمْ نَسِىَ الإيابا؟!
وغالبَنى الأسى أمْ غالَبَتْنى
حياةٌ تَجْعَلُ الفَوْزَ اغتصابا؟
أتَغْصِبُنى الدُّموعُ الصَّبْرَ حَتَّى
أرَى الدُّنيَا أنِينًا وانتِحَابا؟!
ويُبْدِلُنى الزَّمانُ من التَّصَابِى
ومِنْ طَرَبِى وُجُومًا واكتِئابا؟!
وأسْأمُ لَذَّةَ الدُّنيا، ولَمَّا
أذُقْ مِنْ لَذَّةٍ إلَّا حَبَابا![1]

(١) حباب الماء: فقاقيعه التى تطفو على سطحه، ضربه مثلاً لقلة ما نال.

فــأزجُــرُ لَذَّتــى زَجْــرَ اليــتــامى

إذا مـــــا الدَّهْــرُ أمَّ بِهــم ذِئابـا

أفى وَهَجِ الشَّبَـابِ أعــودُ هِــمًّا

يذودُ بضـعفـه النُّوَبَ الصِّعَـابا؟![1]

وأطرِقُ للـحــوادثِ مُــسْـتكـينًا

كـجـانى الشَّـرِّ يـنتظرُ العِـقَـابا!

وأُصــبحُ فى يدِ الدنـيـا أسـيــرًا

إذا رَام الفِـكاكَ وَهَـى وخَـــــابا!

كـــمـــا عَلِقَ الحِــبَــالَــةَ ذُو جَناحٍ

ولم يَنْفَعْـهُ أن صحِبَ السَّـحابا![2]

فـصــفَّقَ.. ثم رنَّقَ.. ثم أعْـــيَى

يَحِــــنُّ لدارِه جَــــوًّا وغَـــابــا[3]

* * *

(١) الهِمّ: الشيخ الضعيف.

(٢) علِق الحبالَة: نَشِب فى شَرَك الصائد. صحب السحـاب: حلّق فى الجو علوًّا حتى لامس السحاب.

(٣) صفَّق الطائر بجناحيه: ضرب بهما. رنَّق الطائر: كَسَرَ جناحيه من داءٍ أو رَمْى حتى يسقط.

أَمِنْ عَـدْلِ الحـوادث أنْ أُضَـرَّى

لأَطْعَـمَ إثْرَ لـذَّتِهِـنَّ صَـابا؟!

وأنْ أستَـقبِلَ الغَـدَ مُسْتَـثِيبـاً

فـيُـقْـبِلَ.. لا أفَـادَ ولا أثابا؟!

وأحَـمِـلَ من بـنات الهَـمِّ قَلْبـاً

إذا نَهْـنَهـتُـهُ زاد اضطـرابا؟!

جـزاكِ الله من دنْيَـا خَـتُـولٍ..

غَـذَوْتِ الـقَلْبَ شكّاً وارتيـابا![1]

* * *

أتنهـانِى عن الجَـزَعِ اللَّيـالى

ومـا تَنفكُّ تَتـرُكُنى مُـصَـابا؟!

فتَـسْـلُبنى الأَحِـبَّـةَ عَـنْ عِـيانٍ

وتَمـنَحُنـى بذِكْـرَاهم عَـذَابا

---

(١) الختول: المُخادِعة.

وتسـألـنى اختـداعـاً: أين بانوا؟

ومَنْ يُجْـرِمْ توقَّـحَ أو تغَـابَى![1]

سَلِى ما شئتِ، واستـمعى شكَاتى

كـمِـثْلِ الدَّمْعِ تَـنْسكِبُ انسكَابا

أعَـدْلٌ منكِ أنْ أجَّـجْتِ قَـلْبى؟!

فلولا الـصَّـبْـرُ يُمْـسِكُـه لذابا!

فـصَارعتُ الشُّجونَ وصَارعـتنِى

إلى أن فُـزْتُ بالبُـقْـيَـا غِـلابا

فـإنَّ الدَّهْرَ يُنصِفُ مَنْ تَأبـَّى

ويَمـنعُ يائسًا مـن أنْ يُجـابا!

ومَـنْ يُعْـطَ التَّـجَـلُّدَ لـلرَّزايا

تَيَـقَّن أن يُـصِـيبَ وأن يُصَـابا

* * *

(١) بانوا: ذهبوا وبعدوا وتفرَّقوا.

وسـائـلةٍ بظَهْـر الغَـيْـبِ عنّى

وعَنْ جَـلَلٍ من الأحــداثِ نـابا

تُذكّـرُنـى الأحِـبَّـةَ يـومَ ولَّوْا

فـزادَ الدَّمْعُ والجَـزَعُ انـتـيـابا

أَحَـافظَتِى.. فـديـتُكِ من صـديقٍ

يُسـائِـلُ مَنْ مَـضَى عنِّـى وآبا

هِىَ الدُّنيَـا.. تُفَـرِّقُ سـاكنيـهـا

وفى الذِّكـرَى.. تَزيدُهمُ اقـتـرابا!

ألا لا تَعْـجَـبِى لىَ مـن نَحِيـبِى

فـإنَّ أمـامَـنا العَـجَبَ العُـجَـابا!

* * *

من ديوان البغضاء:

عقوق ..

نشرت بمجلة الرسالة، السنة الرابعة فى ٢٤ شعبان ١٣٥٥هـ
٩ نوفمبر ١٩٣٦م

مِلْ بِنَا يا فُؤادُ! نَنْسَى المودَّاتِ، ونُلقى إلى العَداوةِ حَبَّا
وتَعالَىْ يا ربَّةَ الأرْقشِ الخَدَّاعِ، وارْعَىْ ما بينَ جَنبىَّ خِصْبَا[1]
وَجناحَيْكِ، فانشُرِى وأظِلِّى بُقعةً من مَقابرِ الحُبِّ جَرْبَا
وامنعى نَفْثَةَ الوفَا واحجُبِيها رُبَّ ذِكْرَى أحْيَتْ مَواتًا أجبَّا[2]
وانظرى نَظْرةَ العُقابِ إذا أبْصرَ صَيْدًا، فرامَه فَاشْرأبَّا
وانفُضِى النَّاسَ نَفْضةَ الأسَدِ المجروحِ أشلاءَ صَيْدِه والإرْبَا
وتَعَالَىْ. . أنا الصَّديقُ، ويا أعجبَ مَنْ يَجعلُ العَداوةَ صَحْبَا!
ولئن كانَ ما رَعَيْتِ من الأضلاعِ جَدْبًا، فلنْ أسومَكِ جَدْبَا
واعلمِى أنَّنى تَرَكْتُ وفاءَ الحُبِّ زُهدًا، ورُمْتُ فيكِ الحُبَّا

* * *

(١) الأرقش: الحية فيها نقط سواد وبياض، وأكثر ما يقال: الرقشاء، والحية تُذكَّر وتؤنَّث.
(٢) الأجب: أجَبَّ الشىءَ: قطعة واستأصله.

هذه كفُّ خـائضٍ غَـمَـراتِ الحُبِّ أبْلَى فـيـها بـلاءً صَعْـبَـا
مُسْتَـميـتًا. . قد غالَبَ الموتَ والحُـبَّ ونال الحياةَ كَسْبًـا وغَصْبا
وانْـثَـنَى مُـثْقَلَ الكَواهِـلِ عُذْرا مُـثْخَنًا بالجِـراح تَدْمَى دَأْبا[١]
تِيك أُنـثَى! ودونَهـا الآبِدُ الطَّـاوِى إذا سَاوَرَ الفَـرِيسةَ وثْـبا[٢]
يا لعَيْنيك. . . شبَّتَا فى دَمِى النارَ شُوَاظاً، يَعُبُّ فى الدَّم عبَّا[٣]
وبَنانٍ أقْـسَى من القِـدِّ فى النَّفْـسِ، وإنْ خِلْـتُـه بَنانًا رَطْبَـا!

* * *

آهِ مِنْ غَفْلةٍ. . إذا خَطَرَتْ لى مـلأتنِى غَيْظًا وحقْـدًا وحَرْبًا[٤]
قـد رَمَـتْنِى فى جَـاحِمٍ يـتَلَظَّى فـإذا مـاتَ أرَّثَـتْـهُ فـشَـبَّـا[٥]
أوَفَـاءً لِغَـادرٍ يتَـسَلَّى بعـذابى؟! تَـبًّـا - لذا الحُبِّ - تَـبًّـا!
الْـمَحَبَّاتُ تَقْتُلُ القَلْبَ قَـتْلاً والعَداواتُ تُرِدفُ القَلْبَ قَـلْبًا![٦]

---

(١) دَأْبا: يعنى لا تتوقف، يقال: دَأَبْتُ دَأْبًا، أى اجتهدت فى الشىء فلم أقصِّر.
(٢) الآبد: المستوحش المنفرد. الطاوِى: الجائع.
(٣) يعب: يندفع كالعُباب، أى الأمواج.
(٤) الحوب هنا: العَداوَة.
(٥) الجاحم: جاحم النار توقدها. أَرَّث النار: زاد فى وقودها.
(٦) يردف: يُتْبِع. القلب: تحويل الشىء وصَرْفه عن وجهه الذى كان.

فتعالَىْ . . يكُنْ كـمكْرِكِ مكْرِى وأكُنْ فى الحُروبِ رَوْعـًا ورُعْبَا

لا تُولِّى وتتـركِـينى وحـيدًا . . لسـتُ أبغِى بغـيرِ قُـربِكِ قُـرْبَا

وانفُثِى فِىَّ نَـفْثَةَ السِّـحْرِ حتَّى أقْـهرَ الناسَ والأُسـودَ الغُلْبَا[1]

فَـألَـدُّ الأعـداءِ مَنْ علَّمَـتْـهُ مِـحَنُ الحُبِّ أن يَعُقَّ الحُـبَّا!

* * *

(١) الغُلْبا: الغلاظ الرِّقاب، وهى صفته لازمة للأسود، وتستعار لسادة الناس.

من ديوان البغضاء:

أَلَسْتِ الَّتِى ...؟!

نشرت بمجلة الرسالة، السنة الخامسة فى ٢٩ شوال ١٣٥٥هـ
١١ ينـــاير ١٩٣٧م

بَلَى! كنتِ فى قلبى سِـرَاجًا يُضِيئُه
فيَــفْـتَـرُّ عن أنوارِه كـلُّ جـانبِ
وكنتِ حـيـاةً للحـيـاةِ تُمِـدُّها
بأفـراحِـها فى عَـابسـاتِ المصـائبِ
وكنتِ لـىَ البَـرَّ الوَديـعَ إذا غَلَتْ
بأمـواجِـهـا وادَّافَـعتْ بـالمناكبِ
وكنتِ نَسيـمًا واللَّظَى يَنْشِفُ اللَّظى
ويَتْـرُكُ ظِلَّ الدَّوْحِ ظِلَّ اللَّواهبِ[1]

---

(١) اللظى يَنْشِف اللظى، أى هو دفعات متتابعة يأكل بعضها بعضا.

وكنتِ مَـلاذِى والشُّـؤون كـأنَّهـا

من الدَّمع يَنْبُـوعٌ يَـجِيشُ بغَـارِبِ[١]

وكنتِ إذا مـا العَيْنُ مَـدَّتْ هُيَـامَهَـا

إليكِ تَـلقَّــتْـهـا أحَنُّ التَّــرائبِ

وكنتِ كـأنفاسِ الرِّياضِ، عَـبيـرُها

على الفـاقِـدِ المحزونِ فَـرْحـةُ آيبِ

* * *

بَلَى! كنتِ. . كنتِالسِّحْرَتبدوصُدُورُه

من الخَـيْرِ تُخْـفِى منه شَرَّ العـواقبِ

أرى الحَـيَّـةَ الرَّقْطاءَ أَجْــمَلَ منظرًا

وأَلْيَنَمَـــسًّا من ثُدِىِّ الكـواعبِ[٢]

إذا مـا تـراءَتْهَـا العُــيـونُ بَرِيـئَـةً

من الخَـوفِ خـالَتهـا دُعَـابةَ لاعبِ

---

(١) الشؤون: مجارى الدمع. الغارب: الكثير الماء حتى يفيض.

(٢) الحية الرقطاء: التى فى لونها نُقَط بياض يشوبه سواد.

تدانَى إلـى اللَّاهِى دُنُوَّ مُـقــارِبِ

فـيدنو ويُدْنِى كـفَّـه كالـمُـداعبِ[1]

ألا ارْفَعْ يداً. . واذْهَبْ بنَفْـسِكَ رَهْبَةً

فَمِنْ حُـسْنِها نابٌ شـديدُ المعَاطبِ!

* * *

بَلَى! كنتِ. . إذْ عَيْنِى عليها غِشَاوةٌ

وإذْ أتردَّى من سَـوادِ الغـيـاهبِ

وأُخـرى على عينِ البَصـيرَةِ خَـيَّلتْ

لنفـسِى هُدَاهـا بالأَمَـانِى الكَواذبِ

أرَى من تكاذيـبِ الخَـيـالِ كـأَنَّنى

إلى جَنَّةِ الفِــرْدَوْسِ أَحْـدُو رَكـائبِى

أُغنِّـى لآمَــالى لأبْـلُغَ غــايـتى

وأُدرِكَ لـذَّاتى، وأَجْـنِى مـطـالبِى

---

(١) تدانى: حذف إحدى التاءيْن.

ومـا ذاكِ إلّا راحـةُ القَلْبِ بالهـوَى

وبالوُدِّ فى عَـيْـشٍ شَـديدِ المتـاعبِ

وأنْ أَرِدَ المـاءَ الـزُّلالَ - ولـم أرِدْ

وقد عِشْتُ دَهْرًا - غَـيْرَ رَنْقِ المشارب![1]

ألا فـاعْـلمِى أنِّى ظَمِـئتُ، وأنَّنى

تَجنَّبْتُ -جُهدى- الماءَ جَمَّ الشَّوائب

فَـجِـئْـتُك ظَمْـآناً يَمُـوتُ بِغُلَّة

فأغْرَيْتِ بِى الغُلاّتِ من كُلِّ جانبِ!

* * *

لقدْ كُنتُ خِلْوًا أنتحِى حـيث أشتهِى

وأرْضَى وآبَى. . مُقْـدِمًا غَـيْرَ هائبِ

تُسَـهِّلُ لِى الصَّـعْبَ الأبِىَّ عَـزِيمَتى

ويكْفُلُ لى صِـدْقِى قـضاءَ مـآربى

وأرمِى بنفْـسِى فى المهالكِ باسِـمًا

لأنْفُـذَ منهـا باسِـمًا غَيْـرَ خـائبِ

---

(١) الرنق: الماء الكَدِر.

فَوَاحزَنَا!.. أضْلَلْتُ عَزْمى وهِمَّتى

وأيْتَمْتُ أفكارى.. وَضيَّعْتُ وَاجبى!

تَخشَّعتُ تَحْتَ الحُبِّ وَالوَجْدِ وَالجَوَى

وَطولِ اضطرابِى فى الهُمومِ الغَوالِبِ

أذَلَّ شَبابى الحُبُّ حَتَّى رأيتُنى

أمُرُّ بأتَرابى مُرُورَ المُجانِبِ[1]

وأحْسُدُهم مِمَّا لَقيتُ، وَإنَّنى

لأخْشَى عليهم مِحْنَتِى وَتَجارِبِى

* * *

ألا وَيحها!! كَمْ بِتُّ أرْقُبُ طَيْفَها!

وكم سَهِرَتْ عَينى نَجِىَّ الكَواكبِ![2]

وكَمْ طُفْتُ بالبَيْداءِ أطْلُبُ خَلْوَةً!

وأُرْسِلُ طَرْفى فى ضَلالِ المذَاهبِ!

---

(١) الأتراب: مَنْ هُم فى مثل عمرك، المفرد: تِرْب.

(٢) النجىّ: المُناجِى.

أمثِّلُها حتَّى أكادَ أمَسُّها!

وألقِي إليها ما تَضُمُّ جوانبِي!

وأشتاقُها وَالبَحْرُ بَيْنِي وَبينها

وَبِيدٌ تعَاوَتْ بالرِّيَاحِ الغَواضِبِ!

فلمَّا التقينَا ضَمَّنَا الشَّوقُ وَالهوَى

وكَانَ حَديثَ الوَصْلِ صَمْتُ الرَّغائبِ

ولَكنْ.. رَمَتْ بينى وَبينَكِ بَعْدَهُ

ضَرِيبةُ أُنثى.. وَهْيَ شَرُّ الضَّرَائبِ![1]

فاطْلَقَتِ فى إثْرِى الضَّوارِى مُجِدَّةً

تُعَانُ على أنيابِها بالمخَالبِ

تُمَزِّقُنى ألْحَاظُها وَعُيونُها

كأنِّىَ أُرْمَى بالسِّهَام الصَّوائبِ

يُفَزِّعُنى ظِلِّى إذا ما لَمَحْتُه

وَقد غالَنى رُعبِى وَسُدَّتْ مَهارِبِى

---

(١) الضريبة: الطبيعة والخليفة.

فمـا كِدْتُ أنجـوُ بالحُشَـاشةِ بعـدما

تَلَقَّيْـتُ من حُبِّيكِ شـرَّ النَّـواكبِ[١]

* * *

ألا لا تقولى كيفَ كنتِ!!.. فإننى

أرى كُلَّ أُنثَى شـرُّها غَـيْـرُ غـائبِ!

تَرومينَ منِّى الـوُدَّ بُقْـيَا عَلَى الذى

مضى؟!.. خابَ فَألِى أن أُرَى غَيْرَ ثائبِ!

ترومينَ منى الوُدَّ؟!.. تِلْكَ عَجيبةٌ!

وأسعَى لِذَبْحِى؟! تِلْكَ أُمُّ العَجائبِ!

تَشَهَّـيْتِ لَحْمًـا، فاتَ مـا تشتهـينَه

فلمْ يَبْقَ من لَحْمِى طَعامٌ لِسَاغبِ![٢]

تَملَّيْـتُ هذا البُـغْضَ حَـتَّـى رأيتُنى

أُرَبِّبُ حَـيَّـاتِى وأغذُو عَـقـاربى![٣]

---

(١) حُبِّيك وحُبُّك بمعنى.

(٢) الساغب: الجائع.

(٣) تَمَلَّى الشىء: صاحبه ولازمه زمنًا. أربب: أنميها وأتعهّدها.

فـإنْ يَكُ بُغْـضِي كلَّ ذَنبٍ جَنَيْـتُـه

إليكِ، فـإنِّي لسـتُ منه بتـائبِ!

وكـيف.. وقد أنْهكْتِـني وعَرَقْـتِني

وقُدْتِ عَلَىقلبيجُيوشَ النوائبِ؟![1]

ذَرِيني.. ولكـنَّ الحـيَـاةَ مليـئـةٌ

بِكُنَّ!..فما فيالأرضِمَنْجًىلهاربِ!

* * *

(١) عَرَق اللحم: أخذه فلم يبق إلا العظم.

رماد

نشرت بمجلة الرسالة، السنة السابعة فى ١٢ ذى القعدة ١٣٥٨هـ
٢٥ ديسمبر ١٩٣٩م

لا تَعْبَثِى بفؤادِى ... وأكْرِمِى آلامِى
شَبَبْتِ فى القَلْبِ نارًا ... من لَوْعةٍ وهُيَامِ
أضْللتِنى عَنْ حَياتِى ... بِلَذْعةٍ واحتِدامِ
فما أخافُ ورائى ... غَيْبًا، أراهُ أمامى
أرتابُ حَتَّى أرانى ... فى حَيْرةٍ وظَلامِ
فى مَهْمَهٍ مِنْ شُكوكٍ ... قَفْرٍ من الأعْلامِ[1]
لا أهتدِى لِنَجاةٍ ... فى أُفْقِهِ المُتَرامى
اسْوَدَّ لَيْلى، وصُبْحِى ... مُلفَّفٌ فى قَتَامِ[2]
فلا أرى من دَلِيلٍ ... يَهْدِى خُطَى أقدامى

---

(١) المهمه: الصحراء الواسعة المقفرة. الأعلام: علامات توضع فى الطريق ليُهتدى بها، المفرد: عَلَم.
(٢) القتام: الغُبار.

صَحِبتُ نَفْسِي، ونَفْسِي   من صُحْبَتى فى اضطرامِ

كــأنَّـنا فـى زِحـــامٍ   يَرمـى بنا فـى زِحــــامِ

مُـجَـرَّحَـيْنِ كُـلُـومًا   مِنْ صَـدْمَــةٍ ولِطامِ[1]

حـتَّى أُبِيَـدَتْ قُـوَانا   فنحنُ صَـرْعَى مُـدَامِ

ثُمَّ اسْـتَـفَـقْتُ فطارتْ   لَـوَاهِـبٌ فى عِـظَـامى

قَلبـى ورُوحِى وعَـيْنى   - وكـلُّـهن ظَـوَامـى -

لا يَهْـتَـدِينَ لِبَـرْقٍ   مُـبَـشِّـرٍ بِـرِهامِ[2]

ولا لِنُـطْفَـــةِ مـــاءٍ   تَـبُلُّ حَــــرَّ أُوَامِ[3]

وعُـدْتُ فَـرْدًا وَحِـيدًا   يَجُـوبُ غَـوْلَ المَوَامِى[4]

حَـيـرانُ أعمَى عَـجـولٌ   مُـصَـوَّرٌ من سَـقَـامِ[5]

يكـادُ يَعْـثُـرُ وَهْـنًا   بنفـسِـه فـى القِـيَـامِ

تخـطَّفَـتْـهُ شُـكوكٌ   جَـيَّـاشـةٌ كـالـضِّرَامِ

---

(١) الكلوم: الجروح، جمع كَلْم.

(٢) الرِّهام: المطر الضعيف الدائم.   (٣) الأوام: شدة العطش.

(٤) المَوامِى: جمع المَوْماة، وهى الصحراء التى لا ماء فيها ولا أنيس.

(٥) مصوَّر: مـائل، لا يكاد يتماسك، وأصل هذا الفـعل ثلاثى، وضعّفه أسـتاذنا للمبالغة.

لمْ تُبْـقِ إلّا حُـطَـامًا ‏ ‏ يَنْقَضُّ فَـوقَ حُـطَامِ

تَسْـتقبِـلُ الأُذْنُ منه ‏ ‏ حِـسًّا كَـمَيْتِ الكلامِ

تَخَـالُه من فُـتُـورٍ ‏ ‏ مَنَـاحَـةَ الأيتَـامِ

مُـفـزَّعِينَ وُجُـومًا ‏ ‏ يَبْكـونَ فـوقَ رِجَـامِ[1]

* * *

يا مَـاثِلًا لعُـيُونِى ‏ ‏ وطَـائِـفًا فى مَنامِى

وسَـابِحًا فى سُكُوتِى ‏ ‏ وسَارِبًا فـى كَـلامِى[2]

وحَـاسِـرًا عن فُـؤادٍ ‏ ‏ صَبٍّ فُـضُولَ اللِّثَـامِ

أفْـنَى شَـكاتِـى، وأوْدَى ‏ ‏ بِعَـتْبِـهِ ومَـلامِى[3]

مـا كنتُ أَحْـسِبُ دَلًّا ‏ ‏ يَسِيلُ سَيْلَ انتقَامِ!

أو أنَّ سُكْرَ شَـبَـابٍ ‏ ‏ يَحُورُ سُكْرَ عُـرَامِ![4]

يَقسُـو فـيرمِى بسَـهْمٍ ‏ ‏ مَـهْدَ الجُـرُوحِ الدوامِى

---

(١) الرِّجام: القُبور، وأصلها الحجارة المجتمعة التى توضع فوق القبر.

(٢) السارب: الماضى فى الأرض ظاهرًا غير مُسْتخفٍ.

(٣) العَتْب: المَوْجدة والغضب.

(٤) يحور: يعود ويرجع. والعُرام: الشِّدة.

أحـببتُ مِلْءَ فـؤادى ومِـلْـؤُهُ أوهـامِـى
حـتَّى وَجـدْتُ كـأنّى أعـيشُ مِنْ أحـلامِـى!

* * *

مـلأتِ دُنيـاىَ نوراً يُضـىءُ دُنيـا الأنامِ
فكـلُّ مَـرْأى عـليـه حَـلاوةٌ من وَسَـامِ[1]
يَغْـذُوهُ نورُكِ حُـسْنًا حَـيًّا كـصَـوْبِ الغَمامِ
فـمـا ترى العَـيْنُ إلاّ زَهْرًا عـلى أكْـمـامِ
أنفـاسُـهُ عَـطِراتٌ نشْـوَى بغـيـرِ مُـدَامِ
مُـمـثّـلاتٌ لِرُوحِى مُـعَـرْبِـدَاتُ القَـوَامِ
أُصْـغِى إلـى أنْغَـامِ أُصْغِى.. إخالُ.. كأنِّى
تدنو فـأدنو، فـتـفنَى أنغـامُـهـا فى ظَلامِ
وتـارةً هِـى هَـمْـسٌ كلمْـحَـةٍ من سَـلامِ
كـأنهـا فـى ضـمـيـرى تُسِـرُّ بعضَ الغَـرامِ
أو يَسْـتَطِيـرُ سَنَـاها فى القلبِ ضَـوْءَ ابتسامِ

* * *

(١) الوسام مثل الوَسامة.

أوَّاهُ مِــن خَـــطَــراتٍ تَقــودُنــى بزِمـــامِ

لا تملكُ الـنَّفسُ منـهــا إلّا رَمـــــادَ الكـلامِ

قــد كانَ جَـمْـرًا فَنامَتْ أيقَـــاظُهُ فــى النِّيــامِ

واستيـقظتْ لى هُمُــومٌ حيــاتُهــا من خِـصامِ

أفنتْ شَـبــابَ خـيــالِى وعَـيَّـثَتْ فى نِـظامى

حــتَّى رأيتُ الـليـــالى تَـطـوفُ فى أيــَّامِـى!

* * *

اذكري قلبي ..

نشـرت بمجلة الرسالة العـدد ٣٤٤

سـنـة ١٣٥٩هـ، ١٩٤٠م

أُذكُـرى قَلْبِى . . فَـقَدْ يَنْضَـرُ مِنْ ذِكْرَاكِ عُـودِى

أنا غُـصْنٌ فـى رياضِ الدَّهرِ ظَمـآنُ الصَّـعيـدِ

صَـوَّحَـتْنِى غُـلَّةُ الوَجْـدِ وأجَّتْ فى بُرودِى[1]

ومَـشَتْ نـاراً علـى أنوارِ زَهْـرِى ووُرودِى

فَـهْـىَ ألْقَـاءٌ عـلى أرْضىَ آثـارَ وَقُـودِ[2]

فاذكرِى قَلْبِى . . فقدْ يَنضَرُ مِنْ ذِكراكِ عُودِى!

* * *

أنا غُـصْنٌ كـخَـيـالِ السَّـيفِ فـى وَهْمِ الطَّرِيدِ

---

(١) صَوَّح: أَيْبَس وجعله جافًا.

(٢) ألْقاء: جمع لَقًى، وهو الشيء المُلْقَى المهمل.

نَاحِلُ الشَّخْصِ، قضيفُ العُودِ، خُمْصَانُ الغُمودِ(١)
لَوَّحَتْنِى وَقْدَةُ الشمسِ على وَجْهِى وجِيدِى
كَمْ شُعاعٍ غارَ فى قَلبِىَ كالسَّهْمِ السَّدِيدِ
عَبَّ فى مائى، فغاضَ الماءُ كالحُبِّ الشَّرُودِ
فاذكرِى قَلْبِى.. فقدْ يَنضَرُ مِنْ ذِكراكِ عُودِى!

* * *

أنا غُصْنٌ شَاخِصُ الطَّرْفِ إلى رِىٍّ بَعِيدِ
أسَرَابٌ هُوَ.. أَمْ ماءٌ؟! فيا وَيْحَ جُدودِى!
أَثْبَتَتْنِى حَيْثُ أَشتاقُ إلى الماءِ البَرُودِ(٢)
هِىَ أشواقٌ من الموتِ كأشواقِ الحَسُودِ
تركَتْنِى مُوقَدَ الغُلَّةِ كالصَّبِّ الحَقُودِ
فاذكرِى قَلْبِى.. فقدْ يَنضَرُ مِنْ ذِكراكِ عُودِى!

* * *

(١) القضيف: الدقيق العظم القليل اللحم، فهو نحيف. الخمصان: الضامر. الغمود: جمع غِمْد السيف.
(٢) أثبتته جراحه: اشتدت عليه فلم يتحرك.

أنا غُـصْــنٌ حَـائرُ الأحــلامِ كـالنائى الـشَّـريدِ

غُــرْبةُ الرُّوحِ تَهــاوَتْ بى إلى أَرْضِ الجُـحــودِ

قَـــذَفـتْنـى همَّـةُ الأَحْــرارِ فى ذُلِّ العَـــبيـــدِ

الصَّـدَى، والجَدْبُ، والغُـرْبةُ، سِـجْنى وقُيـودى

مَــزَّقَتْ نَضــرَةَ أيـَّامِى بـأنيــابِ الخُـمــودِ

فاذكرِى قَلْبى.. فقدْ يَنضَـرُ مِنْ ذِكراكِ عُودِى!

* * *

أنا غُــصْـنٌ يُفْــزِعُ الفَــجْــرَ بليْلٍ مِنْ رُكــودِ

يَتلـقَّى مَــوْلِـدَ الشَّــمْـسِ بأحــزانِ هُـجُــودِ

لوْ بكَى عُــودٌ من الوَحْــشَـةِ فى ذُلِّ الـوجُـودِ

لأذابتْ شَـخْــصِىَ الآلامُ كـالدَّمعِ الـبَــديدِ

أنكَرَتنى الـشَّـمْـسُ والفَـجْــرُ ودُولاتُ العُـهـودِ

فاذكرِى قَلْبى.. فقدْ يَنضَـرُ مِنْ ذِكْراكِ عُودِى!

* * *

أنا غُصْنٌ فارَقَتْه الطَّيْرُ ربَّاتُ العُقودِ[1]

مُسْكِراتُ الزَّهْرِ والنَّوْرِ بألْحَانِ النَّشيدِ

نَغَمٌ هَمْسٌ كهَمْسِ الغَيْثِ للرَّوْض المَجُودِ[2]

وشَبابٌ ضَاحِكُ النُّورِ بتَرْجيعٍ فَريدِ

وأنا.. الحَسْرةُ والأنَّاتُ لَحْنى ونَشيدى!

فاذكرى قَلْبى.. فقدْ يَنضَرُ من ذِكراكِ عُودِى!

* * *

غُصُنٌ عارٍ.. وأغصانُكِ فى بُرْدٍ جديدِ

قدْ كَساكِ الرِّىُّ والنَّعمةُ من وَشْىِ البُرُودِ

وتَحلَّى عُودُكِ الرَّيانُ نُوَّارَ الخُدُودِ

---

(١) حين بقى نوح عليه السلام فى اللُّجة أيامًا بعث الحمامة لتنظر هل ترى فى الأرض موضعًا يكون للسفينة مرفأ. فاستَجْعَلت على نوح الطوق الذى فى عنقها فجعله جُعْلا لها (الحيوان ٢ : ٣٢١). وقال الثعالبى إن الله سبحانه وتعالى أعطاها تلك الزينة بدعاء نوح حين رجعت إليه ومعها من الكَرْم ما معها، وفى رجليها من الطين ما فيها، فعُوِّضت من ذلك خِضاب الرجلين، ومن حُسْن الدلالة الطاعة طوق العنق (ثمار القلوب ٤٦٥) فجعل الأستاذ الطوق: عِقْدا.

(٢) المجود: الذى أصابه المطر الجَوْد، وهو الكثير الدائم.

فإذا النَّشْوَةُ هَزتَّك بأنفاسي.. فَمِيدِي

وإذا غنَّاكِ سَاقِي الطَّيْرِ لَحْني أو قَصيدي

فاذكرِي قَلْبِي.. فقدْ يَنضَرُ من ذِكراكِ عُودِي!

* * *

تحت الليل

نشرت بمجلة «الرسالة» ١٣٥٩هـ
عـــــدد ٨ سنة ١٩٤٠م

أَهِيمُ.. وقَلْبِى هَائِمٌ.. وَحُشَاشَتِى
تَهِيمُ.. فهَلْ يبقَى الشَّقِىُّ المبَعْثَرُ؟
وهَلْ يهْتَدِى غَاوٍ أضَاعَ حَيَاتَهُ
بحيثُ يَضِيعُ الطَّامِحُ المُتَجَبِّرُ؟
وهَلْ تَسْكُنُ الدُّنيا ويَسْكُنُ صَرْفُها
ويَسْكُنُ هذا النَّابضُ المتَفَجِّرُ؟
وهَلْ تُطْفِئُ الأيامُ نِيرَانَ ظُلْمِهَا
وتَطفَأُ نارٌ فى دَمِى تَتَسعَّرُ؟

* * *

لَئِنْ أَبْقَتِ الآمَالُ مِنِّى، لَطَالما
تَقَلَّبْتُ فى آلامِهَا أتَضَوَّرُ

تَنَـــازَعُنِى مِنْ كلِّ وَجْـهٍ بِســـاحِرٍ
يُمَـــثِّلُ لى إقْبَـــالَهـا ويُـصَــوِّرُ[1]

فيَهْوِى لها بَعْضِى . . وبَعْضِىَ مُوثَقٌ
بأشـواقِه الأُخـرَى إلى حَـيْثُ يَنْظرُ

أضَـاليلُ من سِـحْـرِ الحـيـاةِ وفِـتْنَةٌ
تَهـاوَى إليـها مُـسْـتهـامٌ مُـسَحَّـرُ!

* * *

أبَى القَـلْبُ إلَّا أنْ يَرَاها قَـــرِيبَـــةً
كــأنَّ رضَـاها مُـــزْنَةٌ تَتَـحَـــدَّرُ[2]

يَرِفُّ شَـبابُ القَلْبِ فـى قَسَـماتِهـا
تكادُ تَـراهُ ضَـــاحِكًا يَتَــــحَـــيَّـــرُ

تُضِىءُ ليـــالِـى هَمِّـــهِ بخَـيـالِـهـا
كَـــمـــا سَلَّ هَـمَّ الليْلِ نَجْـمٌ مُنَوِّرُ

---

(١) تنازعنى: حذف إحدى التاءين.

(٢) المزنة: السحابة المحملة بالماء.

وهيهاتَ ! ضَلَّ القَلْبُ . . إنَّ بقاءَها
بَقـاءُ رَبيعِ الزَّهْرِ أو هُوَ أَقْـصَـرُ!

* * *

سَـرَتْ فِى دَمٍ يَغْلِى كـأنَّ اندفـاقَـهُ
مِنَ القَلْبِ ينْبُوعٌ من الوَجْدِ يُسْجَرُ[١]
تَـمُـرُّ بـه الأَفْكَارُ وَهْـىَ نَديَّـةٌ
فـمـا هِىَ إلا جَـمْـرَةٌ تَتَـدَهْوَرُ[٢]
إذا سكَنَتْ فـى اللَّيْل كلُّ خَـفِـيَّـةٍ
سَـمِعْتُ صَلِيـلًا فى دَمِى يَتَحـدَّرُ
فَـهَلْ ترحَمُ الأيـامُ أو تهـدأُ المُنَى؟!
أبَى حُـبُّـهَـا إلّا شَـقَـاءً يُـدَمِّـرُ!

* * *

(١) يسجر : يفيض لامتلائه .
(٢) الدهورة: جَمْعُك الشيء وقذفك إياه فى مَهْواة .

الرَّبِيع

نشرت بمجلة الرسالة، العدد ٣٥٣
٣٠ صفر ١٣٥٩، ٨ إبريل ١٩٤٠

أَيَّامُـهُ كـالغِـيـدِ، نَضَّـرَهَا ... تَرَفُ الصِّبَاوَغَضَارَةُ الحُبِّ
زُهْرٌ نَوَاعِمُ. . فى نَضَـارَتِها ... سِحْرُ الحَيَاةِ وَفِتْنَةُ القَلْبِ
تَمْـشِى بأَنْفَـاسٍ مُـعَطَّرَةٍ ... تُحْيِىبِرَيَّـاالحُبِّأَوْ تَسْبِى
تَنْسَابُ فى الصَّبَوَاتِ عَابِثَةً ... عَبَثَ الدَّلالِبِرِقَّةِالعَتْبِ[1]
وتَدِبُّ فىالأَرْوَاحِ نَشْوَتُها ... هَفَّافَـةٌ، نَفَحَاتُهـا تُصْبِى
عِطرُ الحَبِيبِعَلَى نَسَائِمِهَا ... يُذْكِى غَرَامَ الهَائِمِ الصَّبِّ
تُدْنِى إِلَيْـهِ خَـيَالَ مُـمْـتَنِعٍ ... بالدَّلِّ، مُبْتَعِدٍ عَلَى القُرْبِ
وتُرِيحُ أَشْـــوَاقًا مُـعَـذَّبَةً ... ظَمْأَى. . بلَذَّةِمَنْهَلٍعَذْبِ

* * *

(١) العَتْب: لَوْمك إنسانًا كانت له إساءة إليك فاستعتبته منها.

هَذَا رَبِيعُ النَّاسِ، واحَزَنِى! وَرَبِيعِىَ الأَشْوَاكُ فِى قَلْبِى!

أَغْضَى شَبَابِى فِى مُلاوَتِهِ كالشَّيْخِ تَحْتَ عَمَائِمِ الشَّيْبِ[1]

وَدَلَفْتُ بِالأَيَّامِ مُتَّئِدًا حُمِّلْتُهَا خَطْبًا عَلَى خَطْبِ[2]

أَمْشِى بِأَفْكَارٍ مُحَيَّرَةٍ بِالشَّوْقِ آوِنَةً وبِالرُّعْبِ

هَذَا شَبَابِى.. سَائِرٌ أَبَدًا بِرَبِيعِهِ فِى مُقْفِرٍ جَدْبِ

أَحْيَا الشَّبَابَ رَبِيعُ حُبِّهِمُ -نَعِمُوا بِهِ- وَأَمَاتَنِى حُبِّى!

* * *

(١) الملاوة: الحين من الدهر.

(٢) دلفا: مشى متقارب الخطو.

نشيد مولده صلى الله عليه وسلم

الاربعـــاء: ٩ ربـيع الأول سـنـة ١٣٥٩هـ

١٧ أبـــريـــل ســــــنـــة ١٩٤٠م

الإذاعـة

نشرت فى مـجلة الراديو المصـرى، العدد١٦

٨ ربــيـع الأول ســـــنـة ١٣٦٠هـــ

٥ أبـــريـــل ســــــنـــة ١٩٤١م

مَنْبعَ النُّورِ .. صَــلاةً　　وَسَـــلامًا يَانَــبِى
أَفْـتَــدِيهِ بِـحَـيَــاتِى　　وبِــأُمِّــى وَأبِـــى

* * *

سَبَّحَ الكَوْنُ وَصَلَّى وَسَجَدْ　　يَـوْمَ هَـلَّ .. وتَجَـلَّـى
وأَضاءَ النُّـورُ أرْجَاءَ الأَبَدْ　　فـاسْـتَنَـارَا .. وتَحَلَّى

* * *

مَنْبَعَ النُّورِ .. صَـلاةً　　وَسَـــلامًا يَانَــبِى
أَفْـتَــدِيهِ بِـحَـيَــاتِى　　وبِــأُمِّــى وَأبِـــى

* * *

جَدَّدَ الدُّنـيا بَشِيـرُ المَولِدِ　　حِـــينَ نَـــادَى
أيُّها الهَارِبُ عَـنْ دُنْيَا غَدِ　　عُــدْ .. فَــعَــادَا

* * *

مَنْبَعَ النُّورِ .. صَـلاةً　　وَسَـــلامًا يَانَــبِى
أَفْـتَــدِيهِ بِـحَـيَــاتِى　　وبِــأُمِّــى وَأبِـــى

* * *

هُوَ أفرَاحٌ وَحُبٌّ وَسَلاَمْ لِلفُؤَادِ المُسْلِمِ
فامْحُ بالأنْوَارِ آياتِ الظَّلامْ وَتَقَدَّمْ، واسْلَمِ
أيُّهَا المُسْلِمُ.. هذا نُورُهُ فَاتَّبِعْهُ، تَهْتَدِ

* * *

مَنْبَعَ النُّورِ.. صَلاةً وَسَلامًا يَانَبِى
أفْتَدِيهِ بِحَيَاتِى وَبِأُمِّى وَأبِى

* * *

من تحت الأنقاض

نشرت بمجلة الرسالة السنة ١١ في٢٣ جمادى الأولى سنة ١٣٦٢هـ
٣١ مـــايـــو ١٩٤٣م

حَسْرَةٌ وَلَّتْ، وَأُخْرَى أقْبَلَتْ
كَيْفَ؟ مِن أيْنَ؟ .. مَتَى؟ لم أعْلَمِ!
مَوْجَةٌ سَوْدَاءُ تَنْقَضُّ عَلَى
مَوْجَةٍ في بَحْرِ لَيْلٍ مُظْلِمِ
تَتَفَانَى وَهْيَ لا تَفْنَى، وَكَمْ
رَدَّهَا تَيَّارُهَا كَالضَّيْغَمِ!
صَمَّمَتْ، حَتَّى إذَا مَا الْتَهَمَتْ
نُورَ أيَّامِيَ طَاشَتْ في دَمِي[1]
فَهْوَ أمْوَاجُ ظَلامٍ.. لا تَرَى
لا تُبَالِي.. لا تَعِي.. لا تَحْتَمِي!

* * *

(١) صَمَّم السيفُ: مضى في الضريبة لا يعوقه عظم ولا غيره. طاشت: انتشرت في كل جانب، ففي حديث عمر رضي الله عنه: كانت يدي تطيش في الصفحة، أي تخف وتتناول من كل جانب.

زَهْرَةٌ حَنَّتْ، فَـبَـاحَـتْ؛ فَـذَوَت
أذْبَلَتْـهَـا نَفْـحَـةٌ لم تُكْـتَمِ

شكَـتِ البَـثَّ لِنَـجْمٍ سَـاطِـعٍ
ثُمَّ ظَـلَّتْ فى شُـعَـاعٍ مُـلهِمِ[1]

شَـعْـشَـعتْ عِطْرًا، فَـلَم يَعبَـأْ بِهِ
لَـثِمَ الْـمَـوْطِـئَ أمْ لَمْ يَـلْثَـمِ

فَضَّ سِـرٌّ سِـرَّهَا، فَـانْتَـفَـضَتْ
فَـهَـوَتْ سَـاجِـدَةً لَـمْ تُرْحَمِ

وَرَمَى النَّجْـمُ شُـعَـاعًا وَسَنًى
ثُمَّ ضَـاعَ النَّـجْمُ بَـيْنَ الأنْـجُمِ

* * *

قَـدْ جَـلاَ الوَهْمُ عَـرُوسـاً زُيِّنَتْ
لَبِـسَتْ حِلْيَـتَـهـا لِلمَـأْتَمِ[2]

---

(١) البث: شدة الحزن.

(٢) جلا العروس: أبرزها إلى زوجها فى تمام زينتها لينظر إليها.

إنَّمَـــا أثْوَابُهـــا أكْـــفَـــانُهـــا

وَالأغَـــانِى لَحْنُ قَـــبْـرٍ مُـــعْـــتِمِ

وَوجُـــوهٌ أشْـــرَقَـــتْ مِنْ نَشْـــوَةٍ

لَمْ تَـكَدْ. . ثُـــمَّ هَوَتْ لم تَـسْـلَمِ

شَهَـوَاتٌ أشْعَلَتْ[1]. . ثُمَّ خَـــبَتْ

لـم تكُـنْ إلا شَكَـاةَ الُمغْـــــــرَمِ

نَـظْـرةٌ، ثُـمَّ هَـــوًى، ثُـمَّ مُـنًـى

ثُمَّ. . وَانْـفَضَّ كَـــأنْ لم تَحْـلُمِ!

* * *

لا أرَى إلَّا فَـنَاءً أوْ سُـــــــــــدًى

فَـــبَـصِـــيـــرٌ فى ضَـــلالٍ أوْ عَمِ

ولَـيَـــــــــالٍ أظْـلَـمَتْ أنْـوَارُهَـا

ولَـيـــــــــالٍ نُورُهَـا لـم يُـظْلِـمِ

(١) أشعل: المعـروف فى هذا الفِعل: اشـتعل وتَشَّـعل، لازِمان، أمـا أشعل فـهو متعد، جعله أستاذنا لازمًا اقـتدارًا على عربيته. أو قد تكون أشعل هنا بمعنى كَثُر، كما يقال: أشعلت العَيْنُ، أى كثر ماؤها.

وَهُمَـــا الدَّهْـرُ. . فــلا لَـيْلَ وَلا

صُــبْـحَ، بَلْ وَالِدَةٌ لـم تَعــقَمِ

وَحَـــيَــاةٌ مِنْ فَـنَاءٍ فُــجِّـــرَتْ

لِفَـنَاءٍ فـى حَــيَـــاةٍ يَرْتَـمِى

كُلُّـهُ لَمْحُ وَمِـــيضٍ خَـــاطِفٍ

ثُمَّ. . لا شَىء . . فَـجَاهِدْ أو نَمِ!

* * *

الشَّجرةُ: ناسِكَةُ الصَّحراء !

نشرت بمجلة المقتطف عدد ١٠٢ سنة ١٣٦٢هـ- ١٩٤٣م

أيَّتُها الجرداءُ في بَلْقَعٍ
قَفْرٍ من النَّابتِ والسَّائرِ
مُفْرَدةٌ تنأى بأحْزَانها
عَنْ هَجْمَةِ النَّازلِ والزَّائرِ
وعَنْ حَديثِ اللَّهْوِ مِنْ صَاحبٍ
وعَنْ فُضُولِ النَّابِشِ الخَابرِ[1]
وعَنْ نِزَاعِ العَيْشِ في عِيشَةٍ
مَتَاعُها للفَاجِرِ الظَّافِرِ
وعَنْ سَوادِ الحِقْدِ في بَاطِنٍ
مُغَلَّفٍ بالنُّورِ في الظَّاهِرِ

(١) النابش: الذى ينبش الأخبار، أى يستخرجها، الخابر: الخبير مثل عالم وعليم.

.. عَنْ عَــالـمٍ زُورٍ .. أَباطِيلُهُ

حقٌّ، ولكــنْ.. فى يَدِ القَــامِـــرِ!

* * *

أَيَّـــتُـهـا الـشَّـمْطَاءُ فى مَـــوقِفٍ

كــأَنَّهُ مَـــقْـــبَـــرةُ القـــابِرِ!

أَظَلَّـهـــا المَـوْتُ بأَطَـيْـــافِــــهِ

فــمـــا خلَتْ مِنْ شَـبَحٍ خَـــاطِرِ

يا عَـــجَـــبًـــا مِنْ نَابتٍ فـى فَمٍ

يَقْـــضِـمُ فى الذَّابلِ والـنَّاضِـــرِ!

واقِــفَــةٌ صَـمَّــاءُ فى رُقْــعَـــةٍ

تَصَمُّ عــن نَجْــوَى خُطَى الـعَــابِرِ

كَــأَنَّهــا وَحْــشِــيَّــةٌ غَــالَهــا

مَسٌّ مِـنَ الجِنَّـانِ والعَـــــامِـــــرِ

خَــــاويةُ الـرأسِ ولكـنَّهـــــا

عَـــامِـــرَةٌ بالـشِّــعْـــرِ الثَّـــائِرِ

مُـغْـبَـرَّةٌ .. شَعْـبَـاءُ .. مَـحْنِيَّـةٌ

أمــالَهــا ثِقْلُ النَّوَى الـفَـاقِــرِ(١)

كَـــــأنَّـمـــــا تَـنْظُـرُ فى هُـوَّةٍ

تَشِــيـبُ فـيــهـا نَظْرَةُ الـنَّاظِرِ

مُلْـتَـاعَـــةٌ شَـــعَّثَ أفْـنَانَهَـــا

زِلْـزَالُ رَوْعٍ نَـافِضٍ قَـــــــاهِـرِ

صَـــوَّامَـــةُ الأيَّامِ مِنْ عِـــفَّـــةٍ

نَاسِـكَةٌ فى جِـلْدِها الـضَّـــامِـــرِ

لا تَسْـأَلُ الشَّـمْسَ شُـعَـاعـًا، ولا

تَسْـأَل عَنْ نَـوْءِ الحَـيَـا المَاطِرِ(٢)

لا تَطْعَـمُ الماءَ على جُـــوعِــهَـــا

غِـــذَاؤُها مِنْ رَمْلِـهَـا الزاخِـــرِ

---

(١) شعباء: عنى بها تفرُّق أغصانها، وأكثر ما يوصف بذلك قرون الوعول. وهى هكذا بالأصل، ولم يعلّق عليها أستاذنا فى نسخته. الفاقر: الذى يَفْقر، أى يحطم ويكسر.

(٢) النوء: النجم، والعرب تنسب كل غيث إلى نجم، فيقولون: مُطِرنا بنوء الثريا، ونوء الدَّبران، وهكذا.

وَهْوَ غِذَاءٌ جائِعٌ مُلْهَبٌ

يَلْتَهِمُ الأَحْيَاءَ بالخَاطِرِ

فكيفَ سَالمتِ سُعَارَ الفَلا

يا دَوْحَةً رَمْلِيَّةَ الحَافِرِ؟!

نَاقَضْتِ أتْرابَكِ فى نَبْتَةٍ

خَضْرَاءَ، يا بنتَ الثَّرَى العَاقِرِ!

* * *

مَا عَجَبِى مِنْكِ . . وما دهشتى!

اخْتَلَطَ الوَارِدُ بالصَّادِرِ!

نَحْنُ - كِلانَا - غُرْبَةٌ صُوِّرَتْ

تِمْثَالَ حَىٍّ سَاكِنٍ حَائِرِ

مُحْتَدِمِ الأشْوَاقِ . . مَشْبُوبِهَا

تَحْتَ خُمُودِ الظَّاهِرِ الفَاتِرِ

تَأخذُنا العَيْنُ . . ولو غُلْغِلَتْ

ذَابَتْ، وكانتْ شَحْمَةَ الصَّاهِرِ

نَحْنُ - كِلاَنا - أَمَلٌ مُؤْمِنٌ

بِحَقِّهِ فى عَالَمٍ كَافِرِ

أَثْبَتَنا الخِذْلاَنُ فى وَحْشَةٍ

تَطْفَأُ فيها جَمْرةُ النَّاصِرِ![1]

نَحْنُ - كِلانا - صَرْخَةٌ حُرَّةٌ

مَأْسُورَةٌ فى زَفْرةِ الزَّافِرِ

وكِبْرِيَاءٌ أُلْبِسَتْ ذِلَّةً

وعُوِّدَتْ إِطْرَاقَةَ الصَّاغِرِ

تَخْتَلِفُ الأَيَّامُ مِنْ حَوْلِنا

ونَحْنُ وَقْفٌ لِلرَّدَى الجَائِرِ!

نَحْنُ الأَحَادِيثُ، وأَرواحُنا

مُعَلَّقَاتٌ فى فَمِ الآثِرِ![2]

* * *

(١) طفئت النار (من باب شرب): ذهب لهبها.

(٢) أثَر الحديثَ (من باب ضرب): نقله وحدَّث به.

يا أُخْتَ ذِى النُّونِ . . انْشُرِى ظُلَّةً

لِمُسْتَكِنٍّ آبِدٍ ثائِرِ[١]

تَأْلَفُه الأُلَّافُ مِنْ أُنْسِهِ

ونَفْسُهُ فى فَزَعٍ نَافِرِ

وقَلْبُهُ يَزْأَرُ فى سِجْنِهِ

مِثْلَ زَئِيرِ الأَسَدِ الخَادِرِ

يَدِبُّ نَبَّاضًا بِهَمَّاتِهِ

مِثْلَ دَبِيبِ الوَحْشِ فى الحَاجِرِ[٢]

يا أُخْتَ ذِى النُّونِ اسْكُنِى واسْمَعِى

لا تُنْكِرِى زَمْجَرَةَ الزَّائِرِ

إنَّ ضَجِيجَ الرُّوحِ فى أَسْرِها

مَنْبَهَةُ المَأْسُورِ لِلآسِرِ

---

(١) ذو النون: لقب ليونس بن متّى لابتلاع النون إياه، والنون: الحوت، وذكره سبحانه فى سورة الأنبياء، وعنى أستاذنا هنا قِدمها. الآبد: المستوحش من الناس النافر.

(٢) الحاجِر: من مسايل المياه ومنابت العُشب ما استدار به سَنَدٌ أو نهر مرتفع.

اسْـتَـمِـعِي نَجْـوَايَ فِي عُـزْلَةٍ

تَخْـشَعُ فِيـهـا شَـفْـرَةُ الجَازِرِ

فِي مَـعْـبَـدِ الـرُّوحِ ومِـحْـرَابِـهـا

تَسْـجُـدُ هَمْـسًا صَـرْخَـةُ الزَّاجِـرِ

يَجْـثُـو ضِـرامُ الشَّـرِّ فِي نُورِها

ويَزْدَهِي فِـي صَـمْـتِـهـا الـطَّاهِرِ

تَسْـمُـو الأمـانِي بينَ أَرْجَـائِـهـا

قَـدْ طُهِّـرتْ بالأَلَـمِ العَـاصِـرِ

* * *

قَصائدُ مُتَرجمة

من ديوان الهند

صانعة الدموع

[نشرت بمجلة المقتطف المجلد ٨٣ ديسمبر ١٩٣٣]

أنا الرجلُ المشبُوبُ القويُّ الذى لا يَخْضَع،

أنا الرجلُ المُلْتَهِبُ كأنّ رُوحَه فى بَدنِه إعصارٌ من النَّار

أنا الرجُل الصَّخْرُ الذى تَقَعُ الأحداثُ عليه لتَرِنَّ ثُمَّ تنحدِر

بَلِ الرَّجُلُ البركانىُّ الذى لا يغضَبُ، فإن غَضِبَ تَفَجّرَ بالبلاءِ

* * *

نَفْسى كأنَّها قطعةٌ من القَدَرِ فلا تَسُرُّها ولا تسوءُها الأقدار،

بل كأنَّها سُنَّةٌ منِ الأبَدِ يستوى فى مرآتها الليلُ والنهار،

بل كأنَّها بعضُ الفَـلَكِ الذى تجرى فيه الشُّموسُ والأقمار،

بل كأنى عَالَمٌ مَسْحُور كُلُّه أَلغازٌ وكُلُّه أسْرارٌ

* * *

أنا ذلك الرجُل ما أزالُ وتلك نَفْسِى ما بَرِحتْ

ولكنْ ما هذا البلاءُ الجديد؟

ما هذا الماءُ المُنْهَمِرُ عَلَى خدىَّ حارًّا دَافِقًا؟

لكأنَّهُ من رَشَاشِ أمواج البَحْر فى مِلْحِه ومَرارتهِ؟

وكأنهُ من طائراتِ الحُمَم الفَوَّارَةِ فى لذعهِ وحرارته،

ولكنّ البَحْرَ بعيد، وما فى هذه الأرض حُمم

. . . بل كأنهُ من قطراتِ المطرِ

بَلْ ليس به، فالمطر عَذْبٌ خَصِر(١)

وإنى لأرى السماءَ سافرةً ليس يحْجُبُها سحابٌ

ولو قد كان فى السماء سحابٌ، لقلت: عسَى ولعلَّ. . . .

* * *

ما هذا السرُّ الخفىُّ بينَ جنْبىَّ؟

إنهُ ليهزُّنى كما أهزُّ الدَّوحة بساعدى المَفْتُول،

إنَّهُ ليَغزو ضياءَ قلبى بمثل سواد الليل،

---

(١) الخَصِر: البارد.

ولقدْ عهدتُنى مرحًا طروبًا، فما هذا الفتور؟!

وأنَا... آه... إنّى لنْ أنساك.... إنّى أُحِبُّك

* * *

ويحَ غيرى! لقد أصبحتُ أفهمُ هذه اللغة وكنتُ لا أفْهَمُها!

إنَّ لسانى لينذَلِقُ بها الآن كأنما كان يَرْتضِعُها من ثدى أُمّه!

أجل! لقد ارتضَعْتُ - صغيرًا - من ثدى أُمى هذه اللغة،

ولكنى نسيتها لما انفتلتْ قُوَاى واستمرَّ مريرى،[1]

نسيتُها لما كبرتُ وأصبحتُ رجلًا...

نسيتُها... ولعلّى نسيتها وأنا أصارعُ الحياةَ وكانت تريدُ أن تصرَعنى

نسيتُها... ولعلّى نسيتُ أشياءَ كثيرة فى الميْدَانِ

وهناك كلمة لعلّها مما نسيتُ فى حوْمةِ الحياةِ...

كلمةٌ مما سمعتُ، ما فهمتها، ودعينى -يا جميلتى- أفهمها وحدى

ما هى الدُّموع....؟

* * *

(١) استمر مريره: قَوِى واستحكم.

ما هى الدُّموع. . . . ؟

أهى عواطفى ترْسِلُها سحائب شجونى وأحزانى؟

أم هى أنفاسى الحارةُ التى كانت روح قُبُلاتى. . . ؟

أنفاسىالحارّة التى انعقدتْ لما دفعتْها الحياةُ عاليًا فى جوّ السماءِ. . .

أهِىَ نفسى تسيلُ علىَ خدّى حين ربَضتْ عليها الحياةُ بأثقالها فأسالَتْها...؟

أم هى إخلاصى وعفتى ووفائى تقطرُ من قلبى إذ تعتصره الآلام؟

أهى كلماتُ حبّى الذى لا يتكلم؟

أم لغة آلامى التى لا تفهمها إلَّا لحظَات عينيك؟. . .

آه،وما كنتعاجزًاولقد عجزْتُ. ألاافقولىأنتِ. . .ماهى الدُّموعُ؟

* * *

أتضحكين. . . ؟إنَّك تهزئين منى. . . فلستِ خالصة الحب. .

ويْلى. . . ! أراك أخضعْتِنى،وكنت الرجلَ المشْبوبَ الذىلا يخضع،

وأطفأتِ نارى، وكنت الرجل الملتهب كأنّ روحه فى بدنه إعـصار من النار،

وصدَعتِ صخرتى، وكانت الأحداث ترنُّ عليها ثم تنحدرُ،

وأَغْضبْتِنى. . . فالآن حذارِ أنْ يتفجَّر البركانُ بالبلاءِ

... لقدْسمعتُالناس قديمًا يصفونفىأنفسهم مثل هذا الطائف

سمعتُ قائلَهُم يقولُ: .... هو الهَمُّ،

أَجَل إنّهُ لهمٌّ ... وإنهُ من همٍّ لَحَبيبٌ

* * *

وما هذا؟ جديدٌ، ما عهدتهُ من قبلُ!

... إنها لتَتَحَسَّنُ بألوانها وتهَاويلها، ...

وإنها لتَـتَفَتَّقُمن سَرارتـهافترْسلمن فُتـوقهـا أمثالَ أشـعة القمر، ...

لقد أخذ الفتق يستدير ... وما هَذا القمرُ العجيب؟

ويحى ... ما هذا قمرًا ... إنهُ لَمَلَكٌ كريم،

ويحى ... إنهُ وجهُ غانيةٍ، وإنى لأجدُ فى نفسى أنى أعرفهُ

آه! آأنت؟ آأنتِ تلك الحسناءُ التى رأيتها بالأمسِ؟

* * *

أَجل! أنا الحسناءُ، والبلاءُ الجديدُ ما هو إلّا دموعُ عينيكَ

البلاءُ الجديد ...؟! دُموع عينيّ؟! ... ما أنتِ!

بل كيفَ استرقتِ أحاديثَ قلبى؟ . . .

إننى قريبةٌ منك وإن طارتْ بى النوى أو طوّحنى الفراق،

إنى لأراكَ . . ، وأسمعكَ . . وألجُ قلبَك . . ، وإن خلتَنى بعيدةً عنكَ،

وأنا . . . أنا التى صنعت لكَ هذه الأحلامَ لأَبدُوَ فى زينتها،

وزينتها هذه من بعض معانىَّ

* * *

إنى لأجرى منكَ مجرى الدَّم،

وذاك السرُّ هوَ ما يتطايرُ من دمكَ إذ أسبح أنا فيه،

وإنَّ ما يتطايرُ منهُ ليقعُ على شجرةِ أفكارك الجرداءِ . . . ،

فبعدَقليلٍما تنفصدُ أوراقها خُضْرًا ثم تَتَفطَّر ثم تورق ثم تتلفَّعُ،

وإذا شجرةُ أفكاركَ خضراءُ وارفةُ الظّلالِ

وظلالُهَا التى أفىءُ - أنَا - إليها تُسمّيها - أنت - الهمَّ . . . !

لقد جارَ منْكَ لسانُك . . ولكن سوف يرضينىمنك شىءٌ واحدٌ،

سوفَ يرضينى منكَ أنك لن تَنْسَانِى بعد اليوم وإن لم نَلْتَقِ . .

ولكن . . . ما أعجزنى، وما أعجز البركان!!

* * *

ومالكِ الآن يا نفسى؟ألست كما كنت! لاتسرُّكِ ولاتسوءكِ الأقدارُ؟

ألستِ كما كنتِ؟سنَّةٌ من الأبد يستوى فى مرآتك الليل والنهارُ؟

ألستِ كما كنتِ؟ بعضَ الفلك الذى تجرى فيه الشموس والأقمارُ؟

ألست كما كنتِ؟ عالماً كُلُّـهُ ألغازٌ وكلُّهُ أسرارٌ؟

أم أشعَّةُ عينيها تجعل من بنائى أحجارًا على أحجارِ؟

* * *

أغضبتَ- أيها الحبيب -؟ أحزِنْتَ . . ؟لا! لا تغضَب ولا تحزَن

إننى ما ضحِكتُ من سَخَر ولا استهزاءِ

ضحكتُ إذ صُرِفتُ عن الصواب وقد ملكتهُ . . .

لاتغضبْ ولا تَحزنْ . . . ألا تعرفُ ما هى الدُّموعُ. . . !

الدُّموعُ البريئةالتى تذرقها أنت لاما يسكبهُ الناسُ من محاجرهمْ . .

هى: . . . بل لا لا . . . إنها سرُّ صناعتى، لنْ أبوحَ به، . .

ويكفيك من عِلْمهاأن تعرفَ أنّى - أنا - التى أصنعُها لك. . . ،

أنا التى أصنعُ دموعكَ وأحلامكَ، وشجونكَ وآلامكَ. . . ،

أنا التى أصنعُ لك كلَّ شىءٍ، . . .

أنا التى تحبُّك . . .، وأنا التى لن تنْساك . . . .

* * *

ما هذا؟ اختفيتِ؟ فإنى لا أراك يا حبيبتى . . .

ما هذا؟ أين أنتِ يا صانعة دُموعى وآلامى؟

أينَ أنتِ يا صانعة آمالى وأحلامى؟

أين أنت؟ أينَ أنت؟ إنك تسمعيننى . . . لقد قلتِ ذلك

إنكِ تسمعيننى فلماذا لا تجيبين ندائى؟ لماذا؟

تعالَىْ، تعالَىْ! تعالَىْ واصنعى لى آلامًا ودموعًا أُخرى،

تعالَىْ، تعالَىْ! تعالَىْ واصنعى لى آمالاً وأحلامًا جديدةً

أريدُ آلامًا ودموعًا،

أريدُ آمالًا وأحلامًا

صاحب المسحاة

كتبها الشاعر الأمريكى أدون ماركهام

على أثر رؤيته صورة لميليه المصور الفرنسى تمثل عاملاً أضناه العمل

* * *

«خلق الله آدمَ على صُورتِه» حديث نبوىّ

أرأيتموهُ!! متـوكّئًا على نِصاب مِسحـاته، قد قوَّست - ما سوَّى الله من عوده - أثقالُ السنـين، فهو يُصوِّب إلى الأرض من نظراته.

أرأيتمـوه!! وفى محيَّـاه يتراءى خواءُ الأجـيال المتصـرمة، وعلى ظهره أعباء الحياة الدنيا

ألا فمن ذا الذى ردّه مـيتًا لا تنبعثُ منه عـاطفة فى طرب، ولا تقشـعرُّ فيه جارحـة من يأس؟ من ذا الذى صيره شـيئًا لا تحزنهُ نائبـة، ولا يحركه أمل. كـأنما هو ثور أعجم فى بلادته وحيرته؟

---

(١) المِسْحاة: مَجْرَفَة من حديد.

من ذا الذى وطَّأ فكَّه الوحـشىَّ حتى استـرخى؟ ولمن كفٌّ دكَّت هذا الجبـين حتى انهـزم؟ ولمن نَفَسٌ عصف بشـعلة هذا العقل حتى انطفأت.

أهذا هو المخلوق الذى برأه الله وسَـوَّاه وأخرجـه ليكون له السلطان على البـر والبحـر؟ وليتـوسَّمَ النجوم فـى أفلاكـها؟ وليستنبط القدرة من بناء السمـاوات، ولينتفض إحساسه بنشوة الخلود؟ سبـحانك الله ... فما نظنُّ إن فى جـهنَّم - ما بين خافـيهـا وباديهـا - صورة هى أبعث للرعب والفـزع من هذه الصورة. لا ولا صورة هى أفصح لسانًا بخزى هذه الأرض فى حرصـها الأعمى. أو صورة هى أجـمع للآيات والنُّذر المرسلة لهـذه النفس الإنسانيـة. أو صورة هى أحـفل بأشراط الدمـار الذى يأتى على هذا العالم.

شتَّان مَـا هذا الحيوان الذى يحمل أثقال الحيـاة، وما حَمَلَةُ العرش من الملائكة المطهرين. ما لهذا العبد الذى يدير طاحونة الحياة، ولأفـلاطون وفلسفته السـامية؟ ماله وللثـريا وعنقودها الخافق فى أرجاء السماء؟ ماله ولسُبُـحَات الأغانى المترامية؟ ما لهذا العبد وتَنَفُّس الفجـر الندىِّ وانبلاجه؟ ما له وللون الفاتن فى الوردة الجميلة.

من خلال هذا الشبح المفزع تطل علينا الأجيال المعذّبة، وفى هذه القامة المقوّسة تتمثل مأساة الحياة. بل من خلال هذه الصورة شكت الإنسانية بثّها إلى القدرة العالية التى خلقت السموات والأرض، حين خُدِعت بالخيانة، وسُلِبت بالمكر، وأُذِيلَت باللؤم، واستُصْفِيَت مواريثها بالمظالم. فكان بثُّها وشكواها شُعْبَةً من الوحى والنبوَّة.

وأنتم، أيها الأرباب والأمراء والحكام فى جنبات الأرض... أهذا ما تُقَدِّمُهُ أيديكم من عمل إلى ربكم سبحانه؟ ... هذا المَسْخ المشوّه، ... ،قد ذهبتم بنور النفس التى كانت تضىء فى قلبهِ ...!! تبًّا لكم ... كيف تقوّمون مرة أخرى ما تقوَّس من هذا العود المعوجّ؟ انفثوا فيهِ - إن استطعتم - روح الخلود .. بل ردُّوا عليهِ النظرة السامية التى كانت لهُ، بل النور المبصر الذى كان فى عينيهِ، ... ردُّوا عليهِ نَشْوتهُ للطرب، ولذته فى الأحلام. ارفعوا عنهُ ما نزل بهِ من الفُضُوح الباقية، وأصلحوا ما كان من الخطايا الشائنة وامسحوا عن قلبه همومًا لا طِبَّ لها.

أيها الأربارب والأمراء والحكام فى جنبات الأرض

ألا خبرونا أين يضع الغيب المحجوب هذا الإنسان؟ وكيف

يجيبهُ عن سؤاله المُتَوَثِّب الضارى يوم تزلزل الأرض، وتخرُّ الجبال ويتدافع الكون بعضهُ فى بعض . . . ! ألا وظنُّوا ما يُفْعَل بهؤلاءِ الأرباب الظالمين والملوك المتجبرين الذين نكَّروا الصورة التى سوَّاها الله ثم صوَّروه فى تجاليد هذا المَسْخ الهائل

ظنُّوا . . . يوم تُبدَّل الأرض غير الأرض والسموات

يوم يأتى القاهر الجبَّار ليحاسب خلقه الجبارين

يوم ينطق الحقُّ الأبدىُّ، ويسكت الزمن الفانى

﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾

﴿ يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِى كُنتُ تُرَابًا ﴾

رحمة الله عليها

لأوسكار وايلد

نشرت بمجلة المقتطف، الجزء الرابع من المجلد ٨٥
ديسمبر ١٩٣٤م، ص: ٥٠٤

[عنى محمود محمد شاكر بنقل هذه القصيدة نقلاً حرفيًّا، وتوخَّى علاوةً على ذلك أن يكون فى الترجمة العربية شئٌ من الإيقاع الموسيقىُ، المعهود فى الشعر المرسل باللغات الأجنبية]

خَفِّفِ الخُطَا   إنها قَرِيبْ   تَحتَ الضَّرِيبْ(١)

واخفِضِ الصَّوْتَا   إنَّها تكادْ   تَسْمَعُ النَّبْتَا   وَهْوَ يَنْمو

وفَرْعُها الجَثْلُ   يلمعُ كالتِّبْرِ   خَبَا به الصَّدَا(٢)

تلْكَ التى كَانتْ   غَرْيِرَةً طَفْلَهْ   قد ضَمَّها التُّرَابْ(٣)

زَنبقةٌ كانتْ   بَيْضَاءَ كالضَّرِيبْ   ما عَلِمَتْ يومًا

بأنها أُنْثَى   فَشَبَّ عُودُهَا   فى رِقَّةٍ ولِينْ

---

(١) الضرب: الثلج.

(٢) الفرع الجثل: الشَّعْر الغزير. خبا: معروف، يقال فى النار إذا سكنت، وفى النجم إذا قل ضوؤه وقارب على الاختفاء. الصدا: الموت.

(٣) الطفلة: الرَّخْصَة الناعمة.

هَذا هُوَ التَّابُوتْ   والحَجَرُ الصَّلْدُ   يَقْسُو على الصَّدْرِ

دَعْنِى أنا وَحْدِى   أُعذِّبُ القَلْبَا   فإِنَّها تَرْتَاحْ

صَهٍ صَهٍ صَهٍ   لَنْ تَسْمَعَ الغِنَاءْ   ولا حَنِينَ النَّاىْ

كلُّ مُنَى حياتى   مَدفُونَةٌ هنا   سُنُّوا عليها التُّرْبْ[1]

* * *

(١) سَنّ التراب: صبَّه على وجه الأرض صبّاً سهلا.

الشباب والشيخوخة

لروبنصن جفرز - شاعر أمريكى معاصر

نشرت بمجلة المقتطف المجلد ٨٥ - ديسمبر ١٩٣٤

زكِّ دَمَ الشبـاب الفائر ما بدا لك، فـإن السعادةَ لا تتـحقَّقُ
لأحد إلَّا حين يخوضُ الحيـاة فى الشباب والدَّمِ الفوَّار.....
إلى شتائها حيثُ يسعُ الرجُل أن يتلبّثَ ويتذكَّر ما مضى.

فى الشباب والدم الفوّار فتنةٌ وجمالٌ، ومثل ذلك فى السكينة.

فى بحر الشبابِ جُزُرٌ عارضةٌ، ولكن الكِبَر كلّهُ جزيرة وقمةٌ عاليةٌ.

وفى الكِبَرِ وهنٌ غير قليل، ولكن الشباب جميعه حُمَّى دائمة.

لأن تَتَلفّتَ فى سكينة إلى آثار صنع الله مملوءَ القلب بالمحبـة،
أَجْدَى عليك فيما أرى من أن ترتضع ثدىَ الأُمِّ أو ثدى الحبيبة

...... لن تجدَ فيما تملك أَبْقَى عليك من الذكرى

ولكنى حين أَبْلغُ تلك الجزيرة الغبراء وأَعْلُو قمتها فكل

المنى أن تكون بعينى منازل أحبابى الأقدمين -

ببحورها وجبالها، فأمدُّ الطرف متأملًا فى بحر الموت

بِظَمإٍ أبلغ من ظَمَئى إلى الكِبَر.

إن الذى يشتدُّ بهِ الظمأُ إلى الحياة لهو أشدُّ

بعدُ ظَمَأً إلى الموتِ

ذكرى أم كلثوم

للشاعر التركى إبراهيم صبرى

[نشرت الرسالة فى عددها (٤٨٠) تعريفًا بالشاعر التركى إبراهيم صبرى وترجمة لقصيدة من شعره. وهذه القصيدة التى ترجمها صديقه الأستاذ «محمود محمد شاكر» تعطى صورة جديدة من الشعر التركى بل من الشعر التركى فى غربته. وفيها يصف الشاعر ذلك الصوت الشعرى السامى الذى يسحر السمع، ويسبح بالروح فى جو ممتد كامتداده، مرتعش كرعشته، منتحب كانتحابه: صوت أم كلثوم]

إلى أخى محمود محمد شاكر

انصرفتُ من دعوتك الماضية وقد احتفظت بشعور وإحساس كتب فى ذاكرتى هذه الأبيات:

* * *

كـان يومًـا بديـعًـا مِلْؤُه السـرور! واحـسـرتـا لذلك اليـوم! لقد مضى!

ألوان من الطعام لذيذة اتصلـت بموسيقى السِّحْـر التى فاضت على شفتى أم كلثوم الفاتنة،

قصيدة وردية من أباريق اللحن انسكبت فى أرواحنا.

حين يأخذنى سكر الإبداع أجد قلبى نشوانَ،

وتذهب أعصابى فى سُبات عميق من فرط ما ثملت.

* * *

حينئذ أشعر بعروج خيالى وحده إلى عالم الأرواح

تاركًا على الأرض كل ما هو نقيض لهذا الصوت السماوى

أُرانى أصل بخيـالى إلى قمر فى آفاقه نغم ألحـانه من عالم الحُور والسحر:

هو ذرة أثيرية أُخرى لا أبعاد لها، تكوِّن هواء ذلك القمر وماءه وأرضه ونوره الشفاف.

إن هذا الصوت ليس للتراب، إنما حقه أن يسمع فى السموات

فى مصر التى تشعرك بالبقاء أدوارُها التاريخية المديدة

وفى مصر التى يشبه الأهرام فيها صوت أم كلثوم

لا أقف لأستمع بل أُبادِر لأنظر وأشاهد.

(ليلى والدهر) فى ذلك الصوت كلاهما كمومياء مُذهَّبَة جديرة بالمشاهدة.

فى هذا الصوت تتمزق صدور العشاق إربًا إربًا،

وكيف لا تتمزق فيه صدور العشاق، وقد ورِث نبىٌّ موسيقار لوعةَ نايه من هذا الوادى.

وإن حَفَر البَشَرُ الهواءَ فى المستقبل، فلعلهم يكتشفون فى صوتها صوتَ المزامير.

حين تبدأ تغنى ينبعث صوتها كأنه وسوسةٌ ذاتُ ألوان من الحباب المنطفئ على النيل الأخضر الذى يجرى أمام الشمس النَّارنجيَّة؛

ثم إذا بك تراه ينقلب إلى أمواج فى بحر تندفع كل موجاته فترتطم على قلب؛

ثم إذا بك تراه ينتصر على البعد المطلق.

تخال رَجْع (نواه) آتيًا من وراء الفضاء.

هذا الصوت يغرد كتغريد البلبل في الجنة،

كأنما تفوح منه رائحة ماءِ الورد وشجرة العود؛

كأنه نطفة يجرى فيها ماء الحياة، لو انصبَّت قطرة منها على أجساد الموتى لشعروا بها.

هذا الصوت يمسُّ خدَّ السمع كمنديل من الحرير في كفٍّ معطَّرة،

كم من ناصية قد اعتمدت على هذه اليد الساحرة

تبكى وتنوح، غارقة في حنانها،

لذلك ينبعث ترديده منتحبًا

ولذلك يحرق كما يحرق البكاء

* * *

حين غربت الشمس - انطفأ اللون الأحمر للرمال المتوهجة في جوف الصحراء فكأنها استحالت رمادًا،

وتردد في نفسى صدى النغمة الأخيرة لهذا الصوت فأثار وجدى فقمت للوداع من زاويتى حيث كنت مستغرقًا في خواطر.

كأن ذاكرتى لم تكن معى

عادت كأنما عادت من وراد أُفق بعيد؛

وكأنها يد وضعت على كتف روحى

وأعادتنى إلى الحقيقة.

تذكرت حينئذ زمنًا من الأزمنة الماضية:

اجتمعت ليلة فى بيت صديق ومعنا (سامى)[١]

ما كان أبدع ما غنى من (الغزل) والأصوات!

كيف كوى بها قلوبنا؟

وكيف امتلأت جفوننا بالدموع ككؤوس خمر؟

وكيف أصبح شيطان ألحانه ساقيًا للعَبَرات؟

إذا فاضت دموع التأثر من هذه العيون التى كانت ترسل دموع اللذة فى ذلك الزمن، فلا بأس!

فإن فى هذه الأرض أصواتًا تجعل الغربة أُنسًا

وفيها مودتك المخلصة الغالية.

---

(١) مطرب تركى.



فهرس القوافى حسب ورودها فى الديوان

فهرس قصائد الديوان مرتبة حسب القوافى

فهرست

الموضوع	الصفحة